من المحرر

في العدد ملف متواضع عن بعض بطولات الأمة وانتصاراتها على صعيدي الحرب والادب - فعلى صعيد الحرب، تبرز معركة عين جالوت ضد المغول التي اضافت الى الفكر العسكري العربي ما عرف بالمناورة بضرب الجناح ،

وقد أكدت هذه المعركة التاريخية قدرة العرب على التصدي لاعتى هجمة وحشية تعرضت لها الارض العربية من خلال استحضارات شتى اتخذتها القيادة المصرية من تعبئة نفسية واقتصادية وعسكرية مما يدل على عبقرية العقل العربي وقدرته على استيعاب فنون القتال واستحضاراته المختلفة

وعلى صعيد أدب المقاومة يجسد الشاعر أبو العباس الجراوي روح المقاومة العربية الاسلامية في مجابهتها التحديات الخارجية ، وتمجيد رموز المقاومة من أبطال الامة .

وليس غريباً على هذه الامة أن تكتب هذه الصفحات المشرقة من بطولاتها وأمجادها فهي الامة التي شرفها الله جلت قدرته برسالة الاسلام ، وهي الامة التي تخوض هذه الأيام حرب البقاء ممثلة في أم المعارك الخالدة ، فعسى أن يكون في الملف إشارات رمزية الى عظمتها وعبقريتها والى لقاء في ملفات قادمة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الافتتاحية

ام المعارك ملحمة العراق والعروبة

كان العدوان الثلاثيني الغاشم الذي استهدف العراق ومن خلاله الامة ، وليد التخطيط الصهيوني والامبريالية العالمية ، فالعراق الجديد ، الذي اقامت نظامه القومي ثورة ١٧ - ٣٠ تموز العظيمة بقيادة الرئيس القائد المجاهد صدام حسين حفظه الله ورعاه ، بات الخطر الحقيقي الذي يهدد المصالح الاجنبية والمرتكزات متنوعة الاتجاهات والاجناس التي اقامها الحلف المعادي غير المقدس هنا وهناك من ارض العروبة بخاصة وفي منطقة الشرق الاوسط بعامة . وقد جاءت صفحات العدوان اللئيم المتعددة متكافئة مع حجم العراق المادي والاعتباري بما يمثله من قيم ثورية ، وطموحات عربية شكلت مجتمعة روح الامة ومجمل تطلعات جماهيرها .

ولكن العراق الذي استلهم الامة تاريخاً ، ورسالة ، وطموحاً ، اثبت في ام المعارك الخالدة انه كان بمستوى المنازلة الكبرى ، فتجاوز ، بكبرياء ، الصفحة العسكرية ، وصفحة الحصار الاقتصادي والحضاري الشامل الذي اريد منه ان يكون انشودة الموت ، كما مزق صفحة الخيانة والغدر ، وها هو يقف شامخا معافى وقد حقق العبور الناجز بتوفيق من الله ، وبقيادة عبقرية نادرة تمثلت في مثال عز نظيره : ذلك هو المجاهد المؤمن المنصور بالله صدام حسين . وبتلك الوقفة الرجولية الفذة ، وبذلك الصبر العراقي العجيب ، احبط العراق العظيم المؤامرة الصهيونية الامبريالية واعاد للامة ثقتها بنفسها وبقدراتها الخلاقة .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

مجداً لقائد المسيرة ، ورمز كبريائنا وعنوان عزتنا المجاهد صدام حسين ، ومجداً للامة العظيمة التي انجبته ، ومجداً لشعبنا العراقي الصامد والرحمة لشهدائنا الابرار الاكرم منا جميعاً وليخسأ اعداء العراق والعروبة والله اكبر .

رئيس التحرير

معركة عين جالوت

٦٥٨ هـ / ١٢٦٠

د . عماد عبد السلام رؤوف

الموقف العام للمغول :

١ ـ كان احتلال مصر يمثل اخر أهداف الخطة السوقية العامة للمغول ، والتي تم وضعها ، أو أقرارها ، في أثناء انعقاد مجلس البلاط الامبراطوري المغولي (القورلتاي) في قواقورم العاصمة في اواسط اسيا ، نحو سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م أو سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م ، اذ كلف خان المغول الاعظم منكو خان اخاه هولاكو بالتقدم غرباً لاحتلال :

أ ـ غرب ايران . اذ كان شرقها قد احتل فعلاً .
ب ـ العراق .
جـ ـ بلاد الروم (سلاجقة الروم في شرقي الاناضول) .
د ـ بلاد الارمن (مملكة ارمينية الصغرى في جنوبي الاناضول) .
هـ ـ مصر حتى اقاصيها .(١)

وعلى الرغم من عدم وجود معلومات يركن اليها حول تقدير حجم القوات المغولية المسلحة التي تقدمت بقيادة هولاكو ، الا انه من الواضح انها كانت كبيرة جداً بالقياس الى جيوش ذلك العصر ، حتى وصفت بانها (كالنمل والجراد) وزاد من فاعلية هذه القوات ، ما الحق بها من خدمات ادارية فائقة ، وفرق من اصحاب المجانيق وزراقات النفط والمهندسين العسكريين المختصين بنصب الجسور وردم الخنادق وبناء الابراج . وكان مالوفاً أن تضاف الى الجيوش المغولية كلما تقدمت في سيرها ، اضافات جسيمة من الجند من قوات الدول والمدن المغلوبة .

وفي خلال السنين القليلة التالية ، تم تنفيذ معظم اهداف الخطة فاحتلت الهضبة الايرانية باكملها ، وأزيل عدد من الدول والقرى الحاجزة ، أهمها دولة خوارزم مشاه العسكرية ، وانطلقت كتائب المغول لتحاصر او تخرب ، او تشيع الاضطراب في الاقل ، في مدن العراق الشرقية ، دون ان تلقى من الاستعدادات السياسية والعسكرية ما يكافىء خطرها وخطط قادتها .

وأثر معركة دجيل الحاسمة في ٩ ـ ١٠ محرم ٦٥٦ هـ / ١٣ ـ ١٤ كانون الثاني ١٢٥٨ م تم احتلال بغداد عاصمة الخلافة العباسية ورمز الاستقلال السياسي للعراق ، فغدا واضحاً لهولاكو ان الموقف السياسي والعسكري بات في صالحه تماماً ، وانه لم تعد ثمة عقبات يمكن ان تحول بين قواته وبين انجاز ما تبقى من الخطة الموكل بتنفيذها . وكان خضوع حاكم الموصل واخضاع مدن العراق الشمالية ، وبخاصة الواقعة منها على الفرات ، وقبول سلاجقة الروم في الانضول بسيادة المغول على بلادهم ، وتعاون الارمن معهم ، يعني أيجاد قواعد حركات وتموين مناسبة ومحمية ، لاي تقدم سوقي باتجاه بلاد الشام ، الاقليم الشمالي لدولة المماليك ومفتاح مصر .

٣ ـ وساعدت الحالة المعنوية المتردية للحكام المحليين في بلاد الشام وروح الياس والاضطراب السائدة على مضي هولاكو في تنفيذ خطته فارسل في ربيع ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م جيشاً ليؤمن طريق العراق ـ الجزيرة بلاد الشام ، وبعد ان عاث الجيش في نواحي ذلك الطريق ، عاد هولاكو فقاد بنفسه جيشاً كبيراً ، وصف بانه (جيش كامل) أخضع به ديار بكر وحران والبيرة فحلب وحماه وحمص ودمشق(٢)

٤ ـ وفي وسعنا ان نتصور ضخامة هذا الجيش اذا ما تذكرنا ان هدف حركات هولاكو العسكرية لم يكن يقتصر على احتلال بلاد الشام وحدها ـ على كثرة مدنها ومناعة قلاعها ـ وانما غزو مصر ، الدولة العسكرية الاولى في المشرق العربي آنذاك ، واخضاعها الى احتلال مغولي مباشر .

ومن دمشق شرع المغول بالاغارة على مدن فلسطين ، ناشرين الرعب والدمار فيها ، فوصلت كتائبهم الى الصلت(٣) وبركة زيزا(٤) والخليل وبيت جبريل(٥) ، بل وصلوا في احدى غاراتهم الى غزة والكرك(٦) فكانت تلك الحركات بمثابة جس لقوة الدولة المملوكية ، ومدى رد فعلها ازاء فقدانها اقليمها الشمالي .

وازاء عدم وجود رد فعل جاد ، بدا لهولاكو ان امر احتلال مصر اضحى قاب قوسين او ادنى ، وشرع الجيش المغولي بالاستعداد للتقدم نحوها ، وأفرز هولاكو طليعة جيشه بقيادة الامير بايدر (وربما كتبت : بيدرا) باتجاه جنوب فلسطين ، فاحتل هذا غزة وأستمكن بها .(٧)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي تلك الاثناء ، وصلت الانباء بموت منكوخان ، فاضطر هولاكو الى الانسحاب بجزء من جيشه ، والتوجه بسرعة الى قراقورم للمطالبة بحقوق الوراثة ، تاركاً في بلاد الشام قائده وصهره كتبغا ، على رأس القسم المتبقي من الجيش ، وعدداً من الحاميات الموزعة في العديد من المدن ، وبخاصة دمشق وحلب وحمص وحماه وماردين وميافارقين وغيرها .

وليس من الواضح ما اذا كان هولاكو قد فوّض قائده كتبغا ان يتقدم بقواته لاحتلال مصر في اثناء غيابه او انه فضل ان يحتلها هو ، وعلى اية حال فان رشيد الدين الهمداني[٨] يذكر انه تركه (للمحافظة على الشام) ولم يشر الى أي امر صدر اليه بشأن مصير مصر .

الموقف العام للمصريين :

٦ ـ عندما قررت القيادة المغولية العليا وضع احتلال مصر ضمن اهدافها السوقية العامة ، كانت مصر تمر بمرحلة انتقالية حاسمة في تاريخها السياسي والعسكري ، فلقد انقرضت حكومة الايوبيين المركزية في القاهرة ، وان كانت فروع لها ما تزال تتولى السلطة في بلاد الشام . لذا فقد كانت علاقات تلك الفروع بالسلطة الجديدة في القاهرة لا تخلو من حساسية وتعقيد فهي لا تحس بالانتماء الفعلي اليها ، كما كانت الحال في عهد حكومة الايوبيين ، ولكنها ـ من الجهة الاخرى ـ ظلت تشعر بانها جزء من دولة واحدة مركزها القاهرة وهو الشعور الذي رسخته التقاليد السياسية الثابتة في المنطقة ، واكده الايوبيون انفسهم في عهد قوتهم وازدهارهم .

وسرعان ما ورثت هذه الحكومة مسؤولية الدفاع عن اقليمي مصر والشام من اعتداءات الامارات والقوى الصليبية المنتشرة على سواحل الشام ، وكان الجهد العسكري المصري موجهاً بشكل رئيس ضد هذه الامارات اذ لم يكن متوقعاً ان تواجه مصر غزواً اخر يأتي من الشرق حتى احتلال القوات المغولية العراق وانفتاح طرق الشام الداخلية امامها .

٧ ـ وعلى الرغم من حداثة تشكيل الحكومة العسكرية ، فان المماليك انفسهم كانوا قد عانوا من الحياة السياسية ، واحتكوا بمشاكل مصر الاقتصادية ، وادركوا طبيعة ما يتهدد البلاد من اخطار ، بحكم خدمتهم الفعالة في جيش الايوبيين ، وفضلاً عن ذلك ، فان خبرات ومهارات عسكرية واسعة تجمعت القاهرة في تلك السنين نتيجة وصول عدد كبير من القادة المحنكين والجنود المحترفين ، من أرجاء العالم الاسلامي اليها .

وكان اولئك القادة يرون في مصر خطهم الدفاعي الاخير بعد انهيار جيوشهم ودفاعاتهم جميعاً ازاء التقدم المغولي ، وشهدت السنة التي أعقبت احتلال العراق ظهور بعض القادة اللامعين ، الذين اخذوا يتولون الحكم على التعاقب ، كان ابرزهم المظفر قطز ، وركن الدين بيبرس ، اللذين اقترنت باسميهما عملية تحرير بلاد الشام من الاحتلال المغولي .

قرار احتلال مصر :

٨ ـ اعلن هولاكو عن رغبته في غزو مصر واحتلالها اذ ارسل الى سلطانها قطز رسالة صيغت بكل ما تحمل الالفاظ من معاني الغطرسة والوعيد ، طالباً منه الاستسلام الكامل ، وقبول السيادة المغولية على بلاده ، بحجة ان ذلك تنفيذ للارادة الالهية .[٩]

ولقد استند المغول ، في موقفهم هذا ، الى العوامل الآتية :ـ

أ ـ وجود قواعد غنية وقوية تحمي ظهر القوات المغولية المتقدمة غرباً تتمثل ببعض مدن العراق والجزيرة المحتلة ، التي تربطها بمدن الشام ، وخاصة فلسطين ، طرق مواصلات جيدة .

ب ـ وجود امارات صليبية قوية ومعادية للوجود العربي الاسلامي في المنطقة ، وتشارك المغول رغبتهم في ضرب دولة المماليك والقضاء عليها نهائياً ، وأهمها واكبرها خطراً ، امارة عكا على ساحل البحر المتوسط .

ج ـ وجود بعض القيادات المحلية التي تورطت نتيجة لعوامل مختلفة ، في الاذعان لارادة المحتلين ، ومن الممكن الاستفادة من اهميتها السياسية وما قدمته من مساندة عسكرية .[١٠]

د ـ وجود اقليات متعاونة مع المغول ، او لها رصيد سابق في معاداة العرب المسلمين ، كالنصيرية في نواحي اللاذقية ، والارمن والكرج في اعلى بلاد الشام ، يمكن الاستفادة من قواها العسكرية ، وهو ما حدث بالفعل في اثناء احتلال دمشق مثلاً .

قبول المعركة :

٩ ـ عند وصول الرسالة الى بلاد المماليك في القاهرة ، دعا قطز الى عقد اجتماع عاجل للقيادة العسكرية التي تضم كبار قادة المماليك للتداول بشأن ما يمكن اتخاذه من رد مناسب ، وقد كشف الاجتماع عن وجود اتجاهات مختلفة هي :

أ ـ الانسحاب من مصر الى قطر اخر [لم يذكر اسمه] .[١١]

ب ـ عدم التعرض ، والدفاع عن مصر عند دخول الجيش المغولي حدودها الاقليمية .[١٢]

ج ـ المبادأة بالتعرض ، على اساس ان الدفاع عن مصر لا يكون الا في خارجها أي في فلسطين بالذات ، بوصفها مفتاح مصر وبوابتها الوحيدة في الشرق . ولقدنجح قطز بتحريض وتشجيع من قائده بيبرس في تغليب الخيار الاخير ، واتخاذ القرار بقبول المعركة . وبعد انتهاء الاجتماع ، امر السلطان قطز باعدام الرسل الذين حملوا رسالة هولاكو اليه واسترقاق

احدهم[١٣]، وبذلك اعلنت القيادة المصرية رغبتها في قبول المعركة الى اخر مدى.

ولقد استندت القيادة المصرية في موقفها هذا الى ما ياتي: -

أ - وجود قوات عسكرية كبيرة في مصر. يمكن - ان احسنت قيادتها وتعبئتها عسكرياً ومعنوياً - ان تكون بمستوى يكفل لها تحقيق النصر.

ب - معرفة القيادة المصرية التامة بالطرق الداخلية لبلاد الشام، وهي التي يمكن ان يسلكها جيش المغول في اي تقدم مقبل، وفهمها العميق لطبوغرافية هذا الاقليم وخصائصه المختلفة، ويمكن ان نذكر هنا ان العديد من القادة والجنود المصريين سبق لهم ان خاضوا معارك مهمة في فلسطين في اواخر حكم الايوبيين، اي قبل الاحتلال المغولي بمدة قصيرة.

ج - وجود استخبار مصري قوي في هذا الاقليم، عماده القبائل العربية الموجودة فيها، وبخاصة في فلسطين، وعدد من الزعماء والافراد الموالين لمصر والذين يعدون انفسهم ما زالوا مرتبطين ادارياً وروحياً بسلطتها المركزية على الرغم من تعرض اقليمهم الى الاحتلال.

د - انحياز السكان من ابناء المدن واهل القرى الى الجانب المصري، ونفورهم الشديد من الاحتلال المغولي وادواته.

هـ - قصر خطوط الامداد المصري نسبياً، وقرب الجيش - عند وجوده في فلسطين - من مناطق تحشده في الريدانية [قرب القاهرة] والصالحية [في شرقها].

و - عدم وجود خيار امام القيادة المصرية سوى القتال، اذ لم تعد ثمة قوى خارجية يمكن ان تمد اليها يد المساعدة العسكرية، ولذا فان عليها تحقيق اقصى النتائج اعتماداً على قواها الذاتية فحسب.

الاستحضارات المصرية:

- التعبئة النفسية:

أ - اولت القيادة المصرية اهتماماً واسعاً لهذا الجانب، نظراً لحالة التداعي العام الذي اصاب معنويات العسكريين والسكان عامة اثر وصول انباء اكتساح المغول للجيوش الاسلامية في المشرق، واحتلال العراق وبلاد الشام. وكانت حالة من اليأس قد تسربت الى نفوس القادة الكبار انفسهم، فغدوا عاجزين عن اتخاذ قرار محدد بشان الخطر الداهم[١٤] وبما ان معظم الجيش المصري كان يتالف من كتائب، كل منها بامرة قائد يتولى تدريبهم واطعامهم واسكانهم بوصفه مالكهم، فقد كان لزاماً على السلطان قطز ان يحصل على ولاء اولئك القادة، ثم موافقتهم على مبدأ قبول المعركة.

ب - قاوم قطز الاتجاهات الانهزامية التي تمثلت في مواقف معظم القادة الذين حضروا مجلس الحرب المنعقد في ١٢ شعبان ٦٥٨ هـ / ٢٤ تموز ١٢٦٠ م وكان اعدامه للرسل في مساء ذلك اليوم، يمثل حركة بارعة لتقوية الجبهة الداخلية، اذ قطعت سبيل التراجع على القادة المترددين، ووضعتهم امام امر واقع لا مفر من مواجهته، واظهرت جدية القيادة على سلوك الطريق العسكري لحل الازمة وانقاذ الوطن، كما ساهمت من ناحية اخرى في تبديد هيبة المغول في اعين الشعب.

ج - وكان لخطبه الحماسية اثرها في رفع الروح المعنوية. من ذلك قوله للامراء المترددين [يا أمراء المسلمين، لكم زمان تاكلون اموال بيت المال وانتم للغزاة كارهون، وانا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته، فان الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتاخرين].[١٥]

وكان يلتقي احياناً بالامراء المخلصين لقضية الحرب والقتال، فيدبر معهم خطة الاجتماع العام بالامراء المترددين، حتى اذا عقد الاجتماع وتحدث اليهم في امر القتال، كان التاييد والحماس من قبل انصاره وامرائه سلاحاً ادبياً للضغط على هؤلاء المترددين وكسبهم لصف المعركة والقتال.[١٦]

وفي احيان اخرى، كان يخرج ليلاً في عسكره، ويصيح في الامراء قائلاً [انا خارج القى التتار بنفسي][١٧] حتى جاء اليوم الذي جمعهم فيه وحضهم على قتال التتار، وذكرهم بما وقع باهل الاقاليم من القتل والسبي والحريق، وخوفهم من وقوع مثل ذلك، وحثهم على استنقاذ الشام من التتار ونصر الاسلام والمسلمين، وحذرهم من عقوبة الله، فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتار ودفعهم عن البلاد].

د - واضافة الى خطب قطز في القادة والامرين، توجه الى الشعب مباشرة، اذ ارسل المنادين يطوفون انحاء العاصمة والاقاليم يدعون الناس الى [الخروج الى الجهاد في سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله [ﷺ][١٨] فيذكون بذلك روح القتال، والتصدي للعدو، ويغرسون الثقة بامكان النصر.

التعبئة الاقتصادية:

أ - تم تحويل جزء كبير من موارد الدولة لصالح المجهود الحربي، ففرضت ضرائب جديدة، ذات طابع تصاعدي، على فئات الشعب، واستوفيت ضرائب تقليدية اخرى، كالزكاة مثلاً، بصفة معجلة. كما استوفي بدل نقدي عن كل ذكر لم يشارك في القتال، بل عن النساء ايضاً، من سكان العاصمة[١٩] فبلغ جملة ما جمعه من الاموال، من اجل المعركة، نحو ٦٠٠٠٠٠ دينار وهو مبلغ ضخم باعتبار الوقت، أنفق جميعه على [العسكر والعربان][٢٠] اي على تدريبهم واعدادهم وتزويدهم بالاسلحة والمهمات وشراء الخيل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والابل والبغال وما يتصل بذلك من شؤون .
ب ـ فرضت اجراءات تقشفية ضرورية ، لتقليل نفقات الدولة في الامور السلمية وتقليص مظاهر الترف لدى الفئات الثرية ، ولا سيما بين القادة والامرين .[٢١]

التعبئة العسكرية :

كان اعلان القيادة المصرية حالة النفير العام[٢٢] يمثل ـ في جوهر الامر ـ الرد المباشر على شروط المغول وغطرستهم ، ولم تكن مصر قد شهدت نفيراً عاماً ـ على هذا النحو ـ من قبل ، وعلى الرغم من ان المصادر التاريخية تشير الى ان اعلان النفير جاء بعد قتل رسل المغول[٢٣] الا ان من الواضح ان استعدادات كهذه ، بدأت قبل ذلك بمدة غير قليلة ، وقد بدأت في الغالب عند وصول انباء احتلال دمشق الى القاهرة ، اذ يشير ابن تغري بردي الى انه حينما وصلت غارات المغول الى غزة وبلد الخليل كان [سلطان الملك المظفر قطز سلطان مصر يتهيا للقاء التتار] .[٢٤]

وقد اتخذت اجراءات حازمة ضد كل من يتخلف عن الالتحاق بالخدمة من العسكريين [الاجناد] الا اننا لا نعلم ما هي الاجراءات التي اتخذت بحق من لم يستجب للنفير ، وان كان يفهم من قبول دفعهم البدل النقدي ، ان انضمامهم الى الجيش كان على سبيل التطوع لا الالزام . اما القبائل فقد جرى استنفارها عن طريق دعوة زعمائها وجمع كلمتهم فـ[بعث اليهم بالعطايا ، وازاح العلل [اي المظالم][٢٥] .

قوى الطرفين :

ـ تثير مسالة تقدير احجام الجيوش في العصور الماضية مشكلة حقيقية للباحث في التاريخ العسكري ، وذلك لسكوت المؤرخين احياناً عن الاشارة الى اعداد الجيوش المتحاربة ، واكتفائهم بايراد اوصاف عامة مبهمة ، او انهم يشيرون الى عدد جيش ما ، ولكنهم يغفلون عن ذكر عدد الجيش المقابل ، وتتاثر الروايات الخاصة بهذا الشأن ، بالعوامل النفسية والمعنوية لاصحابها ، فالتهويل في عدد القوات المعادية يقصد به عادة اظهار بسالة القوات الوطنية ، والتقليل من عدد الاخيرة ، يعطي تبريراً لانكسارها في معركة ما . وبالجملة فان من الصعب جداً الاطمئنان الى التقديرات المتوفرة ـ وهي قليلة ـ ويبقى للمؤرخ مجال واسع في اعادة تقويمها على ضوء المعطيات التاريخية الاخرى .

الجانب المغولي :

أ ـ حجم الجيش :

لا تقدم المعلومات المستقاة من الجانب المغولي اي تقدير لحجم الجيش المغولي في عين جالوت ، ولكن المؤرخ الارمني المعاصر ابن العبري[٢٦] يشير الى ان عدد افراده بلغ ١٠٠٠٠ فارس ،[٢٧] وان هذا العدد كان يقل كثيراً عن عدد افراد الجيش المصري . ونحن نشك في هذا التقدير للاسباب الاتية :ـ

اولا : إن قائد الجيش المغولي كتبغا ، كان يحمل اعلى رتبة عسكرية مغولية وهي [نوين] ، ولا تناط به الا المهمات الكبرى ، ويتلقى اوامره من هولاكو نفسه . وهو مع ذلك صديقه وصهره ، فلا يعقل ان يتولى قائد بهذه الرتبة والمنزلة قيادة جيش صغير .

ثانياً : يشير ابن العبري[٢٨] في موضع اخر الى ان العشرة الاف فارس ، هي جيش كتبغا عند دخوله بلاد الشام ومباشرته احتلالها ، وليس عند نشوب معركة عين جالوت فحسب . وهذا العدد بالغ القلة اذا ما نظرنا الى جسامة المهمة المطلوب منه اداؤها ، وهي المشاركة الفعالة مع هولاكو في احتلال العديد من المدن الشامية ، وكلها محصن ، ومنيع ، ويحتاج الى جنود كثيرة لاحتلاله .

ثالثاً : تذكر الروايات المصرية ان كتبغا جمع كل من تفرق من التتار في بلاد الشام ، وتعني بذلك جنود الحاميات المغولية التي انيط بها امر تثبيت سلطة الاحتلال وحماية رموزه ، وجباية الاموال بالقوة ، ولاشك في ان عدداً كبيراً من المغول كانت تستوعبه تلك الحاميات نظراً لكثرة المدن الشامية وتفرقها .

رابعاً : ان غلبة الطابع العسكري على دولة المماليك الحاكمة في بلاد الشام ، وحيازتها تراث الايوبيين العسكري الحافل ، وتجارب الحروب ضد الصليبيين ، يجعل من غير الممكن ان يحتل كتبغا بلاد الشام كلها بعشرة الاف جندي فحسب ، ثم يتوجه الى مصر ، وهي قاعدة الدولة وفيها جيوشها ، ليحتلها بما تبقى من هذا العدد .

خامساً : يذكر ابن تغري بردي الاتابكي ان كتبغا [جمع من في الشام من التتار وغيرهم][٢٩] مما يشير الى وجود قوات غير مغولية تحارب الى جانب الجيش المغولي . ومع ان احداً من المؤرخين العرب لم ينوه بحقيقة هذه القوات ، الا اننا نعلم ـ بناء على المعلومات التي تقدمها المصادر الصليبية المعاصرة ـ ان كتائب من الارمن والكرج كانت بصحبة جيش المغول في معركة عين جالوت .[٣٠] فلقد رأى هؤلاء في المعركة فرصة للانتقام من الجيش المصري الذي سبق ان نكل بمن

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

تعاون منهم مع الصليبيين .

سادساً : ان استخدام القيادة المصرية مبدأ التعرض غير المباشر ، والمناورة التي اجرتها ضد الجيش المغولي ، يشير الى نوع من تكافؤ قوى الطرفين ، وهذا ينفي ان تكون القيادة المصرية قد استصغرت جيش كتبغا . وبما ان الجيش المصري الذي خرج من مصر محارباً كان يمثل اقصى ما يمكن ان تعبئه الدولة من جند ، يصبح من المعقول القول بان جيش المغول كان ضخماً وافر العدد هو ايضاً .

سابعاً : ان الرتبة العسكرية لكتبغا هي [نوين] وتعني حرفياً مقدم عشرة الاف ، وربما على هذا استند ابن العبري في تقديره ، على ان هذا الرقم اصطلاحي[٣١] محض في اغلب الاحيان . فمن الممكن دائماً زيادته على حسب جسامة الهدف المراد تنفيذه وكون اولئك المقاتلين من الخيالة النظاميين ، يعني وجود اعداد اضافية غير يسيرة ، من الخيالة غير النظاميين ، وقد علمنا ان بعضهم كان بشكل كتائب كاملة من الارمن والكرج ومن الجنود النظاميين وهم من المشاة والرماة والفعلة وحملة الاثقال التي تضم الدروع والاسلحة والارزاق . خاصة واننا نعلم ان كتبغا جمع الى خيالته قوات الحاميات المغولية في مدن الشام ، وعلى هذا الاساس ، ووفقاً لتقديرات خاصة بمعارك قريبة سابقة ، يمكن القول بان عدد افراد الجيش المغولي لم يكن يقل عن ثلاثين الفاً من الخيالة والمشاة .

كان الخيالة النظاميون في جيش كتبغا ، من القوات التي افرزت بالاصل من قوات جنكيزخان ، في اواسط اسيا . ومعنى ذلك : انها لم تصل الى بلاد الشام الا بعد خوضها معارك عديدة ، واختراقها اراضي واسعة متنوعة التضاريس والشعوب ، وقضاء نحو ثماني سنوات كاملة - في الاقل - في التعامل مع جيوش اسلامية بما في ذلك التعرف على طرق قتالها ، وخططها ، وترتيبها . على ان لنا ان نلاحظ ان معظم تلك الحركات كان يتمثل في حصار المدن والقلاع واقتحامها لا الاشتباك في ميادين قتال فسيحة ، ومن الواضح ان دور المهندسين العسكريين والفعلة من منجنيقيين ورماة ونقابين وناصبي جسور وردامي خنادق ، يبدو اكثر بروزاً في تلك المعارك بينما يقل دورهم او يتلاشى في معارك تجري في ميادين قتال فسيحة ، ومع ذلك فقد اظهر المغول في عدد من معاركهم خبرة واسعة بفنون المناورة وبخاصة المناورة بضرب الجناح ، حيث استخدموها بنجاح في معركة احتلال سمرقند سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م ، وفي معركة دجيل سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م .

ب - القيادة :

تولى قيادة الجيش بأمر من هولاكو الامير كتبغا [وتكتب احياناً : كتبوغا ، وكيتو بوقا] وهو صهره ،[٣٢] واحد القادة الكبار الذين صحبوا هولاكو منذ تقدمه من اواسط اسيا ، وتميز بانه كان يتولى قيادة فرقة المقدمة دائماً ، وهي اهم فرق الجيش المغولي واكثرها فعالية ، اذ تقوم بالاستطلاع ، وبمهمات تعرضية سريعة في الوقت نفسه ، وقد سبق ان قامت بحركات واسعة احتلت على اثرها خراسان ولورستان والعراق والاحواز . وكان كتبغا على ميسرة جيش هولاكو يوم احتل بغداد ، وقد احتل بجيشه معظم مدن الشام . فكفلت له هذه السيرة خبرات واسعة في سوق الجيوش ، ووضع الخطط المناسبة ، وادارة المعارك واستثمارها حتى وصف بانه كان [خبيراً بالحروب والحصارات وافتتاح الحصون والاستيلاء على المماليك] وكان هولاكو [يثق به ولا يخالفه فيما يشير به] .[٣٣]

ومن القادة الاخرين الذين عملوا تحت امرة كتبغا في الشام - وفي معركة عين جالوت خاصة - بايدر وقد قاد طليعة الجيش . وثمة امراء او قادة اخرون نوه بهم ابن العميد ، اذ قال في معرض كلامه عمن اسر من المغول [جماعة كثيرة من اعيانهم] .[٣٤]

جـ - السلاح

تميز الجيش المغولي باعتماده على كتائب الخيالة في مناوراته المختلفة ، وكان الجواد المغولي صغيراً في حجمه ، ولكنه يتميز عن بقية اجناس الخيل بسرعته الفائقة وصبره وصلابته الشديدة . وللجندي خمسة جياد بدل ،[٣٥] وكان الرمح ، وهو سلاح الخيالة والمشاة على حد سواء ، يتميز بالقصر بالنسبة للرماح العربية ، ولم يكن على الفارس كسوة (زرد) ولا سلاح (سوى الرماح طبعاً) .[٣٦] ولا تشير المصادر الى وجود مشاة ضمن الجيش المغولي ، ولكن من المفترض انهم كانوا موجودين ، اذ ترد الاشارة الى (رماة السهام) ككتلة رئيسة في الجيش ، وهم من المشاة بالطبع ، يضاف اليهم حاملو السيوف والهراوات والرماح والدبابيس وناقلو المعدات والارزاق ، ولا توجد معلومات عن نسبة الخيالة الى المشاة .

الجانب المصري :

أ - حجم الجيش :

تسكت المصادر التاريخية - حتى المصرية منها - عن تقديم اي تقدير لحجم الجيش المصري الذي خاض معركة عين جالوت ، وتكتفي بعض الروايات بالقول بانه (ما لايحصى)[٣٧] وانه (خلق عظيم)[٣٧] وليس من سبيل لتقدير حجم الجيش ، الا بدراسة ملاكاته على النحو التالي :

اولاً : الجيش النظامي ويتألف من ثلاثة اقسام هي : - اجناد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحلقة ، وهم قلب الجيش وقوته الضاربة ويبلغ عددهم في مصر وحدها ۰۰۰ و ٢٤ ، وكل ١٠٠٠ منهم بأمرة مقدم .
المماليك السلطانية ، وهم اما ينتسبون الى السلطان القائم ، او السلطان السابق ، او الى الامراء ، مقدمي الالوف . يبلغ عددهم نحو ۰۰۰ و١٦ .
مماليك الامراء ، التابعون لامرائهم ، ويقدر عددهم بنحو ۰۰۰ و٧[٣٨] فيصل المجموع الى نحو ۰۰۰ و٥٠ من الضباط والمراتب النظاميين . على ان هذا العدد كان نظرياً بالدرجة الاولى ، فان اعداداً من الجنود التابعين للامراء مقدمي الالوف ، او التابعين لامرائهم ، كانوا يستطيعون التملص من الخدمة بوسائل شتى ، وكان على السلطة ان تجد في طلبهم كلما بدأت الاستعدادات العسكرية تجري في البلاد ، وقد اصدرت القيادة المصرية ، قبيل الخروج الى الحرب (لسائر الولاة بازعاج الاجناد في الخروج للسفر ، ومن وجد منهم قد اختفى بضرب المقارع)[٣٨أ] .
ثانياً : القوات القبلية ، وتتالف من القبائل العربية في مصر ،[٣٩] وبخاصة في نواحي مديريات الشرقية والغربية (الوجه البحري) وقد يصل عدد ما تقدمه الى نحو ۰۰۰ و٢٠ . وقبائل التركمان والاكراد المقيمة في مصر منذ عهد الايوبيين او اللاجئة الى مصر بعد تعرض مواطنها الاولى للاحتلال المغولي ، وقد بلغ عدد جماعة الشهرزورية وحدها وهم اكراد عراقيون . نحو ٣٠٠ مقاتل .[٤٠]
ثالثاً : المتطوعون من ابناء المدن ، وهم الذين استجابوا للنفير العام .
رابعاً : بقايا الجيوش المحلية في بلاد الشام ، وهي المعروفة بـ (عساكر الشام) وتضم عدداً من الضباط والمراتب الذين كانوا في الخدمة العسكرية لبعض الحكومات المحلية في تلك البلاد ، والذين اضطروا الى الانسحاب الى مصر ، قاعدة الدولة المركزية انذاك . ويبلغ عددهم في بلاد الشام نحو ۰۰۰ و٢٤[٤١] ومن المحتمل ان بضعة الاف من هذا العدد اتيحت لهم فرصة الانسحاب الى مصر والانضمام الى جيشها ، منهم من كان بخدمة الملك المنصور صاحب حماه واخيه الافضل علي .

ان ملاحظتنا بشان عدد الجنود الفعلي في الجيش النظامي تجد لها مجالاً اوسع للتحقق بالنسبة للقوات القبلية والمجموعات المسلحة غير النظامية ، فقد اعتادت هذه الجماعات على اخذ رواتبها على شكل صفقات بحسب كثرة عدد افرادها ، وعليه فان من المعقول القول إنَّ عدد افرادها الفعلي كان يقل عن عددهم النظري في سجلات الدولة الرسمية الى حد كبير .
خامساً : ويمكن القول ، بناء على ما تقدم وعلى ضوء التجارب العسكرية القريبة السابقة بان عدد افراد الجيش المصري في معركة عين جالوت كان يزيد على ۰۰۰ و٤٠ وقد يصل الى ۰۰۰ و٥٠ من الخيالة والمشاة وحملة الاثقال (المعدات) .[٤٢]

ب ـ الخبرة العسكرية :
كان المماليك ، كما وصفهم كاتب معاصر (فرسان الاسلام المحترفين للحرب في تلك العصور)[٤٣] فجميعهم قد حاز تدريباً عسكرياً عالياً وموحداً في تكنات نظامية في القاهرة استغرق الشطر الاعظم من حياته ، ومعظمهم خاض غمار الحرب الصليبية تحت قيادة امراء ايوبيين محنكين ، وخبروا اساليب المناورة فضلاً عن حصار المدن الحصينة ، وبخاصة الواقعة في فلسطين والساحل السوري ، واكتسبوا فهماً واسعاً لطبوغرافية المنطقة وجغراسياستها . وزاد من معرفتهم هذه ، انضمام قوات سبق ان واجهت الجيوش المغولية في ظروف متنوعة ، كالخوارزمية والشهرزورية ، وقوات شامية اخرى اكثر خبرة باساليب قتال المغول في بلادهم ، ولقد استفادت القيادة المصرية من تجمع هذه الخبرة فوظفتها لصالحها في معركة عين جالوت توظيفاً حسناً قاد الى النصر .
جـ ـ القيادة :

اولاً : تولى قيادة الجيش المصري رئيس الدولة نفسه وهو السلطان المظفر سيف الدين قطز ، وكان احد قادة المماليك الكبار في اواخر عهد الحكومة الايوبية ، وتولى نيابة السلطنة في الفترة الانتقالية القصيرة التي سبقت تشكيل امراء المماليك للحكومة العسكرية في مصر . وعلى الرغم من عدم اقتران اسم قطز باسم معركة ما فانه كان ـ على ما وصفه معاصروه ـ (شاباً بطلاً شجاعاً ديناً غازياً مجاهداً محبباً الى الرعية)[٤٤] وانه كان (حازماً حسن التدبير)[٤٥]
ثانياً : ويبرز الى جانب قطز ، اسم قائد عسكري محنك ، هو ركن الدين بيبرس ، لعب دوراً مهماً ، بل حاسماً ، في الاعداد للمعركة وفي وضع خطتها والمشاركة الفعلية في قيادة الجيش المصري ثم بمطاردة فلول المغول في بلاد الشام كلها . وقد اقترن اسم بيبرس ، منذ اول حياته العسكرية ، بمعركة سريعة وناجحة انتصر فيها بقوة محدودة على جيش صليبي كبير قرب مدينة غزة سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م كما سجل انتصاراً ساحقاً على جيش صليبي اخر في معركة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م وقد اثبتت المعركتان الخبرة العسكرية لبيبرس وحسن اختياره لوقت الهجوم ومكانه .[٤٥أ]
د ـ السلاح :
كان دور المشاة ـ فضلاً عن عددهم ـ اكبر من دور امثالهم في الجيش المغولي ومن عددهم بنسبة غير يسيرة ، وكانت تقاليد الفروسية المملوكية تحتم وجود عدد من الاتباع لكل فارس ، ومن الطبيعي ان يكون هؤلاء الاتباع مسلحين بالاضافة الى سائر المشاة من المسلحين بالسيوف والرماح والبلط والدبابيس . اما الخيالة فكانوا يمثلون القوة المدرعة والسريعة الحركة في آن واحد منهم من جهة يتميزون بارتدائهم وجيادهم الدروع المحكمة التي نقلوها عن الصليبيين ، ومن جهة اخرى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يستخدمون الجياد العربية الاصيلة المعروفة بقابليتها الفائقة على الحركة .

التحشد :

الجانب المغولي :

أ ـ أحتشد الجيش المغولي قرب مدينة بعلبك في وسط سهل البقاع[٤٦] وكان اختيار مكان تحشده هذا موفقاً لانه يتيح له فرصة استخدام الطرق الداخلية لبلاد الشام بسرعة وكفاءة ، اذ لا توجد حواجز طبيعية تذكر تفصل بين هذه المدينة ومدن فلسطين .

تم حشد الجيش المغولي الذي كان اصلاً بقيادة كتبغا ، كما اضيفت اليه قوات الحاميات المغولية والقوات المتعاونة معها ، ولم تتخذ خطة لستر التحشد ـ لمعرفة القيادة المغولية ببعد مواقع الجيش المصري عن ساحة الحركات ، ولاستهانتها به ـ ولكن عدم اتخاذها اية خطة ادى الى تسرب اخبار الاستعدادات المغولية بصورة تفصيلية الى القيادة المصرية اولاً باول .

ب ـ واتخذت منطقة تحشد امامية في منطقة غزة ، حيث اتخذت طليعة الجيش المغولي[٤٧] بقيادة الامير بايدر مواقعها المراقبة الاحوال ، جنوبي فلسطين ، واستطلاع اي تقدم عسكري مصري باتجاهها .

الجانب المصري :

اختارت القيادة المصرية (الصالحية) مكاناً لتحشد الجيش ، وهي بلدة كان قد انشأها الملك الصالح نجم الدين ايوب سنة ٦٤٤ هـ/ ١٢٤٦ م لاغراض عسكرية[٤٨] في اقصى الشرق من محافظة الشرقية ، على طريق (القنطرة) الحالية ، قرب قناة السويس ، واتخذت منطقة تحشد للجيش المصري عند تقدمه باتجاه الشام في اثناء الحروب الصليبية .

وفي هذا المكان ، جرى استقبال حشود الفرسان (الخيالة) والاجناد (المشاة)والمتطوعين والقبائل . واتخذت التدابير لاكمال التشكيلات ، وتجهيز المواد والاسلحة ووسائل النقل وما يحتاجه الجيش من معدات وخدمات اخرى ، مقترناً بعمل مستمر على تعزيز المعنويات ، ورفع روح القتال ، والايمان بالنصر .[٤٩]

وكانت خطة الستر محكمة ، لان انباء التحشد الضخم هذا لم تصل الى القيادة المغولية الا في وقت متاخر نسبياً ، وبصورة لم تمكنها من تقدير حجم الجيش المصري ومدى استعداده .

التقدم عبر سيناء :

وبعد ان (تكامل عنده العسكر)[٥٠] تقدم قطز بجيشه عبر شبه جزيرة سيناء ، سالكاً طريقاً صحراوية حديثة ، تقع والى الجنوب من الطريق التجارية المألوفة على ساحل البحر ، ويظهر ان اتخاذه هذه الطريق كان من اسباب اخفاء انباء تقدمه لحامية المغول في فلسطين .

وفي اثناء تقدمه ، دفع بمقدمة الجيش ، وهي من الخيالة التي يقودها ركن الدين بيبرس امامه ، فتقدمت هذه بسرعة وخفة فائقة ، وعبر طرق وعرة ايا الا من دقق وصلت غزة في اخر الاسبوع الاول من شهر رمضان سنة ٦٥٨ هـ/ ايلول / ١٢٦٠ م[٥١]

المعركة :

٢ ـ يمكن تقسيم هذه الحركات التي اسماها المؤرخون معركة عين جالوت ، الى ثلاث صفحات رئيسة ، هي كما يأتي :

الصفحة الاولى : تحرير غزة والتقدم باتجاه عكا

الصفحة الثانية : معركة عين جالوت

الصفحة الثالثة : المطاردة ، معركة بيسان ، الانتقال الى حمص

الصفحة الاولى :

أ ـ تحرير غزة :

اولاً : الاهداف :

١ ـ السبق في التحرير والمحافظة ... حيث ان تحريرها [illegible] ... في الصفحة ... ان تحريرها ... معنويات الجيش الرئيسي المتقدم ، ويطلق يده ... فلسطين في توجيه التحركات بما يحقق الهدف ... للنزول اماكن تحتشد قبالة حتى بعلبك .

٢ ـ الحصول على المبادأة في مجال الحركات العسكرية المقبلة .[٥٢] بفتح المجال لتهديد مواصلات كتبغا اذا تقدم نحو فلسطين .[٥٣] ومن ثم افقاده حرية العمل ، وحرمانه من فرصة تنفيذ خططه .

٣ ـ ستر تقدم الجيش الرئيسي ، اذ ان تعرض المقدمة على مواقع المغول في غزة من شانه تضليلهم عن حجم الجيش الرئيسي واتجاه تقدمه ، وتظهر الاحداث التالية ان القيادة المغولية لم تميز بين مقدمة الجيش المصري وسائر فرقه المتقدمة ، ولذلك عجزت عن تقدير الموقف بشكل صحيح .

٤ ـ استطلاع تجمعات المغول ومدى استحضاراتهم .[٥٤]

ثانياً : التعرض المصري على غزة :

افتتح الجيش المصري الصفحة الاولى من تعرضه السوقي ، فقد تحركت فرقة الخيالة بقيادة بيبرس واندفعت ـ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بشكل مباغت - باتجاه مدينة غزة ، وطلب القائد المغولي في المدينة بايدر من قائده كتبغا ، في منطقة التحشد الرئيسة في بعلبك ، ارسال تعزيزات عاجلة لانقاذ الموقف ، الا ان الاخير اكتفى بأن اصدر اوامره الى بايدر بالمكوث في مكانه والانتظار.[٥٥] ويدل هذا الامر على أحد الامرين الاتيين ، او كليهما :

١ - لم تكن لدى كتبغا فكرة واضحة عن عدد افراد الجيش المصري المتقدم ، فقدر ان بامكان بايدر مشاغلته وكسب الوقت ريثما يصل هو ، بالجيش الرئيسي الى غزة .

٢ - لم تكن معلومات كتبغا عن مراحل طريق غزة - القاهرة دقيقة ، كما انه لم يقدر الى اية مرحلة كان الجيش المصري قد وصل حينما ارسل بايدر رسالته .

ولما كانت الانباء قد وصلت الى القيادة المغولية في غزة بأن جيشاً مصرياً يتقدم باتجاه فلسطين وقع في خلدها ان المقدمة التي يقودها بيبرس انما هي الجيش المصري كله ، فانسحبت بسرعة دونما قتال ، مخلية البلدة ، ثم تراجعت بسرعة للالتحاق بالجيش المغولي المتحشد في بعلبك . وفي رواية مغولية[٥٦] ان بايدر اضطر تحت ضغط من الخيالة المصرية التي تعقبته الى التراجع حتى نهر العاصي .

ب - التقدم باتجاه عكا

اولا : بينما اندفع بيبرس بخيالته معقباً القوات المغولية المتراجعة عبر الطرق الداخلية باتجاه الدفاع تقدم قطز بالقسم الاكبر من جيشه فوصل غزة ، حيث اقام بها يوماً واحداً[٥٧] ثم تقدم منها باتجاه مدينة عكا .

سلك قطز الطريق الساحلية التي تمر بالمناطق الصليبية ، وبخاصة اراضي الامارة الصليبية في عكا ، ولم يسلك الطرق الداخلية وهي التي اختارها المغول في تراجعهم ، وذلك من اجل تحقيق الاهداف الاتية :-

١ - ترك قوات بايدر المتراجعة في تصورها انها تطارد من قبل الجيش المصري كله ، بينما يقوم هو بمباغتة سوقية للجيش المغولي الرئيسي شمالي فلسطين .

٢ - الحيلولة دون اجراء اي تعاون او تنسيق بين القيادة المغولية داخل البلاد والقيادات الصليبية على الساحل ، ومن ثم منع المغول من فرصة تطويق الجيش المصري المتقدم في شمال فلسطين .

٣ - تحييد القوى الصليبية بحد ذاته بمثل خطوة سوقية مهمة ، اذ يمكن الجيش المصري من الحفاظ على المبادأة ضد الجيش المغولي ، والقيام بعملية تطويق كبرى لهذا الجيش - دون خوف من فتح جبهة جديدة ضد الصليبيين - اذا ما تقدم كتبغا باتجاه الجنوب ، او قطع طرق مواصلاته في الاقل ، اذا ما فضل البقاء في منطقة تحشده في البقاع ، او في جنوبي سوريا .

ثانياً : وصل الجيش المصري الى مشارف عكا ، حيث بذلت جهود دبلوماسية كبيرة من اجل الحصول على حياد الامارة الصليبية في معارك الصفحات التالية . ونجحت الدبلوماسية المصرية في تحقيق اهدافها بالاستفادة من التناقضات الجانبية التي ظهرت في تلك الاونة بين الجيش المغولي والامارات الصليبية وتعميقها ، والتلويح بامكانية استفادة الصليبيين من الغنائم المغولية التي سيبيعها لهم المصريون بسعر منخفض .[٥٨]

٢٢ - الصفحة الثانية : معركة عين جالوت :

أ - بوغتت قيادة الجيش المغولي بانباء تقدم الجيش المصري نحو عكا ، وكانت انباء تحرير غزة وتراجع الامير بايدر بقواته ، قد اثارت الحنق في نفس القائد العام كتبغا مما اضطره الى ترك بعلبك بسرعة[٥٩] والاندفاع جنوباً باتجاه دمشق في طريقه الى شمالي فلسطين . وفي اثناء تقدمه وصلته انباء حدوث ثورة شعبية في دمشق ضد الحامية المغولية فيها ، (وربما بسبب سحب تلك الحامية وضمها الى الجيش الرئيسي] فاضطر مرة اخرى الى التأخر من اجل قمع الثورة وتوطيد السلطة المغولية .[٦٠] ثم التقدم منها ، متخذاً احدى الطرق الداخلية [ربما كانت طريق القنيطرة الحالية] باتجاه بحيرة طبرية فاجتازت قواته نهر الاردن ، في شمال البحيرة المذكورة ، وتقدمت مستديرة حول ساحلها الغربي باتجاه منطقة عكا حيث يوجد الجيش المصري ٣] .

ولما كانت انباء تحركات الجيش المغولي تصل الى اسماع القيادة المصرية اولا باول ، فقد غادر الجيش المصري منطقة عكا بسرعة في ٢٣ رمضان سنة ٦٥٨ هـ / ١ ايلول ١٢٦٠ م] باتجاه الجنوب الشرقي ، فوصل عين جالوت في ٢٤ رمضان [٢ أيلول] حيث اختيرت المنطقة ساحة للمعركة المقبلة .

افرز قطز فرقة المقدمة التي كان يقودها بيبرس ، وكلها من الخيالة ، لتعقب فلول بايدر المتراجعة شمالًا من جهة ، ولاستطلاع تجمعات المغول وتحركاتهم من جهة اخرى ، واستدراج الجيش المغولي الرئيسي الذي يقوده كتبغا نحو منطقة عين جالوت .[٦١]

ب - الوصف الطبوغرافي :

اولا : [عين جالوت] أسم لبلدة وصفها الجغرافيون العرب بانها [بلدة لطيفة بين بيسان ونابلس من اعمال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فلسطين][١٢] ومازالت خرائبها ماثلة حتى اليوم ، وتقع عند الضفة اليمنى لنهر الجالوت [او جالوت][١٣] الذي ياخذ مياهه من عيون قرب زرعين جنوبي بلدة العفولة ، ثم ينساب حتى بلدة [بيسان] ومنها يمضي ليصب في نهر الاردن [شمالي جسر الشيخ حسين] ويحيط بهذا المجرى المائي واد يبلغ طوله ١٧ كيلومتراً ، ويتراوح عرضه بين كيلو ومتر واحد وكيلو مترين تقريباً ، بينما يصل عرض النهر في اقصى اتساعه عند مصبه ٤ امتار . ويمثل وادي جالوت هذا امتداداً طبيعياً لغور الاردن ، مما دفع ببعض المؤرخين الى القول إن المعركة جرت في أرض [الغور] نفسه[١٤] ويقع الوادي بين سلسلتي جبال الجليل وجبال نابلس ، وفيه تمضي طرق المواصلات بين بيسان عند نهر الاردن ، وعكا على البحر المتوسط ، فالسيطرة على الوادي تعني السيطرة على المنافذ المؤدية الى فلسطين ، وعلى عقدة مواصلات جيدة تربط بين بيسان شرقاً والناصرة شمالاً وجنين جنوباً وعكا غرباً .[١٥]

ثانياً : ويساعد الوصف الذي اوردته الروايات التاريخية عن المعركة ، على التعرف على موقعها بدقة كبيرة . فالتل الذي اشير اليه في روايات الذهبي واليونيني ، لا ريب انه الجبل المقابل لخرائب عين جالوت والمعروف حالياً بجبل الدحي ، ويعترض هذا الجبل الطريق الداخل الى الوادي تقريباً ، ويطل عليه من جهته . والجبال التي نوه بها المقريزي وابو الفداء وابن الوردي هي جبل جلبوع بروابيه المتدرجة من وادي الجالوت ، اما مزرعة القصب التي وصفت بانها بالقرب من ساحة القتال ، فما تزال المنطقة حافلة بامثالها ، وتقع في قعر الوادي من شرقيه ، ويمكن تحديد هذه المنطقة بين خطي الطول ٢٠ و ٣٥ و ٢٥ و ٣٥ وخطي العرض ٣٠ و٣٢ و ٣٤ و٣٢ .

ثالثاً : استفادت القيادة المصرية من عدم توفر معلومات كافية لدى العدو عن طبوغرافية المنطقة[١٦] فانتخبت المدخل الغربي لوادي الجالوت ، ساحة قتال مثالية لها ، واجبرت العدو على قبول المعركة فيها ، وتتميز هذه الساحة بعدة مميزات مهمة ، منها :ـ

١ ـ تشعب وادي الجالوت ، في مدخله ، الى عدة وديان قصيرة مما ساعد القيادة المصرية على وضع خطة تعتمد مبدأ الالتفاف من وراء جيش العدو ، ساترة حركة جيشها بالتلال العديدة التي تحيط بتلك الوديان .

٢ ـ وجود جبل مرتفع منفرد ، يتوسط تلك الوديان المتشعبة ، هو جبل الدحي ساعد المصريين على اتخاذه مقراً لقيادتهم ، وممكناً لفرقة القلب ، وقد هيأ ذلك الموقع الممتاز فرصة الاشراف الكامل على سير المعركة وتوجيهها ، كمامكن القيادة من اخفاء قسم كبير من الجيش وراءه ، وحرم ـ في الوقت نفسه ـ المغول من فرصة القيام بحركة التفاف مقابل .[١٧]

٣ ـ وجود المستنقعات ومزارع القصب ، في اسفل الوادي ، يعيق حركة الخيالة المغولية ، ويتيح للمشاة المصريين فرصة الالتحام بهم والاطباق عليهم .

٤ ـ عند السيطرة على قمم الجبال المحيطة بالوادي ، يصبح من الميسور التحكم الكامل بما يجري في الوادي نفسه ، ومن ثم منع العدو من القيام بأي نوع من انواع المناورة التي برع فيها .

ج ـ الاهداف

اولاً : الجانب المغولي

١ ـ ضرب اي احتمال ممكن لان تتولى القيادة العسكرية في مصر توجيه تعرض سوقي ضد الجيش المغولي في بلاد الشام .

٢ ـ تحطيم الجيش المصري ، واذلال قادته من شانه ان يمنع الشعب العربي في المدن الشامية من اعلان الثورة على المحتلين المغول ، خاصة بعد ان كشفت ثورة دمشق ، عقب وصول انباء تحرير غزة اليها ، عن تحين السكان لمثل تلك الفرص .

٣ ـ تصفية القيادات العسكرية التي انسحبت من وجه المغول في أثناء تقدمهم في المشرق الاسلامي ، وبخاصة في العراق وبلاد الشام ، وباتت تعد العدة للثأر منهم .

٤ ـ ضرب اي مجال للتعاون وتنسيق المواقف بين القيادة المصرية والموالين لها من القادة والزعماء في بلاد الشام والجزيرة ، ومن ثم تامين المغول لمفاتيح العراق الشمالي .

٥ ـ تامين جانب السلطة المحتلة في العراق نفسه ، بالقضاء على اي احتمال لاعادة توحيد الشام بمصر في دولة قوية واحدة ، يكون ظهورها ايذاناً بتغير موازين القوى في المنطقة لغير صالح المغول .

٦ ـ الثار لما حدث في غزة ، عندما اجبرت قوات بيبرس ، القوات المغولية على اخلاء البلدة ، ومن ثم اعادة هيبة المغول في جنوبي فلسطين .

ثانياً : الجانب المصري

١ ـ الاستمرار بالاحتفاظ بزمام المبادأة السوقية في بلاد الشام ، عن طريق توجيه ضربة قوية وسريعة بالجيش المغولي المتحشد في شمالي فلسطين ، يكون من شانها تشتيت قوة الخصم ، مما يسهل امر مطاردته وابادته .

٢ ـ تحقيق النصر في شمالي فلسطين سيفسح المجال ، ويهيىء الظروف ، لقيام سلسلة من الحركات الثورية في مدن الشام والجزيرة ، تستهدف الاطاحة بسلطات الاحتلال والقضاء على الحاميات المغولية فيها [وهذا ما حدث بالفعل] .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ ـ اعادة هيبة الدولة في فلسطين ، وهي مفتاح مصر ، قلب الوطن العربي المتبقي انذاك .

٤ ـ الحيلولة دون عقد [illegible] تحالف [illegible] سوقي بين المغول والصليبيين [illegible] في الاقل ، اقتطاف [illegible]

[illegible] خطة [illegible]

اولاً : [illegible]

[illegible]

١ ـ [illegible] قبل بدء المعركة ، عن طريق [illegible] بتوجيه [عاصفة السهام] [illegible] على تلك [illegible] الوادي .

[illegible]

[illegible]

ثانياً : [illegible]

[illegible] الوادي ، ثم [illegible] بسرعة [illegible] على أحد جانبيها بهدف تشجيع الجيش [illegible] مطاردتها والتوغل في الوادي .

[illegible]

[illegible] الكبيرة وتوجيهها نحو [illegible] في [illegible] واسعة تتخذ من تل [illegible] المتوسط [illegible] لها في الوقت نفسه .

[illegible] على العدو من مؤخرته ، فضلاً عن مقدمته ، [illegible] في قتال [illegible] ويساعد على [illegible] بالمتقدمات ومزايع القصب ومضايق الجبال التي يسيطر عليها المصريون .[٣٦]

٤ ـ سير القتال

اولاً : قسم القائد قطز جيشه الى جناحين غير متكافئين حجماً وسلاحاً ، فجعل الجناح الايسر عبارة عن فرقة خفيفة من الخيالة ، يقودهم بيبرس ، في حين جعل الجناح الايمن هو الاكبر [illegible] ويتألف من المشاة فضلاً عن [illegible] . اما فرقة القلب وهي بإمرته المباشرة ، فقد جعلها تتوسط الجناحين ، وتتخذ مواقعها في اكمات جبل الدحي .

ب ـ افتتح الجناح الايسر المصري المعركة في فجر يوم الجمعة ٢٥ رمضان / ٣ أيلول ١٢٦٠م بسلسلة من الاعمال التعرضية السريعة على مقدمة الجيش المغولي ، بهدف استدراجه الى مدخل وادي جالوت . وبالفعل فقد انقض الجيش المغولي على هذا الجناح دون ان يحسب حساباً لفرقتي القلب والجناح الايمن . واغلب الظن انه لم يرهما ، لاختفاء اولهما في الجبل ، واخرهما خلفه . وبحسب الخطة ، امطرت كتائب رماة السهام المغولية المصريين بوابل من السهام .

ثانياً : وعند حدوث الاشتباك بين الجيش المغولي والجناح الايسر المصري ، تظاهر الاخير بالتقهقر ـ بحسب الخطة الموضوعة مسبقاً ـ امامها ، لياخذ تقهقره شكل دوران على محور ثابت ، هو جبل الدحي (حيث مقر القيادة وفرقة القلب) حتى اذا ما سد الجناح مدخل الوادي الصغير المتشعب من وادي [illegible] الرئيسي ، في نقطة افتراق الوادي عند الجبل [illegible] فان الجيش المغولي قد غدا في الساحة في مواجهته تماماً .

ثالثاً : في الوقت نفسه كان الجناح الايمن ، وهو الاكبر حجماً وقوة ، ومعظمه من المشاة ، قد غادر مواقعه الاولى في الوادي الصغير المشار اليه آنفاً ، ومضى يتقدم في داخل الوادي الرئيس ملتفاً [illegible] تل القيادة نفسه ، اي جاعلاً هذا الجبل محوراً ثابتاً [illegible] .

رابعاً : وبغية [illegible] الجناح الايسر [٣١] وتثبيت الجبهة امام المغول ، اعطى القائد قطز ايعازه لفرقة القلب بمغادرة مواقعها في اكمات جبل الدحي ، وتعزيز الجناح المذكور [٣٢] فهبطت تلك الفرقة ، وبضمنها مقر القيادة ، الى ارض الوادي حيث ابدت من ضروب الشجاعة والاقدام ما اوقف التراجع ، وثبت الجبهة في تلك المنطقة تماماً .

خامساً : وفي الوقت الذي اخذ فيه الجناح الايسر معززاً بفرقة القلب ، بالتعرض المقابل على جيش المغول ، كان الجناح الايمن قد اكمل التفافه على مؤخرة ذلك الجيش في داخل الوادي الرئيس . وبذلك تم الاطباق عليه من جهتي الوادي بينما كانت الجبال تطبق على الجهتين الاخريين .

سادساً : ساعد على اتمام عملية الالتفاف هذه ، وجود الجيش المغولي في وادي ضيق نسبياً مما حد من مجال حركة خيالته ، واضطر للالتحام بقوات المشاة المصرية المسلحة والمدربة تدريباً جيداً على هذا النوع من المعارك الثابتة ، فـ (تقاتلوا قتالاً شديداً) حتى ابيد من المغول (ما لايحصى عدده)[٣٣] وبحسب التقارير المرفوعة الى هولاكو فان (اكثر القتلى قد قتلوا واسر من بقي) .[٣٤]

سابعاً : لم يستطع المغول تنظيم عملية انسحاب ، فقد قتل

كتبغا اثناء المعركة (٧٥) واسر ابنه (٧٦) وتشتتت القيادة المغولية ، واستطاع القائد (بيدرا) التسلل بعدد من جنوده الى خارج الساحة ، تاركاً بقية الجيش يواجه مصيره بنفسه ، ولذا فقد اخذ التقهقر شكلاً عشوائياً ، ولم يجد بعض الجنود المغول الا تسلق (رؤوس الجبال) (٧٧) المجاورة ، هرباً من القتل ، بينما (اعتصمت طائفة منهم بالتل المجاور لمكان الموقعة ، فاحدقت بهم العساكر (المصرية) ومابرحوا حتى افنوهم قتلاً ونجا من نجا) .(٧٨)

وأضطر فوج من خيالة المغول الى الاختفاء في مزرعة للقصب بالقرب من ساحة القتال ، فما كان من قطز الا ان امر جنوده (بان يضرموا فيها النار ، وأحرقوهم جميعاً) .(٧٩)

وما ان حل عصر ذلك اليوم ، حتى انتهت كل اشكال مقاومة من تبقى من أفراد الجيش المغولي ، فتم اسرهم ، واعلن اندحار المغول وانتصار الجيش المصري انتصاراً ساحقاً) .(٨٠)

الصفحة الثالثة : المطاردة

أ ـ الاهداف :

اولاً :
استثمار الفوز بعدم فسح المجال لما تبقى من الجيش المغولي لاعادة تنظيمه من جديد .

ثانياً : اغتنام فرصة تشتت افراد الجيش المغولي لابادتهم .

ثالثاً : المسارعة الى تحرير سائر بلاد الشام ، من اجل قطع الطريق على هولاكو ان هو اراد ارسال اية تعزيزات جديدة لقواته في المدن الشامية .

رابعاً : تشجيع سكان المدن والفلاحين على الثورة على سلطات الاحتلال المغولي ودفعهم لشن ما يشبه ان يكون (حرب انصار) ضد فلول الجيش المغولي واية قواعد له .

ب ـ سير القتال :

اولاً : بعد توقف القتال في عين جالوت ، تقدم الجيش المصري بقيادة قطز ، باتجاه مدينة بيسان (٨١) وكانت فلول جيش المغول قد وصلتها بعد اندحارها في المعركة ، ومن الراجح ان تكون ثمة قوات مغولية كبيرة قد وجدت بها قبل المعركة اصلاً . وبينما كانت هذه القوات تحاول اعادة تنظيمها من جديد ، بادأها الجيش المصري بسرعة في تعرض كبير وصف بأنه (اعظم من الاول) (٨٢) الا ان معلوماتنا عنه جاءت قليلة جداً ، ويظهر ان الجيش المغولي حقق تحسناً ملحوظاً في موقفه في الشطر الاول من القتال (حتى تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً) .(٨٣) الا ان الجيش المصري عاد فشن تعرضاً مقابلاً عنيفاً قلب فيه الموقف لصالحه تماماً . فهزم المغول (وقتل أكابرهم وعدة منهم) .

ثانياً : تقدم قطز بعد بيسان ، سالكاً الطريق المحاذي لساحل بحيرة طبرية ونهر الاردن ، ليصل الى دمشق في ٤ شوال سنة ٦٥٨هـ (١٣ أيلول ١٢٦٠) وكانت ثورة شعبية عارمة قد طهرت المدينة من السلطة المغولية منذ ان اتى وصول انباء هزيمة المغول في عين جالوت ، فوطد قطز الامن والاستقرار فيها ، وشرع بالاعداد للصفحة الثالثة والاخيرة من صفحات المعركة ، وهي طرد المغول من بلاد الشام والجزيرة نهائياً .

ثالثاً : ومن دمشق ارسل قطز فرقة من الخيالة بقيادة قائده ركن الدين بيبرس ، فتقدم هذا بسرعة حتى وصل الى حمص ، حيث شن هناك تعرضاً على حامية المغول ، فقتل فيه معظم افرادها ، واسر الآخرين ، وفعل مثل ذلك في حامية حلب ، مما دفع بفلول المغول الباقين الى الفرار باتجاه ساحل البحر المتوسط الا ان الاهالي هناك انقضوا عليهم .(٨٤)

رابعاً : حاولت بعض الحاميات المغولية في اقليم الجزيرة ان تعيد الاستيلاء على حلب ، بعد نحو شهرين من انتهاء معركة عين جالوت ، الا ان أميرا حمص وحماه (ويتبعان الادارة المملوكية في القاهرة) استطاعا صد التعرض المغولي قرب حمص . فاستقرت الاوضاع الناجمة عن معركة عين جالوت ، وجرى دفع المغول الى شرق الفرات .(٨٥)

ج ـ الدروس المستنبطة :

يمكن اعتبار معركة عين جالوت ، بصفحاتها الثلاث ، من المعارك النموذجية في تاريخ الحروب . فلقد تجلت فيها العبقرية العسكرية للامة العربية ، وتم توظيف التراث العسكري العربي الاسلامي على نحو فائق المستوى ، وحظيت المعركة نفسها ـ بتفاصيلها العديدة ـ بعناية الجانب المصري وخبرته ، بحيث لم تغفل ملاحظة اي من تلك التفاصيل اثناء الاستحضار للمعركة وفي خلالها على حد سواء .

ويمكن استنباط عدد من الدروس المهمة ، التي تمخضت عنها المعركة ، على النحو الاتي :ـ

أ ـ الاستحضارات المتقنة :

يدين المصريون في انتصارهم ، للاستحضارات المتقنة التي قاموا بها منذ فترة سبقت المعركة بما لا يقل عن سبعة اشهر تقريباً ، وشملت استنفار الفئات الصالحة للقتال ، من اهل المدن ، وابناء القرى ، وتدريبها وتجهيزها بالسلاح وانواع المهمات الاخرى ، وتهيئة وسائط النقل ، كالخيل والبغال والابل باعداد تكفي لتلبية رغبات الفعاليات ، وتوفير كميات من الارزاق ومياه الاسقاء للجيش المتقدم ، وبخاصة عند اجتيازه شبه جزيرة سيناء ذات الطبيعة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الصحراوية الجافة ، على نحو مكنه من الوصول الى مشارف غزة وهو على أحسن ما تقتضيه المعركة من تهيئة واستعداد . كما شملت تلك الاستحضارات ايضاً توثيق صلة السلطة بالقبائل ، والاستفادة منها كفرق هجانة تقوم بتوفير الامن للجيش في اثناء تقدمه .

ب ـ تكامل العمل السياسي والعسكري :

ساعد اضطلاع القيادة السياسية المصرية بدور القيادة العسكرية الميدانية على توفير اقصى حد من امكانات السوق الاكبر ليصب في صالح السوق العسكري البحت ، فقد تمت السيطرة فوراً على جانب كبير من موارد الدولة وتحويلها لصالح المجهود الحربي ، وفرضت اجراءات تقشفية ، خدمة للمعركة ، وسويت مشاكل اقتصادية واجتماعية مختلفة من اجل تهيئة افضل الظروف لها ، وتجلى التنسيق الكامل بين العمل السياسي والعمل العسكري في نجاح الدبلوماسية المصرية في تحييد الامارة الصليبية في عكا في اثناء معركة عين جالوت ، مما وفر للجيش المصري فرصة تركيز قواه كلها ضد عدو واحد ، هو الجيش المغولي .

وبالمقابل ، فان القيادة المغولية لم تحسن الاستفادة من العمل السياسي لخدمة السوق العسكري ، فعلى الرغم من وجود مواقف مشتركة عامة تجمع بين المغول والصليبيين تصل الى حد التنسيق المباشر احياناً ،[٨٦] فان القيادة المغولية لم تستطع استثمار هذا الوضع السياسي المناسب من اجل الحصول على تاييد امارة عكا الصليبية لها في الصراع ضد المصريين .

ج ـ المعنويات :

كان اهتمام القيادة المصرية بالعامل المعنوي كبيراً منذ فترة الاستحضار للمعركة وربما كان اول ما اولته تلك القيادة من جهد وعناية ، نظراً لحالة اليأس والذعر التي اصابت فئات الشعب المختلفة ، بل والقيادات العسكرية نفسها ، اثر اكتساح المغول للعالم الاسلامي ، والمشرق العربي منه بوجه اخص ، ولقد مضى العمل على رفع الروح المعنوية جنباً الى جنب مع العمل على تهيئة الاستحضارات اللازمة الاخرى ، فالخطب الحماسية ، والموسيقى العسكرية[٨٧] واصوات الخطباء والمنادين امتزجت كلها من اجل بث الثقة بالجيش ، وبالقيادة ، وبامكانية الامة في تحقيق النصر .

د ـ الاستخبارات :

كان للقيادة المصرية نظام استخبار جيد ، تفوق على مالدى العدو تفوقاً كبيراً ، ففي حين افتقر الجيش المغولي الى معلومات مهمة عن تحركات الجيش المصري واماكن تحشده وحجم قواه ،[٨٨] كانت مثل هذه المعلومات تصل بانتظام الى القيادة المصرية ، فتحدد بموجبها اتجاه تقدمها ، وطبيعة الخطط التي ستتبعها في الصفحات التالية من المعركة ، وقد ادى زعماء القبائل العربية في شبه جزيرة سيناء وفي فلسطين دوراً مهماً في نظام الاستخبار المصري ، مكن الجيش من مباغتة العدو في اكثر من موضع ، في غزة وفي بيسان وغيرها . في حين حرم الجيش المغولي من فرصة تقدير مواقفه بشكل جيد غير مرة ، مما سهل على القيادة المصرية استدراجه في وادي الجالوت والالتفاف على جناحه ، دون ان يكون للجانب المغولي اية فكرة عن الخطة المصرية .

هـ ـ دور القائد :

كان لشخصية القائد المظفر قطز الاثر الكبير فيما احرزه المصريون من نصر باهر ، فقد كانت ظروفه صعبة والتيارات السياسية المتضاربة تسود بلاده ، فضلاً عن كونه يرأس حكومة عسكرية حديثة النشوء ، وتفتقر الى ترسيخ الثقة بها لدى فئات الجيش والشعب على حد سواء . ويزيد من اهمية هذه الشخصية انها ذللت مشاكل ما كانت لتذلل لولا الخصائص القيادية البارزة لصاحبها ، فالجيش المصري نفسه كان موزعاً ـ بحكم تركيبه وملاكاته ـ الى ولاءات متعددة ، كما يضم خليطاً من بقايا جيوش عربية واسلامية عديدة ولقد استطاع قطز السيطرة على كل تلك العوامل ففرض شخصيته على جنوده ، وكسب طاعتهم التامة ، وكان لتجوله الدائم بين القطعات ، واشتراكه الفعلي في القتال الى جانب ضباطه وجنده ، اثر كبير اخر في الفوز بالنصر .

ومن ناحية اخرى ، فقد كان من حسن حظ قطز ، انه استطاع كسب اخلاص قادة محنكين ذوي تجربة عريضة في مجال الفن العسكري ، ابرزهم ركن الدين بيبرس ، الذي اظهر بقوة شخصيته ، وتعاونه المطلق مع قائده العام ، وبراعته في ادارة المعارك التعبوية التي خاضها ، انه كان قائداً مبدعاً ، لا يقل في خصائصه القيادية ، عن قطز نفسه .

و ـ تجنب الارتجال :

تميزت الحركات التي قام بها الجيش المصري منذ تحريره غزة وحتى الوصول الى الفرات ، بانها كانت مدروسة دراسة متانية في كل تفاصيلها ، فاختيار طرق التقدم ، وتوقيته ، وانتخاب ارض المعركة ، جرى كله قبل نشوب القتال ، كما ان ترتيب الجيش في وادي جالوت ، ووضع اللمسات الاخيرة على خطة المناورة ، تم قبل وصول الجيش المغولي الى ساحة القتال بمدة كافية ، هذا في حين غلب على تفكير الجانب المغولي الارتجال ، فتقدم كتبغا بجيشه الى عين جالوت قبل ان تصله تعزيزات كافية ، وعدم استماعه لاراء القادة العسكريين حول هذا الامر ، اوقعه فيما كان المصريون يعملون من اجله ، من الالتفاف عليه وتدميره .

ز ـ توخي السبق في العمل والمبادأة :

يمكن ان نعد مبدأ السبق في العمل هو الاساس الذي قامت عليه جميع الحركات العسكرية المصرية ، وذلك من اجل اجبار القيادة المغولية على احداث التغيير السريع في خطتها ، او قلبها راساً على عقب ، وأشاعة اكبر قدر من الاضطراب في التفكير السوقي لقادتها . وقد تجلى ذلك السبق في قيام فرقة المقدمة المصرية بالتعرض على غزة وتحريرها ، فيما يعد افتتاحاً لاولى صفحات المعركة ، ولقد اثارت هذه العملية الارتباك في الجانب المغولي الذي لم يكن يتوقع ان يسبق في العمل ، فاندفع كتبغا بجيشه الى عين جالوت طالباً الانتقام ، دون ان يدرك انه يلبي بذلك الاندفاع غير المدروس رغبة القيادة المصرية في لقائه في الارض الممتازة التي انتخبتها .

اتسمت حركات الجيش المصري ، بعد حصوله على السبق في العمل ، بالمبادأة المستمرة لخصمه ، وهو ما تمثل في تعرضه على تحشد المغول في بيسان ، وفي حمص ، قبل ان يتم الاخيرون تجميع

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

قواهم وترصين صفوفهم من جديد .

ح ـ الاقتصاد بالقوى :

على الرغم من ضخامة الجيش المصري ، فان القيادة المصرية التزمت بمبدأ الاقتصاد بالقوى الى حد بالغ الروعة ، جنبها مغبة تبديد قواها وتوزيعها على جبهات متعددة . وقد ساعدت جهود الدولة السياسية على تحقيق امثل لهذا المبدأ ، حين نجحت في ضمان حياد امارة عكا الصليبية ، اذ وفر لهذا الحياد فرصة الاستفادة القصوى من جميع الفرق العسكرية المصرية مرة واحدة في اثناء معركة عين جالوت ، والحاق الهزيمة بالعدو . هذا في حين لم تستطع القيادة المغولية الالتزام بالمبدأ المذكور ، نظراً لاضطرارها الى نشر كتائبها في مناطق ومدن متناثرة للحيولة دون قيام الثورات والانتفاضات فيها .

ط ـ تقدير عامل الوقت :

احتل عامل الوقت مكانة خاصة لدى واضعي الخطة المصرية في عين جالوت ، فقد اثبتت مراحل المعركة القصيرة ، وهي نهار واحد ، دقة ملحوظة في توقيت اندفاع الفرق العسكرية باتجاه العدو ، وفي تزامن حركتها ، على نحو اضعف قدرة القيادة المغولية على تقدير موقفها في اثناء القتال .

ي ـ استثمار الفوز :

ارتكزت خطة قطز ـ بعد نجاحه في تدمير الجيش المغولي في عين جالوت ـ على عدم فسح المجال لعدوه لاعادة تنظيمه ومضايقته بصورة مستمرة ، ولذا فقد كانت الصفحة الاخيرة من المعركة هي مطاردة تجمعات العدو وفلوله حيثما وجدت في بلاد الشام ، وابادتها ، او اسرها ، وطرد من تبقى إلى ما وراء الفرات . وضاعفت هذه العملية من قيمة الفوز الذي حققه في عين جالوت ، ونجحت في تحقيق غاياته بتدمير اية مرتكزات يمكن ان يتخذها المغول في المستقبل قواعد لتعرضهم على البلاد ، واعادة ضم بلاد الشام الى مصر في دولة قوية واحدة .

٢٤ ـ خلاصة : اهمية المعركة في تطور الفكر السوقي :

ان الاضافة الحقيقية ، والجديدة ، التي اضافتها القيادة المصرية الى الفكر السوقي العربي ، والانساني بعامة ، هي تطويرها البارع لضرب من المناورة كان شائعاً في تراث المنطقة العسكري ، وهو المعروف بالمناورة بضرب الجناح ، بل ان المغول انفسهم طبقوه في اكثر من معركة .

فتقسيم القوات المهاجمة الى جناحين غير متكافئين حجماً وحركة ، ودوران الجناحين حول محور واحد تقريباً ، وضمن جدول توقيتات متقن ، لاستدراج جيش العدو الى المنطقة الممتازة ، ثم تثبيت الجناح الاصغر في حين يكون الجناح الاكبر قد داهم جناح العدو من خلفه ، على نحو يشبه حركة المروحة الدائرة ، هو في تقديرنا من الاضافات العربية المهمة الى هذا الضرب من المناورة . وتذكرنا هذه الخطة في اساسها بتلك الخطة السوقية الجريئة التي وضعها فون شليفن رئيس هيئة اركان الحرب الالمانية قبل الحرب العالمية الاولى ، والتي عرفت احياناً باسم (المروحة) حين جعل قوة الجناح الالماني (وهو الايمن) النسبة للجناح الاصغر (وهو الايسر) كنسبة ٨ : ١ وجعل الجناح الايسر يستدرج القوات الفرنسية في الرين ، بينما يلتف الجناح الايمن الاكبر من الشمال لتقع القوات الفرنسية بين ما يشبه ضلعي المروحة ، ورغم ان مستوى الخطة في عين جالوت كان تعبوياً ، بينما كان مستواها لدى شليفن سوقياً ، الا اننا نلحظ ان جوهر الفكر كان واحداً وهو ما يسجل للعبقرية العسكرية العربية سبقها في هذا الجانب من الفكر السوقي بنحو سبعة قرون تقريباً .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

(١) الهمداني ، رشيد الدين : جامع التواريخ الترجمة العربية . القاهرة . المجلد ٢ القسم ١ ص ٢٣٤ .

(٢) رشيد الدين ٣٠٦ وكتاب الحوادث المنسوب لابن الفوطي ، بغداد ١٣٥١ ، ص ٣٤٠ والمقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ج ١ ق ٢ ص ٤٣٤ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، القاهرة ، ٧ / ٥٤ وابن حبيب ، الحسن بن عمر : درة الاسلاك في دولة الاتراك ، مخطوطة السليمانية برقم ٨٤٣ ، حوادث ٦٥٧ ويذكر ان العبري في تاريخه السرياني ، بيروت ١٩٥٦ ، ان عدد افراده بلغ ٠٠٠ و٤٠٠

(٣) الصلت : بلدة تقابل اريحا على غور الاردن جنوبي عجلون (ابو الفداء : تقويم البلدان . باريس ، ١٨٤٠ ، ص ٢٤٥) .

(٤) بركة زيزا : بركة عظيمة عند قرية زيزاء ، من قرى البلقاء (ياقوت : معجم البلدان مادة زيزاء) والبلقاء كورة من اعمال دمشق ، بين الشام ووادي القرى ، قصبتها عمان (المصدر نفسه . مادة البلقاء) .

(٥) بيت جبريل . ويقال جبرين : بليدة بين بيت المقدس وغزة ، وهي اقرب الى الاخيرة منهما (ياقوت : معجم البلدان ١ /٧٧٦ ومراصد الاطلاع ١ /٦٨٥)

(٦) اليونيني ، قطب الدين ، ذيل مرآة الزمان (حيدر آباد ، ١٣٧٤) ١ /٣٥١ والكتبي ، ابن شاكر : عيون التواريخ (بغداد ، ١٩٨٠) ٢٠ /٢٢٤ .

(٧) رشيد الدين ٣١٣ .

(٨) المصدر نفسه ٣٠٨ .

(٩) انظر نص الرسالة في المقريزي ، احمد بن علي : السلوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة ١٩٣٦) ج ١ ق ٢ ص ٤٢ .

(١٠) من تلك القيادات : الملك السعيد بن الملك العزيز عثمان ، حاكم البيرة وبانياس وقلعة الصبيبة ، وقد اعدمه السلطان قطز في عين جالوت .

(١١) يتضح ذلك من ادخال قطز خيار (الجلاء عن الوطن) ضمن قائمة الخيارات التي قام بتنفيذها على اساس ان لا مكان يمكن اللجوء اليه . رشيد الدين ٣١٢ .

(١٢) يقول ابن تغري بردي انهم (اجمعوا على حفظ مصر لا غير) النجوم الزاهرة ٧ /٧٨ .

(١٣) تشير الرواية المغولية (رشيد الدين ٣١٢) الى ان عدد

زبدة كشف الممالك، باريس ١٨٩٤
ذيل الروضتين، القاهرة، ١٩٤٧
الصائغ، أنيس:
بلدانية فلسطين المحتلة، بيروت ١٩٦٦
ضومط، انطوان:
الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، بيروت ١٩٦٨.
طرخان، ابراهيم علي:
النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨ الطقطقي، ابن طباطبا:
الفخري في الاداب ... ، القاهرة بلا تاريخ عاشور، سعيد عبد الفتاح:
- الظاهرة بيبرس، القاهرة ١٩٦٣
- الحركة الصليبية، القاهرة ١٩٦٣
ابن عبد الحق، صفي الدين:
مراصد الاطلاع على الامكنة والبقاع، ليدن ١٨٥٠.
عبد الحميد، صبحي:
معارك العرب الحاسمة، بيروت ١٩٨٦.
ابن العبري، غريغوريوس:
- تاريخ مختصر الدول، ١٩٥٨
- التاريخ السرياني، ترجمة اسحق ارملة، نشر في مجلة المشرق البيروتية سنة ١٩٥٦
العريني، السيد الباز:
المغول، بيروت ١٩٦٧
عمارة، محمد:
معارك العرب ضد الغزاة، بيروت ١٩٧٥
ابن العميد، جرجيس:
اخبار الايوبيين
ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل:
- المختصر في أخبار البشر، القاهرة ١٣٢٥ هـ
- تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠
ابن الفوطي، عبد الرزاق (منسوب اليه):
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق مصطفى جواد، بغداد الكتبي، محمد بن شاكر:
- فوات الوفيات، تحقيق احسان عباس، بيروت ١٩٧٤
- عيون التواريخ، المجلد العشرون، تحقيق نبيلة عبد المنعم وفيصل السامر، بغداد ١٩٨٠
ابن كثير، عماد الدين اسماعيل بن عمر:
البداية والنهاية في التاريخ. بيروت ١٩٦٦
لامب، هارولد:
شعلة الاسلام، قصة الحروب الصليبية، ترجمة محمود عبد الله يعقوب، بغداد ١٩٦٧
المقريزي، أحمد بن علي:
- السلوك لمعرفة دول الملوك. نشره محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٦
- المواعظ والاعتبار في الخطط والاثار. بولاق ١٢٧٠ هـ المهتار، طلال عامر:
التاريخ المسكري، ٧٤٠ ق. م - ١٩٤٥، بيروت نتنج، انتوني:
العرب انتصاراتهم وأمجاد الاسلام، ترجمة راشد البراوي، القاهرة ابن الوردي، عمر:
تتمة المختصر في اخبار البشر، النجف ١٩٦٩ الهمذاني، رشيد الدين:
جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشات وفؤاد عبد المعطي، القاهرة، ياقوت الحموي:
معجم البلدان، بيروت ١٩٦٥
اليونيني، قطب الدين موسى:
ذيل مرآة الزمان، حيدر أباد الدكن ١٩٥٥

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صدر حديثاً عن دار الشؤون الثقافية العامة

أدب البطولة في شعر أبي العباس الجراوي

إعداد : محمد القاضي

/ المغرب

١ ـ عظمة الدولة الموحدية في شعر الجراوي :

ان التحول التاريخي الذي عرفه الادب الموحدي بفضل تلك القوة العقائدية التي فرضها الموحدون على جميع الميادين إذ أصبح الادب جزءاً لا يتجزأ من الإيديولوجية الموحدية ، خصوصاً الشعر فقد أرادوه أن يكون وسيلة تذاع عبرها وجهات نظرهم السياسية والعقائدية بشكل مباشر . وقد سجل هذا الشعر كثيراً من أخبار الحروب التي خاضها الموحدون . وكان الجراوي الرائد الاول الذي خلد جل هذه الحروب في أشعاره ، ويروي شعره العربي قصة الصراع الذي كان قائماً بين الموحدين وأعدائهم في الخارج ، وهو شعر مرتبط بالزمان والمكان على السواء ، وقصائده ترتبط بأحداث حقيقية شاهدها أو عاشها بحكم اتصاله بالبلاط . فقد اتصل أول الأمر بعبد المومن فمدحه وسجل وقائعه ، كما سجل وقائع من بعده من الخلفاء يوسف ويعقوب ومحمد الناصر . وكان عبد المومن أكثر الخلفاء إعجاباً بشعره لانه كان متذوقاً للشعر ومعجباً بالجيد منه . [ويذكر التاريخ الادبي أنه حينما عبر عبد المؤمن إلى الأندلس لأول مرة ونزل بجبل طارق الذي سماه هو (جبل الفتح) تقاطر عليه الشعراء من كل حدب وصوب ، وأنشده شعراء عديدون منهم شاعر فاس أبو عبد الله محمد بن حبوس الذي أنشده قصيدة جاء فيها :

بلغ الزمان بهديكم ما أملا   وتعلمت أيامه أن تعدلا
وبحسبه ان كان شيئاً قابلا   وجد الهداية صورة فتشكلا

وأنشده أحدهم قصيدة افتتحها بقوله : ماللعدا اجنت أوقى من الهرب ... فصاح عبد المومن بصوت مرتفع وهو الاديب الحصيف الرأي المتذوق للشعر : إلى أين ؟ إلى أين ؟ إلى أين المفر . فأجاب الشاعر مسترسلاً : أين المفر وخيل الله في الطلب ..

وأين يذهب في رأسه شاهقة   وقد رمته سماء الله بالشهب ؟
حدث عن الروم في أقطار أندلس   والبحر قد ملأ الغبرين بالعرب

إلى آخر القصيدة الرائعة التي أعجب بها عبد المومن أيما إعجاب وقال بمثل هذا يمدح الخلفاء[1] فعلاً فقدكان (الموحدون مفتونين بالعظمة مأخوذين بها ككل شيء ومن تلك تسميتهم لانفسهم بالخلفاء ، كما رأينا من عبد المؤمن ، ومن تلك العظمة الماثلة لنا حتى الآن في مبانيهم بالمغرب وغيره . وكذلك وجدانهم مسحورين بهذه العظمة في تلك الامداح التي تصلصل بأجراسها ، وتتغنى بمعانيها طغياناً لا حد له ، ولكنه في ذوق يَشْتَبيقُهُ وسياج من الحكمة يحيطه .)[2]

وكانت قدرة الجراوي على استيعاب الموضع ومعالجته بدقة تهز مشاعر الخُلفاء [فجاءت قصائده مدوية هادرة تزهو بالمبالغات وتسجل بدقة وإخلاص عناصر العقيدة التومرتية وحركات خلفيتها في أرجاء الامبراطورية الموحدية الواسعة .)[3]

كان عبد المومن قائداً عسكرياً عظيماً بنى قواعد دولته على القوة العسكرية وتذكر كتب التاريخ أن جيشه كان نحو نصف مليون جندي في أوقات الحروب . وقد اشتمل هذا الجيش على عناصر كثيرة من المصامدة وصنهاجة وزناتة فضلاً عن العرب المستقدمين من افريقية (بنو هلال) الذين اشتهروا بشجاعتهم في ميدان الحروب . وقد نوه الشاعر الجراوي بمواقفهم البطولية في إحدى معارك عبد المومن[4]

هم المضريون الذين سيوفهم   صواعق بأس تنتحي كل كافر
أوائلهم في الجود للناس غاية   وكم تركوا من غاية للاواخر
وكم فيهم من مثل كعب وهاشم   وكم لهم من مثل عمر عامر
وكم قد أقاموا من عروش موائل   وكم قد أقالوا من جدود عوافر
بني عامر أنتم صميم فصمموا   إلى الموت تصميم الليوث الخوادر
بعراب خيل فوقهم أعارب   من كل مقتحم على الأخطر
أكرم بهن قبائلا أقلالها   في الحروب يغنيها عن الاكثار

• •

كان الشاعر يرى في ممدوحيه نماذج من أبطال المسلمين في قيمهم وشمائلهم ، وتبدو هذه الظاهرة بارزة في مدائحه لعبد المومن ويعقوب المنصور ، فهذا عبد المومن يسترجع المهدية (تونس) من الغزاة النورمانديين سنة ٥٥٥ هـ ، إنه البطل الذي ماتنفك جنوده تدافع عن أرض المغرب الكبير وتحرر ثغوره :

لمن الخيول كأنهن سيول   غصت بهن سباسب وهجول

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقوده بيبرس ، مكونة من عنصر الخيالة ، فلم يكن ممكناً لهذا الجناح التوقف عن الانسحاب ، والبدء بالتعرض المقابل ، الا اذا عزز بتقويات جديدة ، وهنا يتمثل دور القلب . ان نزول فرقة القلب الى ساحة القتال وتعزيزها للجناح الايسر لم يكن تنفيذاً لخطة بديلة ، كما اشار بعض الباحثين (المجلة العسكرية بحيث سبقت الاشارة اليه ص ٤٥ وعنه ينقل صبحي عبد الحميد : معارك العرب الحاسمة ٢٢٢) اذ لا توجد معلومات عن مثل هذه الخطة اصلاً ، وانما كان جزءاً من خطة تثبيت الجبهة والالتفاف على الجناح التي وضعها قطز قبل المعركة واختار ساحة القتال على ضوء مستلزماتها .

(٧٢) تذكر ال[illegible]مصرية التي سبقت الاشارة اليها ان قطز لما رأى انكسار جيد (اي انسحاب الجناح الايسر) رمى بخوذته على الارض . وهتف قائلاً (وا اسلاماه) ثلاث مرات . ثم هجم على العدو بنفسه . فتبعه سائر القادة والجند . وكان ذلك بداية لانهيار الجيش المغولي كله . ومن المستبعد ان حركة كهذه ، وهتافاً مهماً بلغت قوته ، لقادر ـ وسط ضجيج المعركة ـ ان يصل الى اسماع القادة والجند في تلك اللحظات الحاسمة ، حتى يبدل سير القتال برمته . والذي نتصوره ان حركة قطز وصيحته كانتا علامة متفقاً عليها ـ فقد كررها في معركة تالية مع قادته وبعض جنده . اذ ما ان فعل ذلك (حتى انكسر المغول) والمعقول ان تلك الاشارة كانت ايعازاً بتثبيت الجبهة ، وبدء التعرض المقابل .

(٧٣) ابن العميد ، جرجيس : اخبار الايوبيين ص ١٧٥ .

(٧٤) المصدر نفسه ص ١٧٦ .

(٧٥) تجمع الروايات المصرية (السلوك ٤٣٠ والنجوم الزاهرة ٧ /٩٧ وعيون التواريخ ٢٠ /٢٢٧ وابن خلدون : العبر ٥ /٢٤٧ والذهبي : دول الاسلام ٢ /١٢٣ ومختصر تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٦٣ وذيل مرآة الزمان ١ /٣٦٥) على ان كتبغا لقي مصرعه وهو يقاتل ، وان قاتله هو الامير آقوش الشمسي . بينما ينفرد رشيد الدين (جامع التواريخ ٣١٥) بالقول ان كتبغا (ظل يكافح الف رجل الى ان كبابه جواده في نهاية الامر فاسر) ثم حمل بعدها مكبلاً الى قطز حيث دار بينهما حوار اثبت فيه القائد المغولي اخلاصه وتفانيه في خدمة هولاكو واستهانته بالموت في سبيله . والذي نعتقده ان ما نقله رشيد الدين عن المصادر المغولية ، هو ـ في الواقع ـ الرواية التي اريد بها ان تصل الى اسماع هولاكو (في الغالب فان ناقلها هو بيدرا) وقد سمعها بالفعل وتاثر بموقف قائده وصهره كتبغا وشمل بعطفه من بقي من عقبه وأعزهم واكرمهم) .

(٧٦) عيون التواريخ ٢٠ /٢٤٣ ويذكر ابن العميد (اخبار الايوبيين ١٧٥) ان اسم هذا الابن هو (قطلو اقيمش) وانه اسر معه اخو كتبغا قبجق وزوجته (وجماعة كثيرة من اعيانهم وغنموا غنائم عظيمة) .

(٧٧) ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر ٤ /٢٠٥ وابن الوردي : تتمة المختصر . النجف ، ١٩٦٩ ، ٢ /٢٩٥ .

(٧٨) عيون التواريخ ٢٠ /٢٢٧ .

(٧٩) رشيد الدين ٣١٤

(٨٠) تجدر الاشارة هنا الى خارطة للمعركة وضعها احد الباحثين (المجلة العسكرية بحث اشير اليه سابقاً ، ص ٤٥) ونقلها عنه صبحي عبد الحميد (معارك العرب الحماسة ٢٢٢) وتتنف هذه الخارطة اخطاء جمة ، انها تجعل لرماة السهام المغول حجماً اكبر بكثير من حجم الفرسان ويتناقض ذلك مع قوله ان جيش المغول كله من الفرسان كما انه يجعل بين الفرسان ورماة السهام نهر الجالوت ، وهذا يتنافى مع طبوغرافية الوادي من جهة ، ويجعل بين الفرقتين مجرى مائياً يعيق تقدم الفرسان ، اضافة الى اعاقة رماة السهام لهم . وتشير الخارطة الى ان الفرسان ـ المغول افتتحوا المعركة بالتعرض على القلب المصري وازاحته الى قرب نهو جلبو (كذا والصحيح جلبوع) والصحيح ان هذا القلب لم يدخل المعركة الا بعد مدة من بدئها ، ويهدف مقابلة التعرض المغولي على الجناح الايسر كما ذكر المؤرخون المصريون ولا تشير الخارطة الى اي تعرض مغولي على الجناحين المصريين الايسر والايمن ، في حين كان الجناح الايسر هو اول ما استهدفه المغول في تعرضهم ، وتضع الخارطة فرسان فرقة بيبرس في مكان وراء الجيش المصري ، اي في مؤخرته ، في حين يشير اليونيني الى ان افتتاح المعركة جرى باشتباك بالجيش المغولي ، مما دل على وجوده في الجناح الايسر ، واخيراً فان الخارطة تضع مجرى نهر جلبو (جلبوع) وراء ظهر الجيش المصري ، وهذا مستحيل لان من شانه ان يعيق اي انسحاب مصري ، لا ان يعيق تقدم المغول كما يذكر الكاتب في بحثه .

(٨١) تبعد بيسان عن عين جالوت بنحو ١٢ كم .

(٨٢) السلوك ٤٣١ .

(٨٣) المصدر نفسه والصفحة . ويلاحظ انه حينما كادت كفة المغول ان ترجح صرخ السلطان نفس صرخته الاولى في عين جالوت (واسلاماه) ثلاث مرات ، فكانت تلك الصرخات نقطة تحول في سير القتال لصالح المصريين .

(٨٤) السلوك ٤٣٥ وفيه (فتخطف المسلمون منهم وقتلوا خلقاً كثيراً) وانظر فوات الوفيات ١ /٢٣٦ .

(٨٤ أ) ابو شامة ذيل الروضتين ٢١١ والعريني ، السيد الباز : المغول بيروت ١٩٦٧ . ص ٢٦٦ وتجدر الاشارة هنا الى أن بيبرس حرص ـ عندما اصبح سلطاناً ـ على تخليد ذكرى ذلك الانتصار باقامة نصب تذكاري في الساحة التي تم فيها نصر المسلمين على المغول في عين جالوت ، وقد اطلق على هذا النصب اسم (مشهد النصر) ويعتبر المثل الوحيد للنصب التذكارية في الاسلام ، عاشور ، سعيد عبد الفتاح : الظاهر بيبرس ص ٣٣ .

(٨٥) يحدد ابو شامة ساحة التعرض المصري بانها (بارض حمص .. عند قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه الى قريب الرستن وذلك يوم الجمعة خامس المحرم (سنة ٦٥٩ هـ / ١١ كانون الاول ١٢٦٠ م) (ذيل الروضتين ٢١١)

(٨٦) انظر لامب ، هارولد : شعلة الاسلام قصة الحروب الصليبية ، ترجمة محمود عبد الله يعقوب . بغداد ١٩٦٧ . ص ٥٦٤ ـ ٥٦٨ ، وعاشور ، سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية ، القاهرة ١٩٦٣ ٢ /١١٣٦ .

(٨٧) تتردد الاشارة الى (الكوسات) و (كوسات السلطان) في فترة الاستحضار للمعركة ، وفي اثناء المعركة نفسها ، والكوسات هي الطبول ، والصنوج ، التي تضرب بها في الحروب ، وفي المناسبات ، ويشبه الضاربون بها عازفو موسيقى الجيش في هذه الايام .

(٨٨) يشير رنسمان ٥٣٦ الى افتقار كتبغا الى الكشافة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمل الحوادث

الاحد ١٤ شعبان ٢٥ تموز قرار مجلس الحرب في القاهرة قبول المعركة والاعلان عنه رسمياً بقتل رسل المغول .
الاثنين ١٥ شعبان ٢٦ تموز مغادرة الجيش المصري القاهرة
الثلاثاء ١٦ شعبان ٢٧ تموز تقدم الجيش المصري باتجاه الصالحية
الاربعاء ١٧ شعبان ٢٨ تموز وصول الجيش المصري الى الصالحية وتحشده فيها
الاحد ٢٨ شعبان ٨ آب مغادرة الجيش المصري الصالحية باتجاه فلسطين
الاثنين ٢٩ شعبان ٩ آب افراز مقدمة الجيش بقيادة بيبرس وصدور الاوامر اليه بالتعرض على غزة
الثلاثاء ١ رمضان ١٠ آب تقدم بيبرس عبر شبه جزيرة سيناء
الاربعاء ٢ رمضان ١١ آب وصول نبأ مغادرة الجيش المصري القاهرة الى القيادة المغولية في الشام
الجمعة ٥ رمضان ١٤ آب تعرض بيبرس على غزة واخلاء المغول لها وانسحابهم منها
السبت ٦ رمضان ١٥ آب وصول الجيش المصري بقيادة قطز الى غزة
الاحد ٧ رمضان ١٦ آب الاستراحة في غزة
الاثنين ٨ رمضان ١٧ آب مغادرة الجيش المصري غزة والتقدم نحو عكا
الجمعة ١٨ رمضان ٢٧ آب . وصول الجيش المصري ضواحي عكا
السبت ١٩ رمضان ٢٨ آب بدء المفاوضات بين الجانبين المصري والصليبي على حياد الجانب الاخير
الاربعاء ٢٣ رمضان ١ أيلول وصول نبأ تقدم الجيش المغولي من دمشق الى اسماع القيادة المصري ومغادرة الجيش المصري ضواحي عكا باتجاه عين جالوت
الخميس ٢٤ رمضان ٢ أيلول وصول الجيش المصري الى عين جالوت
الجمعة ٢٥ رمضان ٣ أيلول معركة عين جالوت
السبت ٢٦ رمضان ٤ أيلول انسحاب فلول المغول الى مدينة بيسان
الاحد ٢٧ رمضان ٥ أيلول وصول نبأ النصر في عين جالوت الى دمشق / تعرض الجيش المصري على مواقع الجيش المغولي في بيسان / معركة بيسان
الاثنين ٢٨ رمضان ٦ أيلول اندلاع الثورة في دمشق وطرد ، او تصفية ، المغول منها
الثلاثاء ٢٩ رمضان ٧ أيلول وصول مرسوم من الملك المظفر قطز الى اهل دمشق يعلمهم رسمياً بنتائج معركة عين جالوت
الاربعاء ٣٠ رمضان ٨ أيلول وصول الجيش المصري ضواحي دمشق وتعسكره فيها
الخميس ١ شوال ٩ أيلول افراز مقدمة الجيش المصري بقيادة بيبرس وتقدمه شمالاً لمطاردة فلول المغول في بلاد الشام
الاحد ٤ شوال ١٣ أيلول دخول الجيش المصري دمشق والاعلان عن تحرير بلاد الشام من الاحتلال المغولي

المصادر والمراجع

ابن اياس ، محمد بن أحمد :
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، بولاق ١٣١١ هـ .
ابن تغري بردي ، أبو المحاسن يوسف :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٩٢٩ ـ ١٩٥٦ ابن حبيب ، الحسن بن عمر :
درة الاسلاك في دولة الاتراك . مخطوطة في المكتبة السليمانية باستنبول برقم ٨٤٣ .
ابن خلدون ، عبد الرحمن :
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ١٩٦٨
خمار قسطنطين :
ـ موسوعة فلسطين الجغرافية ، بيروت ١٩٦٩
ـ اسماء الاماكن والمواقع والمعالم الطبيعية والبشرية والجغرافية ، المعروفة في فلسطين حتى العام ١٩٤٨ ، بيروت ١٩٨٠ .
الداوداري ، ابن أيبك :
كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٨ ، تحقيق اولرخ هارمان ، القاهرة ١٩٧١ الذهبي ، محمد بن أحمد :
د ـ دول الاسلام ، حيدر أباد ١٣٦٥ هـ .
ـ العبرة في خبر من غبر ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦١
ـ مختصر تاريخ الاسلام ، مخطوطة مصورة في مكتبة الدراسات العليا ـ كلية الاداب ، بجامعة بغداد .
رينسمان :
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد البار العريني ، بيروت ١٩٦٩ السيوطي ، عبد الرحمن :
تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٩ ابن شاهين ، غرس الدين خليل :

اولئك الرسل هو اربعون ، بينما تشير الرواية المصرية الى ان عددهم خمسة ، وسط واحد بسوق الخيل تحت قلعة الجبل ، ووسط اخر بظاهر باب زويلة ، ووسط الثالث ظاهر باب النصر ، ووسط الرابع بالريدانية ، اما الخامس فقد ابقى عليه ، وضم الى جملة مماليك السلطان . المقريزي ، احمد بن علي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٢٤٩ .

(١٤) يصف ابن تغردي بردي حالة الانهيار المعنوي الذي اصاب الناس آنذاك ، (فالقلوب قد ايست من النصرة على التتار) مما ادى الى هرب جماعات الى المغرب والحجاز واليمن (والباقون بقوا في وجل عظيم وخوف شديد يتوقعون دخول العدو واخذ البلاد) (النجوم الزاهرة ٧ /٧٨) وهذه النصوص تدل على مقدار الجهد الذي بذله قطز والمخلصون من اعوانه في التعبئة المعنوية للناس ، من عسكريين ومدنيين ، على حد سواء .

(١٥) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٩ .

(١٦) عمارة ، محمد : معارك العرب ضد الغزاة . بيروت ١٩٧٥ . ص ١٢٩

(١٧) المقريزي : المصدر السابق والصفحة .

(١٨) نفس المصدر ص ٤٣٠

(١٩) يشير ابن اياس الحنفي (بدائع الزهور في وقائع الدهور) بولاق ١٣١١ هـ ١ /٩٦ الى بعض تفاصيل تلك الموارد . وهي : ١ /١٢ من اجرة الاملاك والاوقاف ١ /١٢ من اجرة الغيطان والسواقي ، ١ /٤٠ زكاة معجلة من الناس والتجار ١ /٣ من اموال الترك الاهلية ، اي الاتراك المتوطنين في مصر . وكانوا يمثلون الطبقة الثرية أنذاك ، دينار واحد بدل نقدي من كل رجل وامرأة في العاصمة .

(٢٠) ابن اياس ١ /٩٧ .

(٢١) في تعليمات اصدرها قطز الى صاحب حماه ، وهو في الصالحية حيث تحتشد الجيش المصري جاء ما ياتي (لا تحتفل في مد سماط ، بل اجعل كل واحد من اصحابك يفطر على قطعة لحم في صولقه (مخلاة) ، (النجوم الزاهرة ٧ /٧٨) .

(٢٢) ابن اياس ١ /٩٦ (ان الملك المظفر قطز نادى في القاهرة بان النفير عام إلى الغزو في سبيل الله) .

(٢٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٠ ، ورشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٣١٣ .

(٢٤) النجوم الزاهرة ٧ /٧٧ .

(٢٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت ١٩٦٨) م٥ ق ١ ص ٨٢٠ .

(٢٦) تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٩٥٨) ص ٢٨٠ .

(٢٧) استنتج باحث من هذا النص ، ان الجيش المغولي كان باسره مكوناً من صنف الخيالة لان الجياد كانت اهم اسلحة الحرب لديهم ولم يشمل جيشهم عنصر المشاة (المجلة العسكرية . المجلد ٣٩ (١٩٦٢) ص ٤٠) وعدم ورود اشارة ضمن النص ، الى المشاة لا يعني انعدام وجودهم ، فمن المحقق انه يصحب الفرسان في حروبهم تابع او اتباع يساعدونهم في حمل الاسلحة ، واطعام الخيل ، والعناية بها ، فضلاً عن الاعمال القتالية الاخرى .

(٢٨) مختصر الدول ص ٢٨٠ .

(٢٩) النجوم الزاهرة ٧ /٧٧ .

(٣٠) رنسمان : تاريخ الحروب الصليبية . ترجمة السيد الباز العريني ، بيروت ١٩٦٩ ، ٣ /٥٣٦ ومع ان ابن العبري ارمني ومعاصر للاحداث الا انه لم ينوه بوجود قوات من بني قومه الى جانب المغول ، ويبدو لنا ان في الامر تقليلاً متعمداً لحجم الجيش المنولي من اجل تبرير خسارته فيما بعد ، وتهوين امر ما احرزه الجيش المصري من انتصارات . وهو فرض يبدو معقولاً اذا علمنا بولاء ابن العبري الارمني للمغول وتعاونه معهم ، وما تنضح به مؤلفاته ، وخاصة تاريخه السرياني ، من روح تشف بالعرب لما لقيهم من تنكيل هولاكو وجنده .

(٣١) كان جنكيز خان قد انفذ مع سنتاي نوين ٠٠٠ و٣٠ مقاتل عند غزوه سمر قند (ابن العبري : مختصر الدول ٢٣٤) .

(٣٢) ان كتبغا هو من قبيلة النايمان ، التي تزوج منها هولاكو ، وهو ـ كمعظم افراد قبيلته نسطوري المذهب .

(٣٣) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ . تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم . بغداد ١٩٨٠ . ج ٢٠ ص ٢٤٣ .

(٣٤) اخبار الايوبيين ص ١٧٥ .

(٣٥) المهتار ، طلال عامر : التاريخ العسكري ٤٧٠ ق . م ـ ١٩٤٥ . بيروت بلا . ص ١٩٢ .

(٣٦) الطقطقي ، ابن طباطبا : الفخري في الاداب السلطانية ، القاهرة بلا . ص ٦٥ وفيه نقرأ الوصف الاتي للفارس المغولي (فارس تحته فرس كانه حمار ، وفي يده رمح كانه المغزل ، وليس عليه كسوة ولا سلاح) .

(٣٧) ابن اياس : بدائع الزهور ١ /٩٦ .

(٣٧ أ) ابو شامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل : ذيل الروضتين . القاهرة ١٩٤٧ . ص ٢٠٧ .

(٣٨) طرخان ، ابراهيم علي : النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى . القاهرة ١٩٦٨ . ص ١٤٨ ـ ١٥٨ وضوميط أنطوان : الدولة المملوكية : التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري . بيروت ١٩٨٠ ، ص ٢٢ فما بعد .

(٣٨ أ) المقريزي : السلوك ٤٢٩ .

(٣٩) قال ابو شامة (فخرج عساكر اهل مصر مع من انضوى اليهم من العرب وغيرهم) (ذيل الروضتين ص ٢٠٧)

(٤٠) السلوك ٤١١ .

(٤١) ابن شاهين ، غرس الدين خليل : زبدة كشف الممالك . باريس ١٨٩٤ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٤٢) رأى باحث (المجلة العسكرية . المجلد ٣٩ (١٩٦٢) ص ٤١) ان نسبة الخيالة الى المشاة في الجيش المصري بلغت النصف ، ولم نجد في المصادر التاريخية ما يسند هذا الرأي .

(٤٣) عمارة : معارك العرب ضد الغزاة ، ١٣٠

(٤٤) الذهبي ، محمد بن احمد : دول الاسلام . حيدر أباد ١٣٦٥ هـ ، ج ٢ ص ١٢٣ .

(٤٥) الكتبي . عيون التواريخ ٢٠ /٢٤١ وفوات الوفيات : بيروت ١٩٧٤ . ج ١ ص ٢٠١ ووصفه ابن حبيب ، الحسن بن عمر : درة الاسلاك في دولة الاتراك ، بقوله (ملك مقدام ، اسد ضرغام ، حسن الاراء والخصال نافذ السهام ، ماضي النصال ، مبادر الى الطاعة ، مكبر من الصلاة في الجماعة ثابر على جهاد الاعداء اشد مثابرة وطرد عساكر التتار من الشام ، وكسرهم على عين جالوت كسرة جبر بها الاسلام) مخطوطة السليمانية . حوادث ٦٥٧) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٤٥أ) عاشور . سعيد عبد الفتاح : الظاهر بيبرس . القاهرة ، ١٩٦٣ . ص ١٦ ـ ٢٢ .

(٤٦) اشار بعض الكتاب الى ان الجيش المغولي (تم تحشده في منطقة كائنة جنوب بحيرة طبرية) (المجلة العسكرية . المجلد ٣٩ (١٩٦٢) ص ٤٠)

وما اثبتناه هو ما نص عليه رشيد الدين الهمداني في جامع التواريخ ٣١٣ والكتبي في عيون التواريخ ٢٠ /٢٢٦ وايدهما في ذلك كتاب محدثون ، مثل رينسمان ، وعاشور ، والبازالمريني .

(٤٧) رشيد الدين ٣١٣ .

(٤٨) المقريزي : المواعظ والاعتبار ١ /٢٢٧ .

(٤٩) السلوك ٤٢٩ .

(٥٠) بدائع الزهور ١ /٩٦

(٥١) السلوك ٤٣٠ . رينسمان ٣ /٥٣٤ .

(٥٢) يذكر ابن كثير الدمشقي ان قطز (بادرهم قبل ان يبادروه ، وبرز اليهم واقدم عليهم قبل ان يقدموا عليه) (البداية والنهاية . بيروت ١٩٦٦ ج ١٣ ص ٢٢٠) .

(٥٣) رينسمان ٣ /٥٣٥ .

(٥٤) في السلوك ٤٣٠ (ليعرف اخبار التتار) .

(٥٥) رشيد الدين ٣١٣ .

(٥٦) المصدر نفسه والصفحة .

(٥٧) السلوك ٤٣٠ .

(٥٨) رينسمان ٣ /٥٣٥ .

(٥٩) وصف رشيد الدين حالة كتبغا عند وصول انباء تحرير غزة اليه (كانه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب ، واقبل معتمداً الى اقصى حد على قوته وسطوته) (جامع التواريخ ٣١٣) .

(٦٠) رينسمان ٥٣٤ .

(٦١) قال اليونيني (ذيل مرآة الزمان / ١ /٣٦٥ (وبعث الملك المظفر الامير ركن الدين (البيبرس) البندقداري في عسكر ليتجسس خبر التتار)

(٦٢) ياقوت : معجم البلدان ٣ /٧٦٠ وابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٢ /٤٠٣

(٦٣) يشير Atlas Of Israel المطبوع في الكيان الصهيوني سنة ١٩٧٠ الى خرائب بلدة عين جالوت ولكنه لا يسميها باسمها التاريخي ، ويحرف الصهاينة اسم الموضع الى عين حارود En Harodit بالحاء المهملة ، زاعمين انها Harod او Harodite الواردة في التوراة مع انه ليس ثمة اي دليل ، او قرينة ، تدل على بلدة حارود التوراتية هي عين جالوت العربية ، وايجاد اصول عبرانية وهمية للمدن العربية في فلسطين امر معروف ، ولا تخفى دوافعه ويلاحظ ان واضعي Atlas Of Israel قد اسقطوا اسم (عين جالوت) من الخرائط التاريخية عن الفترة ذاتها ، ولا نشك في ان اسقاطها كان متعمداً لانها تذكر باروع انتصار حاسم حققه العرب ، والمصريون منهم بخاصة ، على اعدائهم في فلسطين .

(٦٤) ابن خلدون : العبر مج ٥ ق ١ ص ٨٢٠

(٦٥) انظر خمار ، قسطنطين : اسماء الاماكن والمواقع والمعالم الطبيعية والبشرية والجغرافية المعروفة في فلسطين حتى العام ١٩٤٨ . بيروت ١٩٨٠ . ص ٦٠ و ١٧٦ وخمار : موسوعة فلسطين الجغرافية . بيروت ١٩٦٩ . ص ١٦ و ١٨٨ . وقد اسس الصهاينة عند عين جالوت سنة ١٩٢١ و ١٩٢٩ مستعمرتين (كيبوتزين) باسم (عين حارود) . انظر الصائغ ، أنيس : بلدانية فلسطين المحتلة . بيروت ١٩٦٨ . ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

(٦٦) نقل ابن ايبك الدواداري عن الصارم ازبك ، وكان مشاركاً في المعركة بجانب المغول ، ومتفقاً مع المصريين سراً ، ان هولاكو شكا اليه قلة خبرة اولاده (اي قادة جيشه) الذي سيرهم الى مصر بالبلاد ، بل انه طلب اليه ان يدلهم ، لانه اخبر ببلاده (كنز الدرر وجامع الغرر ج ٨ . تحقيق اولرخ هارمان . القاهرة ١٩٧١ . ص ٥٦ ـ ٥٧) .

(٦٧) انفرد ابن العبري في تاريخ الدول السرياني . مجلة المشرق ١٩٥٦ . ص ١٣٨ بالاشارة الى ان المعركة دارت (تجاه جبل تابور) وهي اشارة مهمة ، لان الجبل مازال معروفاً بهذا الاسم حتى اليوم ، وقد دلنا موقعه على طبيعة المناورة التي اجراها الجيش المصري انذاك وموقعه في الشمال قليلاً من جبل الدحي المذكور .

(٦٨) يشير باحث (المجلة العسكرية . المجلد ٣٩ السنة ١٩٦٢ ص ٤٣) الى ان خطة كتبغا كانت تشمل خطة بديلة وهي التظاهر بالتقهقر عند فشل الهجوم باتجاه المركز لاستدراج العدو للقيام بالمطاردة والتوغل بعيداً عن مواضعه الرئيسية وعندئذ تقوم فرق الخيالة السريعة بالانقضاض عليه بعد وقوعه في المصيدة . وقد نقل سبحي عبد الحميد هذا القول (معارك العرب الحاسمة . بيروت ١٩٨٦ . ص ٢٢١) بحروفه تقريباً . مع انه لا تتوفر في المصادر التاريخية اية اشارة الى وجود مثل هذه الخطة .

(٦٩) يشير انتوني نتنج (العرب انتصاراتهم وامجاد الاسلام ، ترجمة راشد البراوي . القاهرة ١٩٧٤ ص ٣٧٣) الى ان بيبرس دحر المغول (بعد ان طبق التكتيك العربي المجرب ، حيث تظاهر بالفرار واستدرجهم الى كمين من النيران ؟ القاتلة) .

(٧٠) المعلومات عن الجناح الايسر (الميسرة) وحركته متوفرة نوعاً ما ، اما الجناح الايمن فلا اشارة اليه في حوادث المعركة كلها ، سوى اشارة عامة ، لكنها مهمة ، اوردها رشيد الدين (جامع التواريخ ٣١٤) مفادها ان المغول فوجئوا بالجيش المصري ينشق عليهم من ثلاث جهات ، وواضح انه يعني الميمنة والميسرة والقلب . واذا كانت الروايات المصرية لا تشير الى الجناح الايمن ، فلان هذا الجناح لم يدخل المعركة الا في الساعات الاخيرة من نهار ذلك اليوم ، ومن المرجح ان صورة الجناح الايسر وهو يتقهقر امام التعرض المغولي ، (وهو جزء من الخطة المصرية) هي التي بقيت في اذهان اولئك الرواة فسجلوها . اما الجناح الايمن فكان مختفياً وراء التل ، وبذلك فلم يتعرض الى ذكره الرواة الذين استقى منهم المؤرخون معلوماتهم . وثمة اشارة مهمة اوردها صاحب كنز الدرر (ص ٥٧) تدل على اهتمام القيادة المصرية بهذا الجناح بصفة خاصة .

(٧١) تشير الروايات المصرية (السلوك ٤٣٠ والنجوم الزاهرة ٧ /٧٩ وعيون التواريخ ٢٠ /٢٢٧) الى انكسار الجناح المصري . بينما لا تشير الرواية المغولية (رشيد الدين ٣١٤) الى ذلك وانما تذكر ان الجيش المغولي استدرج الى كمين . ومعنى هذا ان انكسار الجناح الايسر كان مفتعلاً ومرسوماً هدفه اتمام عملية الاستدراج ليس غير . ولكن بما ان معظم الجناح الايسر ، وهو الذي

طويت لها الدين فأبعدها ما انتحت ... دان وأبطأ سيرها تعجيل
يغزوُ أديم الأرض من صهلانها ... مثل اسمها حتى تكاد تزول
فصهيلها محض الثناء وإن يكن ... لا يفهم الاقوام منها صهيل
تثني على الملك الذي أيامه ... ستر على هذا الورى مسدول
عم البسيطة ملكه فكأنه ... سيل على كل البلاد يسيل
جهل النصارى أنه الملك الذي ... يرث البلاد وعذرهم مقبول

وهذا يعقوب المنصور ينتصر على ابن غانية ـ أحد الثوار المعارضين للسلطة الشرعية ـ على أرض تونس ويسترجع فيها مدينة قفصة ويحرر أهلها من شقاء الثائر وعذابه :

فتح يطاول نعته الاحقابا ... خضعت له فرقة الضلال رقابا
واستشعر المراق منه مخافة ... ملكت عليهم جيئة وذهابا
وعذابه ما قد صفا من عيشهم ... كدراً وما فيه الحلاوة صابا
لله يوم الاربعاء فإنه ... أحيا النفوس وتمم الارابا

كان انتظار الموحدين على هؤلاء في هذه المعركة بفضل أسطولهم البحري العظيم وبجيشهم : الباسل القوي ، واسترجاع مدينة قفصة وضمها الى مملكتهم ، من أهم دعائم تقوية الجبهة الداخلية وتطهيرها من عبث الثائرين المارقين في نظرهم . والقصيدة تعتبر وثيقة تاريخية مهمة تسجل بوضوح مدى الصعوبات التي كان يلقاها الموحدون في محاربة هؤلاء نظراً لصمودهم وكثرة تنقلاتهم . يقول الجراوي :

وسع الموالي والمعادي حكمه ... في كل أرض رحمة وعذابا
رسم ابن اسحاق على خرطومه ... خزياً ينال حديثه الاحقابا
طفح الشقاء بأهل قفصة وارتقى ... بهم شواهق صعبة وعقابا
وأنا لهم أضرارهم من قبل أن ... رأوا العذاب أنابة ومثابا
لم يغن عنهم إذا أتاهم من عل ... أن يحرصوا الاسوار والابوابا
نالتهم رحمه الخليفة بعدما ... نادى الردى بنفوسهم وأهابا
آيات نصر بينات كُلهُا ... بهرت بما جاءت به الالبابا

انه تصور رائع يجسد الشاعر من خلاله بطولة وعظمة الخليفة المنتصر ، ويشيد بانتصاره العظيم هذا الانتصار الذي أحدث الهلع والرعب في نفوس الاعداء . والشاعر كان يختار من الالفاظ والأوزان ما يساعده في تجسيم الصورة ليحقق الغرض الذي يهدف اليه ، وذلك ارضاء للخليفة الممدوح . فكان يكثر من التهويلات والمبالغات ليؤكد للملأ مشروعية السلطة الموحدية الدينية والدنيوية وصلاحها للعباد ويثبت : « رغبتهم المطلقة فيه للسيطرة على الدنيا وإرغام الناس للخضوع لدولتهم والإحتماء بكنفهم لا بوصفهم السلطة الزمنية فحسب ، ولكن ايضاً بوصفهم القيمين على تحقيق ارادة الله على الارض وفي عبادِهِ ، تلك الارادة التي من اجلها بعث الرسل وانزلت الكتب » .[٥]

يقول الجراوي في مدح عبد المومن مبرزاً رؤية هؤلاء إلى التطلع نحو التوسع الإمبراطوري وامتلاك الاراضي ، لان الموحدين تميزوا طيلة تاريخهم الحربي بتوجيه الصراع لصالحهم من خلال إصرارهم على تحقيق النصر ومقاومة كل من خالفهم في أفكارهم أو عارض دولتهم :

وجرت معالكم إلى الامد الذي ... بعدت مسافته على الاسفار
وقفت على ما قد أردت سعادة ... وقفت عليها خدمة الاقدار
لا تخلق الايام ملككم ... أبداً ولا تبلي على الاصرار
لاغرو إن كنت الأخير زمانه ... فالفضل للأصال والاسحار
ملك الملوك لقد أنفت إلى العلا ... ونظرت من فوق إلى الاقدار
أنت السبيل إلى النجاة فكلنا ... لولاك كان على شفير هار
وجريت في نصر الاله الى مدى ... يكبو وراءك فيه كل مجار

وتتجلي هذه الرغبة بوضوح اكثر في هذه الابيات التي مدح فيها الشاعر الخليفة يوسف بن عبد المومن :

ستملك أرض مصر والعراقا ... وتجري نحوك الامم استباقا
إذا لم يتفق رأي ورأي ... أفادا في محبتك اتفاقا
صفالك كل قلب غير صاف ... وزحزح عن ضمائره النفاقا
تبادرت الفتوح اليك تجري ... غرائبها وتستبق استباقا
ويا ملكا أحنت كل أرض ... إلى أرض اقام بها اشتياقا

البطولة والانتصار :

ان التظاهر بالقوة وحب العظمة من المبادىء التي بنى عليها الموحدون حكمهم ، وكان التطلع نحو الاندلس والحفاظ على اسلامها من أهم الاهداف التي كانت ترنو اليها طموحاتهم وقد اكتسبت تقاليد القتال في ظِلُهِمْ مزيداً من القواعد الاساسية التي جعلتها موضع الهيبة والاجلال ، وكانت الحروب والمواجهات بينهم وبين الاسبان في استمرار ، فلا تكاد تخمد الواحدة حتى تشب الاخرى بسبب هجمات الاسبان على عرب الاندلس ، ومن بين هذه الحروب معركة الأرك الخالدة التي سجل فيها الجيش الموحدي صفحات من البطولة والنصر بقيادة الخليفة يعقوب المنصور ، وقد عاش الجراوي أحداث تلك الواقعة العظيمة فسجل ايامها ومواقعها ، فنطق لسانه بآيات من النصر وعبر عن بسالة البطل والمقاتلين في آداء حسي معبر ودقيق :

هو الفتح أعيا وصفه النظم والنثرا ... وعمت جميع المسلمين به البشرى
وأنجد في الدنيا وغار حديثه ... فراقت به حسناً ، وطابت به نشرا
تميز بالاحجال والغرر التي ... أقل سناها يبهر الشمس والبدرا
وصيرت المرقى إليه صوارم ... كثير بها القتلى قليل بها الأسرى
وأثمره الصبر الذي لم تزل به ... حماة الهدى والدين تستنزل النصرا
لقد أورد الادفونش شيعته الردى ... وساقهم جهلا الى البطشة الكبرى

إن أهمية الحدث اقتضى من الشاعر الدخول مباشرة في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الموضوع ، هذا الحدث أعجز اللسان عن تصويره . فكانت قوة الكلمة تاتي من قوة الفكر ، فاصطنع المواقف البطولية وأشاد بالبطل المقدس الحامل لرسالة عظيمة يعينه الله في تحقيقها ، ويبالغ في تصوير انهزام الادفونش قائد النصارى الذي دفع به الغرور إلى أن يدفع بجيشه إلى هزيمة محققة :

ودارت رحى الهيجاء عليهم فاصبحوا   هشيماً طحيناً في مهب الصبا يذرى
يطيرا بأشلاء لهم كل قشعم   فما شئت من نسر غدا بطنه قبرا
نكيف رأى المغتر عقبى اغتراره   وكيف رأى الغدرا في رأيه الغدر

لقد حدد الشاعر ملامح البطل ، ولم يترك من جوانب البطولة موضعاً إلا وقف عنده ، وكانت صور البطل المقدس والمعركة والاستبسال من أجل الاستشهاد والصمود والانتصار من أهم ما برع فيه رسمه ، وأضفى عليه كثيراً من سمات الفخامة والزخرف البياني ، فجاء شعره الحربي مليئاً بالصور الحية من ساحات الوغى وبالوصف الدقيق لحركاتها ، من اشتباك الصفوف وصليل السيوف وحمحمة الخيول وتساقط الاشلاء وسيل الدماء ، وهو وصف لم نعهده من قبل في الأدب المغربي ، لانه استغل فيه جل المعاني الحربية التي ترتكز عليها القصائد الملحمية :

معز الهدى معليه حامي ذماره   يجير على اعدائه البر والبحرا
معان بأمداد الملائك منزل   من المعقل الأسمى مناوئه قسرا
له عسكر مجر من الصبر والتقى   يرد على أعقابه العسكر المجر
أغاث الله به البلاد وأهلها   وصير غايات الفتوح له ذخرا
فلا زال بالنصر الالهي يقتفيْ   بشائر يحصى قبل إحصائها القطرا

وفي زمن ، الحرب ، تعتمد الحرب الدعائية اعتماداً كلياً على الايمان بالنصر وكراهية العدو ، ولعل الموحدين كانوا أكثر الناس ابتكاراً للحيل الحربية واصطناع المواقف ، لان طبيعة الحرب يصاحبها القلق والتوتر ، والاتصال معناه إثبات الوجود الموحدي بالاندلس وشرعية سلطتهم .

بكرت العداة شريعة   كالطير ظامئة تبادر منهلا
وشقوا بيوم أوحد في جنسه   فأتت مناقب الزمان الاولا
ما كذبت صلاتهم لكن رسا   قدامها أهل البصائر اجبلا
واستحقروا وطأتهم لما دهوا   بأشد من وطيء الزمان واثقلا
عدد المصرع منهم عدد الحصى   هيهات أن يحصى وأن يتحصلا
جاءوا أسوداً لاتنهبه فانثنوا   يحكون في الحرب النعام المجفلا
والصبح لم يطل على جنح الدجى   من أفقه متجلياً حتى إنجلى

لقد حفلت القصيدة بالوصف الدقيق للمعركة وبالتصعيد البطولي للجيش الموحدي ، إنها بطولة التحام وجرحى وقتلى وتشامخ تطل على هذه اللوحة بعين ساخرة . فقد أبدع الشاعر في انتقاء الكلمة وسيطرته على اللغة وهو ينشد شعره ، وكان عليه أن يخلق صوراً جديدة ومثيرة ، ويبتكر نوعاً من الحيوية لوضوح ودقة التفاصيل في المواقف الحربية . فتدنو ... وتتعالى ألسنة النار والشرر حول فوافبه . « وأما عندما يصف المواقع الحربية فإنه يبلغ الدرجة العليا في دقة الوصف ، وتصوير أمر الفتح والنصر ، وكل ذلك بأسلوب متين يظهر فيه أثر ... الشعراء الجاهليين وأحسن ماله في ذلك هذه القصيدة ... غزوة الأرك . » وإن كانت تسري في معانيها روح ... يضفيها الشاعر على ممدوحه ، وهي مبالغة ... متمكن فكان يسخر كل طاقاته من أجل ... ويجهد نفسه من أجل الصورة المتغيرة والتعبير ... القدرات الفنية التي كان يستخدمها لشحن ... العظمة والإخلاص فكان في كل أمداحه تاجر ... يعجب الخلفاء لا بما يعتقد هو نفسه وذلك للحفاظ ... تبوأه من مكانة أبناء عبد المومن . وتعتبر هذه القصيدة ... قصائد الشاعر المدحية وأروعها صوراً ... الحربي وسيطرة المصطلحات الحربية كالصوارم والسيوف والأسنة والبطشة والهشيم والطحين والتشعم ... الاستفادة لتجارب غيره من الشعراء العرب الذين سبقوه في هذا الميدان كأبي تمام في فتح عمورية والمتنبي في الحدث الحمراء وذلك من خلال وعيه لها ومعرفته بمعناها .

كان الجراوي يعيش واقعاً قائماً وموجوداً ... الشعر عنده سلاح ماض في الصراع بين الموحدين والاعداء . كما ... التفاصيل التي يقدمها شعره في هذا الموضوع ... بالمعلومات التاريخية المهمة التي لا يمكن اغفالها . « وهكذا انتهى يوم الأرك الدامي بهزيمة الاسبان على هذا النحو المروع . وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل ، بينهم زهرة الفروسية الاسبانية واستولى المسلمون على معسكرهم بجميع ما فيه من المتاع والمال ، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك وقلعة رباح المنيعين . وما يذكر هنا بالثناء لزعيم الموحدين ، إنه لم يدنس صفحة نصره بالالتجاء إلى قسوة لا مبرر لها في معاملة الاسرى والعزل . فقد أسر المسلمون في موقعة الارك عشرين الفاً ، ولم يشأ المنصور جرياً على سنن الحرب المتبعة يومئذ ان يقتلهم او يرسلهم عبيداً الى افريقيا . بل آثر أن يمنحهم جميعاً الحرية دون افتداء »[٧] .

السمات البارزة في شعر الجراوي البطولي :

ان لكل شاعر صوته وبلاغته وطريقة ادائه المسموعة ، والشعراء يختلفون في مدى ما يثيره شعرهم من احتمالات وتأويلات . « والارتباط بالكلمة أحد أساسات العمل الفني لان هذا الارتباط يترجم واقعاً نفسياً لا يسهل معه الكذب ، كما لا يسهل معه الصدق . لان استمرارية الارتباط تحتاج إلى قدر كبير

وأوصى الشاعر المحدث ان يلجا الى مثل هذا الاسلوب اذا اراد أن يتناول معاني القدماء . يقول في نص مهم له ما ياتي « ويحتاج من سلك هذه السبيل الى الطاف الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها ، وينفرد بشهرتها كانه غير مسبوق اليها . فيستعمل المعاني الماخوذة في غير الجنس الذي تناولها منه . فاذا وجد معنى لطيفاً في تشبيب او غزل استعمله في المديح . وان وجده في المديح استعمله في الهجاء . وان وجده في وصف ناقة او فرس استعمله في وصف الانسان ، وان وجده في وصف انسان استعمله في وصف بهيمة . فان عكس المعاني على اختلاف وجوهها غير متعذر على من احسن عكسها واستعمالها في الابواب التي يحتاج إليها . وان وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام أو في الخطب والرسائل فتناوله وجعله شعراً كان اخفى واحسن »[٨]

ليس من شك في ان فكرة نقل المعنى من غرض الى اخر ليست اكثر من وضع المعنى في سياق مختلف . والمهم في هذا ان السياق الجديد يكسب المعنى بعداً لم يكن له في السابق . كما أن من شان هذه الفكرة أن توسع نظرة الناقد فلا تقتصر على المعنى الجزئي المنقول .. وانما النظر اليه في اطار القطعة الشعرية أو النص كاملاً . ان المعنى الجزئي في سياق قصيدة في المدح مثلاً لا يمكن ان يكون هو نفسه في سياق قصيدة في الغزل أو في الرثاء ، وحال المعنى الواحد الذي يأتي في سياقين مختلفين يشبه حال اللفظة الواحدة التي تأتي في تركيبين مختلفين وكما تكتسب اللفظة دلالة اضافية أو جديدة في سياقها الجديد يمكن القول ان المعنى الواحد يكتسب دلالة اخرى في أطاره الثاني .

ولسنا نريد القول ان ابن طباطبا اراد هذا الذي نشير اليه ، فنحمل عباراته اكثر مما تحمل من دلالات . ولكننا نحاول ان نفسر قوله تفسيراً آخر اقرب الى ما ينبغي ان يكون عليه تحليل النص وفهمه . ولرب معترض يقول : اينطبق هذا الذي نقول على نقل المعاني من نص نثري ووضعها في سياق شعري؟ ونقول نعم . لان سياق النثر ـ خطبة أو رسالة ـ بمعزل عن سياق الشعر . فضلاً عن أن المعنى المنقول من نص نثري سيدخل في اطار غرض آخر غير الغرض الذي وجد فيه المعنى أصلاً . ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان المعنى المنقول من نص نثري الى نص شعري يبتعد مرتين عن الاصل .. مرة لكونه قائماً في سياق النثر هو غير سياق الشعر الذي سيكون عليه ... ومرة أخرى لكونه يمثل غرضاً هو غير الغرض الذي سياتي فيه لاحقاً . وكلا الامرين كفيل ان يكسب المعنى المتناول أبعاداً جديدة مختلفة .

ومن المؤسف أن الناقد القديم لم ينظر الى المعنى المسروق في اطاره الجديد وسياقه الثاني الا لكي يفسر « خفاء » السرقة ، ولذلك نجد ان مهلهل بن يموت يعد نقل المعنى من غرض لاخر من « السرق الخفي »[٩] . وهو يسعى في كتابه (سرقات ابي نواس) الى رصد المعاني المتشابهة عند ابي نواس من جهة والشعراء السابقين له من جهة أخرى من غير ان يزيد على ذلك شيئاً . وقد يكون تفسير ذلك ان النقد القديم بوجه عام يميل الى النظر الى المعاني الجزئية . ومن شان هذا ان يعزل المعنى الجزئي عما قبله ومابعده . بمعنى آخر يغفل النظر الى المعنى في سياقه العام .

ـ ٣ ـ

لم يكن الجرجاني معنياً بفكرة السرقات على نحو مباشر . وقد جاء الحديث عنها عرضاً في أثناء تحليله للنصوص والموازنة بين المعاني ، اذ « كان من أهدافه ان يبين امر المعاني كيف تنقل وتختلف ومن اين تجتمع وتفترق ، ويفصل اجناسها وانواعها ويتتبع خاصها ومشاعها وان يبين احوالها في كرم منصبها من العقل وقرب رحمها منه او بعدها عنه .. »[١٠] وقاده هذا الى البحث في المجاز والنظم . اما الاول فقد عالجه في (أسرار البلاغة) وبين اهميته وبم يتمثل وينكشف . في حين انه بحث مسالة النظم في (دلائل الاعجاز) .. فدرس العلاقات التي تقوم بين الالفاظ واهمية ذلك في تحديد المعنى .

بشّر الجرجاني في كتابيه بمنهج دقيق للنص الشعري سعياً وراء العلاقات التي تقوم بين الاسماء والافعال والحروف ، كما سعى الى تحديد صور البيان كالتشبيه والاستعارة والكناية ودلالة ذلك على ما يسميه معنى المعنى . فمنه يدل النظم على المعنى والمجاز على معنى المعنى .

ان التحليل الذي دعا اليه الجرجاني يقوم على القراءة الدقيقة للنص ، وعلى الكشف عن خصوصية التعبير وتفرد الصياغة بشكل دقيق وكامل . يقول في معرض الرد على من يجمل من غير أن يفصل ويومىء من غير أن يحدد « ولكن بقي ان تعلمونا مكان المزية في الكلام وتصفوها لنا وتذكروها ذكراً كما ينص الشيء ويعين ، ويكشف عن وجهه ويبين . ولا يكفي ان تقولوا انه خصوصية في كيفية النظم ، وطريقة مخصوصة في نسق الكلم بعضها على بعض ، حتى تصفوا تلك الخصوصية وتبينوها وتذكروا لها أمثلة »[١١] ويعود الى الفكرة نفسها في موضع لاحق فيقول « واعلم انك لا تشفي العلة ولا تنتهي الى ثلج اليقين ، حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملاً الى العلم به مفصلا . وحتى لا يقنعك الا النظر في زواياه والتغلغل في مكامنه ، وحتى تكون كمن تتبع الماء حتى عرف منبعه وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يصنع فيه الى ان يعرف منبته ومجرى عروق الشجر الذي هو منه »[١٢] .

وقد طبق الجرجاني مذهبه في التحليل في ثنايا الاسرار والدلائل بما لا يدع مجالاً للشك في طول باعه في فهم النص

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

وأسراره التركيبية . وقاده هذا الى ان ينظر فيما عده النقاد السابقون عنيه سرقة فلم يجد شيئاً من نلك .

لقد قضت نظرية (النظم) على ثنائية اللفظ والمعنى ، وهو الاساس الذي أقام السابقون عليه تصوراتهم في المعاني والسرقات الشعرية . فالنص ـ عند عبد القاهر الجرجاني ـ ليس الفاظا مستقلة عن المعنى .. ولا هو معنى مستقل عن اللفظ . لا ن المعاني ليست الا نتيجة للعلاقات التي تقوم بين الالفاظ . ومايترتب على مثل هذا التصور الجديد امر كبير . لا ن اختلاف العلاقات ـ وليس اختلاف الالفاظ حسب ـ من شانه ان يؤدي بالضرورة الى اختلاف المعنى . والحديث عن سرقات المعاني ، من غير الالفاظ نفسها ، باطل . لا ن المعاني لا تسرق بمعزل عن الالفاظ والعلاقات القائمة بينها .. فاذا كان هناك نصان تختلف العلاقات القائمة بين الفاظه ، حتى لو كانت متشابهة ، فمعنى ذلك انهما نصان مختلفان وليسا متشابهين . فحيثما يوازن بين المعاني ويجد ثمة تشابها يشير الى مايسميه (أصل المعنى) أو (اصل التشبيه)[13] . وحينما يشبه الثاني الاول في معناه يقول « ويشبه ان يكون [الشاعر] نظر الى هذا البيت »[14] بمعنى تاثر به أونقل عنه . أو يقول عن مجموعة أبيات « نظير لبيت السري ، وعلى طريقة قول ابن المعتز »[15] .

والجرجاني اميل الى استخدام الفاظ أخرى غير السرقة يشير بها الى ظواهر التماثل او التشابه مثل (الاخذ) أو (الاستمداد) أو (الاستعانة) أو (النظر)[16] .

وهو لا ينكر ان يتفق شاعران . ولكنه اتفاق في (الغرض) و (الجنس) لا في (عمود المعنى وصورته) كما يقول[17] .

فالاتفاق في عموم الغرض ليس من السرقة في شيء ، كما في تشبيه الكريم بالغيث والشجاع بالاسد .. الخ فهذه معان اصبحت في حكم المشترك الذي لا ينتسب الى أحد وانما الى الموروث الذي يستقي من الشعراء . وهي ، فضلًا عن ذلك ، معان تشترك الاقوام جميعاً في ادراكها لانها مما « يستقر في العقول والعادات » و لايحتاج ادراكها الى استنباط أو روية أو تدبر .. فهي في حكم الغرائز المركوزة في النفوس[18] .

غير ان مثل هذه المعاني العامة المشتركة يمكن ان تتحول الى معان خاصة . اذا وصل الشاعر به « لطيفة ودخل اليه من باب الكناية والتعريض والرمز والتلويح »[19] .. أو فيما يصنعه الشاعر من الصور ويشكله من البدع ويوقعه في النفوس من المعاني التي يتوهم بها الجماد الصامت في صورة الحي الناطق والمعدوم المفقود في حكم الموجود الشاهد ..[20] ومثل هذا هو ما يسميه الجرجاني بعمود المعنى وصورته . اذ به يتحقق الشيء المطلوب وبصورته يتمثل ويتجسد . فالشاعر يلجأ ـ اذا اراد المدح مثلًا ـ الى ما يثبت المنح للمدوح .. فيشبه أو يرمز أو يمثل أو يستعير أو يجسد المعنوي .. أو يقلب الموات الى حي والجامد الى ناطق . وكل هذه الاساليب ذات دلالة على القصد والغرض . وهي المعول عليها في الحكم للشاعر بالجودة أو بالرداءة . وليس القصد أو الغرض العام . واذا كان الجرجاني قد التفت الى صور البيان في اسرار البلاغة للتدليل على شاعرية الشاعر واصالته ، وميز بين (عمود المعنى) و (الغرض) فربط الشعرية بالاول .. فانه التفت في (دلائل الاعجاز) الى جانب الصياغة والصورة واثرهما في تحديد المعنى . فلقد ادرك هذا الناقد ان المعاني تختلف فيما بينها باختلاف النظم والصياغة . فاذا كانت صور البيان تكشف عن معنى المعنى فان اسلوب النظم وطريقة التعبير يكشف عن اختلاف المعاني ، على الرغم مما يبدو على المعاني من تشابه ظاهري قاد كثيراً من النقاد والبصراء بالشعر الى عدها سرقة .. وهي ليست كذلك .

وليس هذا الذي نقوله مما نفرضه على الجرجاني فرضاً . انما هو مما يمكن لاي باحث ان يستبطنه وهو يتابع تحليلاته الكثيرة للنصوص المتماثلة . وحرصه الشديد على ابراز ظلال المعاني بسبب اختلاف التركيب . والجرجاني لا ينكر ان يكون لمعنى ما أصل . ولكن الاخر يذهب بالمعنى هذا « في اسلوب آخر »[21] ويقصد الى أن يقول شيئاً جديداً مختلفاً . ولذلك قد يكون في المعنى الثاني « زيادة ليست في الاول » .[22] ولا يمكن للزيادة ان تكون الا جزءاً من جديد وصياغة جديدة .

وما يطرحه الجرجاني في الاسرار بلغة قد لا تنم بوضوح عما يريد . اعني اختلاف المعاني باختلاف الصياغة ، يعرضه في الدلائل مما لا مزيد عليه من الوضوح والبيان والتفصيل . ومنطلقه في كل هذا نظرية النظم وفكرة العلاقات .

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

ومعلوم أن الجرجاني استبدل مصطلح النظم باللفظ والمعنى اللذين كانا مدار البحث النقدي والبلاغي قبله وبعده . ومع انه يبدو شديد الاهتمام بالمعنى ، الا انه لا ينكر ان لا وجود لمعنى من غير لفظ . بل ان النظم عنده ليس الا محصلة العلاقة التي يقيمها المنشىء بين الالفاظ والمعاني . ولذلك فالنظم عنده ، كما يقول ، مبدأ ثالث يجمع الركنين السابقين اللفظ والمعنى . وهو بذلك يرد على اللفظيين الذين يرون الفضيلة في اللفظ من غير المعنى . يقول « وذلك انهم لما جهلوا شان الصورة ووضعوا لانفسهم اساساً فقالوا انه ليس الا المعنى واللفظ ولا ثالث .. وانه اذا كان كذلك وجب اذا كان لاحد الكلامين فضيلة لا تكون للاخر ، ان يكون مرجع تلك الفضيلة الى اللفظ خاصة » .[23]

وقد حمل انصار اللفظ كلام العلماء في اللفظ على غير معناه . فالعلماء يقولون « لفظ متمكن غير قلق ولا ناب » . ولا يريدون من اللفظ هنا غير الصورة ، وليس نطق اللسان وجرس الحروف .[24]

وكان من شدة غفلة هؤلاء (اللفظيين) انهم أساءوا ـ

دراســة

مفهوم السرقة الشعرية وتطوره في الخطاب النقدي والبلاغي عند العرب

د . ناصر حلاوي

كلية التربية / جامعة بغداد

- ١ -

من القضايا النقدية المهمة التي شغلت النقد العربي طويلاً - ومن بعده البلاغة - موضوع السرقات الشعرية . وانه ليصح القول ان بالمستطاع دراسة النقد العربي القديم في ما يعرض له من قضايا ومشكلات تمس النص الشعري وفنون الشعر من خلال « السرقات » . فقضايا اللفظ والمعنى . ومسألة الابداع والاتباع ، وتطور المعاني الشعرية ، وتداخل الاغراض والفنون .. في أطار منهج قائم على الموازنة والتحليل لبيان ملامح التاثير والتاثر .. كل ذلك ملحوظ في « السرقات » ، وقد عرضت له كتب السرقات بايجاز حيناً وبتفاصيل أحياناً أخر .. وبالتلميح تارة والتصريح تارات .. ان دراسة السرقات تستغرق العملية النقدية كلها .. وان الدرس النقدي لا يمكن ان يكون الا جزءاً من موضوع السرقات ..

وقد برزت من خلال دراسة السرقات مجموعة مصطلحات حل نطاقها في الموضوع الواحد . على الرغم من ان ابن رشيق يقول عنها انها ألقاب محدثة ليس لها محصول اذا حققت . مكلها قريب من قريب . وقد استعمل بعضها في مكان بعض .[1] وفي هذا القول شيء من صواب ، وفيه شيء من عدم الدقة والضبط أيضاً .

شغل موضوع السرقات نقاداً .. فاوقفوا له كتباً مستقلة . وافرد له بعضهم فصولاً تداول وتقصر في كتب أخرى . ولم يقف الاهتمام بهذا الموضوع على عصر دون عصر . فقد بدأ الاهتمام تاليفاً من القرن الثاني للهجرة واستمر حتى العصور المتاخرة . فابن كناسة (ت ٢٠٧ هـ) مثلاً الف في (سرقات الكميت من القرآن) ، وتابعه الزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ) فكتب في (اغارة كثير على الشعراء) .. وتوالت السلسلة حتى كان ابن رشيق في القرن الخامس للهجرة . وكتب فصلاً في العمدة .. ورسالة صغيرة مستقلة أطلق عليها اسم (قراضة الذهب) ثم أصبح موضوع السرقات بعد ذلك باباً من أبواب البديع في كتب البلاغة المتاخرة .

وعبر هذه المسيرة الطويلة يستطيع الباحث ان يرصد اموراً كثيرة لسنا في معرض الحديث عنها الان .. لاننا معنيون أساساً بتطور النظرة الى السرقات ، ومحاولة تفسير ذلك . فعلى الرغم من أن معالجة النقاد للموضوع تبدو متشابهة .. فانهم - مع ذلك - طوروا منهجاً لدرس السرقات حاول أن يجيب عن تساؤلات كثيرة منها .. لماذا السرقات ؟ ومتى تكون ؟ واين تحسن وكيف تقبح ؟ .. الخ كل ذلك في اطار فكرة تعاور الشعراء على المعنى الواحد وصلة هذه المعاني بعضها ببعض .. لان المعاني كما يقول عبد القاهر الجرجاني « تنتقل من صورة الى صورة » .[2]

ومنذ ان بدأ الرواة يدونون الشعر العربي ويوثقونه ويفسرونه .. كان هناك تمييز - وأن لم يكن صريحاً وواضحاً - بين ظاهرتين لا يصح الخلط بينهما ، وهما ظاهرة النحل وظاهرة السرقة . اما ظاهرة النحل فسرقة محضة ولا موقع لها في مباحث السرقات . فاذا كان أساس السرقات كما أشرنا تماثل المعاني بين الشعراء والبحث عن مواقع الاصالة والاتباع .. فان النحل لا يبحث في أي شيء من هذا . وانما يبحث في كون النص ، بيتاً كان ام مقطوعة ام قصيدة ، منسوباً لغير شاعره الحقيقي . وميدان السرقات ، بالمعنى الذي حددناه ، هو النقد الادبي . أما ميدان النحل فتاريخ الادب . ولا اظن أن أحداً يزعم أن كتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام ، ولا سيما الفصول المتعلقة بالنحل ، يخص النقد الادبي في شيء . هذا في القديم . كما لا يزعم أحد أن كتاب (في الادب الجاهلي) لطه حسين هو كتاب في النقد وليس في تاريخ الادب .

وتفسير ابن سلام لظاهرة النحل امر معروف للباحثين ولا حاجة لاعادته . انما نشير اليه لنضيف دليلاً الى دليل على كون النحل ظاهرة تاريخية ، وان تفسير النقاد للسرقات امر بعيد الصلة عن ذلك . وجوهر الفرق بين الاثنين ان النحل ظاهرة تكمن في أمور خارجة عن نطاق النص كالتاريخ والدين والقصص والسياسة والاجتماع .. وانها ترتبط بمسألة توثيق النص وتقويمه . اما السرقات فمنهجها وتفسيرها قائم في النص نفسه ..

ارتبطت نشأة النقد الادبي عند العرب - في زعمنا - بعمل الرواة . فهؤلاء بحكم روايتهم للشعر تهيأ لهم ما مكنهم من ان يوازنوا بين النصوص . وقادتهم هذه الموازنة الى الكشف عن معاني الشعراء ، وتماثل هذه المعاني ، ثم تقويم الشعراء على حسب ملكاتهم في منازل وطبقات . ومن الواضح ان الاهتمام انصب اولا واخيرا على المعاني .. فحكموا بسرقة المتاخر من المتقدم لتاخره فقط . وعندما ظهر الشعراء المحدثون امثال بشار والنمري وأبي نواس قائم الاعجاب الشديد بالقديم الى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أنكار ان يكون للمتأخر نصيب من الابداع .

وقد تبلور هذا الموقف فيما اسماه ابن طباطبا بـ (المحنة)[٣] التي وجد الشعراء المحدثون انفسهم فيها . لانهم قد سبقوا الى كل معنى مديح ولفظ فصيح وحيلة لطيفة . فاتوا بما يقصر عن معاني الاقدمين .

فالمعاني ـ كما يرون ـ محدودة وقد استهلكها القدماء . ولم يبق أمام المحدثين غير تناول معاني الاقدمين بصياغات جديدة . ومن هنا نشات فكرة البديع واللفظ . لانه طريق الابداع الوحيد . اما المعاني فهي معاني القدماء .

وليس هناك أشد سذاجة من الاعتقاد بمحدودية المعاني . فهذه لا تنفد بعكس الالفاظ . والمحنة الحقيقية ـ ان كانت هناك محنة اصلا ـ تكمن في « كيف يتاتى للشاعر أن يعبر عن المعاني اللامحدودة بالفاظ محدودة ». ومن المفيد أن نشير الى أن من القدماء من كان يرى مثل هذا الرأي السليم . فالالفاظ محدودة اما المعاني فمبسوطة الى غير غاية وممتدة الى غير نهاية[٤].

وحيث لا نريد ان نرمي القدماء بسذاجة النظرة في محدودية المعاني واستهلاكها نقول انهم لم يريدوا بالمعاني التي اكثروا من الحديث عنها المعاني العامة . فهذه حقاً لا تنفد . وانما ارادوا معاني الشعر العربي واغراضه . وقد يندهش الباحث وهو يقرأ في (نقد الشعر)كيف أنه حصر معاني الشعر في أربع فضائل نفسية ، على الرغم من كل الائتلافات والمشتقات والمركبات التي حاول بواسطتها أن يوسع من نطاق معانيه في المدح . واذا أدركنا ان هذه المعاني المخصوصة للمدح هي نفسها معاني الهجاء ولكن على نحو معكوس لمسنا الضيق الشديد الذي وقع فيه الشاعر . وتزداد الدهشة عندما نلاحظ أن رثاء الميت ليس اكثر من مديح ولكن بصيغة الماضي . فالحي والميت يمدحان بالمعاني نفسها ، الاول بصيغة الحاضر والثاني بصيغة الماضي . ولنا ان نتصور ان ثلاثة من اغراض الشعر ، المدح والرثاء والهجاء ، تستقي من منبع واحد وتدور في فلك واحد . على الرغم من أن هذه الاغراض تعبر ، أو ينبغي لها أن تعبر ، عن عواطف متباينة ومشاعر مختلفة .

وليس عسيرا بعد هذا ان نفهم لم يتشابه الشعراء في المعاني . ولم تكن السرقة . وقد اجال النقاد العرب طويلا في الموضوع وانتهوا ـ فيما يبدو ـ الى مايشبه القناعة بحتمية تشابه المعاني ولذلك نقرأ لعبد العزيز الجرجاني ما يفيد أن السرقة داء قديم . وانه لم ينجُ منه احد[٥] .

تستند القصيدة العربية الى اصول ثابتة وقواعد محددة ، ان في المعاني أو المباني ، وأن هذه الاصول تتمثل فيما اسماه العرب (عمود الشعر)الذي هو اساس نظرية الشعر عندهم . وقد استحكمت هذه الاصول على الشعراء حتى العصر الحديث . ولم يكن سهلاً الخروج عليها . وحتى أبو تمام الذي اتهمه الامدي بالخروج على « طريقة العرب »و« شعر الاوائل »[٦] ، لم يكن ليجرؤ على تخطي تلك الاصول . وواقع الحال انه لم يخرج عن عمود الشعر الا في بضعة أبيات ، أو بضع استعارات ، رآها نقاد عصره ـ وبعدهم بالطبع الامدي ـ خارجة عن الذوق العربي والحساسية الشعرية السائدة ، والمالوف من معاني الشعراء وصياغاتهم . وبملاحظة الامدي يكون أبو تمام خارجا عن شعر الاوائل وطريقة العرب دلالتها . فهذا يعني ان طريق الشاعر الالتزام بالموروث ومحاكاة شعر الاوائل . مع ان الالتزام بالموروث لا يعني تقليده وانما الانطلاق منه الى ريادة جديدة . لكي يستطيع المتاخر أن يضيف الى القديم ويطوره .

ـ ٢ ـ

وقد كان لا بد لمثل هذا التفسير ـ أي امتياح الشاعر العربي من الموروث والتزامه به ـ ان يؤدي الى اعادة نظر في فكرة السرقات . فبعد ان كانت دلالتها عريضة واسعة عند نقاد القرون الثلاثة الاولى ، لدرجة انهم يحكمون بالسرقة لمجرد تماثل ضئيل في المعنى ، ضاقت الدلالة عند عبد العزيز الجرجاني وغيره ، فاقتصرت على البديع المخترع . اما المعاني العامة المشتركة ، أو المعاني المخترعة التي تدوولت حتى أصبحت جزءاً من الموروث العام ، فلا سرقة فيها . مع أن النظرة الى السرقات القائمة على التماثل الضئيل في أغلب الاحيان . بقيت سائدة .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا .. لماذا ضاق مفهوم السرقة الشعرية بعد اتساع ؟ أكان الناقد العربي القديم يدرك ان للموروث من التأثير ما لم يكن بمستطاع الشاعر ان يبدع الا به ومن خلاله ؟ أم كان يحاول ان يجد لوضع قائم فعلا قاعدة نظرية تسوغه .. فجاء بفكرة البديع المخترع . بمعنى آخر أكان الناقد القديم يفسر نشوء الظاهرة .. ام يسوغ قيامها ؟

وفي الحالين بدا الناقد العربي موفقا الى حد كبير في محاولته الدائبة لتطوير المنهج الذي يعالج ظاهرة أدبية مهمة كالسرقات .

وفي نقدنا القديم محاولات عديدة تستحق الوقوف عندها .. وقد فعل بعض الدارسين .. وبقيت محاولتان جديرتان بالعناية ، والواحدة منهما تتمم الاخرى . اولاها محاولة ابن طباطبا(ت ٣٢٢هـ)واخراها محاولة عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) . وتقوم نظرة ابن طباطبا على فكرة (السياق)الذي يرد فيه المعنى .. وتستند نظرة الجرجاني الى فكرة (العلاقات)التي ينشأ المعنى منها ويسببها .

لحظ الناقد العربي القديم ، وهو يتامل المعاني المتماثلة ويوازن بينها ، ان من الشعراء من ينقل المعنى من غرض الى آخر .. نذكر منهم على سبيل المثال مهلهل بن يموت في (سرقات ابي نواس)[٧] .. اما ابن طباطبا فقد عد نقل المعنى من سياق الى آخر سبباً في اخفاء السرقة وتضييع معالمها حتى تدق على امهر الناقدين .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من المعاناة والمهارة الحاذقة التي تمكن صاحبها من أن يمتد الى خارجه بقدر إمتداده إلى داخله ».[8]

ويقول الاستاذ محمد بن تاويت اننا لا نعرف شاعراً لم يكد يشعر إلا لغيره كما عرفنا أبا العباس الجراوي.[9]

كان الشاعر ملزماً بضرورة تمثل قيم العقيدة التومرتية والتعبير عنها ، فطبع شعره بطابعها ، فغلب الجانب الموضوعي في شعره على الجوانب الذاتية . « والإعجاب المتناهي في بعض الاحيان بالانجازات الفردية أو القومية أو الانسانية ترتبط بطوية الانسان الذي يحاول أن يضفي على مثل هذه الاعمال ما يجعلها خالدة ، لانه يرى فيها النموذج ويلتمس في صورها خلود العمل الانساني الرائع الذي يبعث في نفسه حب البقاء ويقوي في اعماله تمجيد الاعمال الرفيعة . ».[10]

إن البطل الممدوح في شعر الجراوي كان صورة من صور التقدير والأعجاب ، ومجالاً من مجالات الرضى والاستحسان ، التي ظل الشاعر حريصاً على ترسيخها في كل جانب . « ويمكن ان نلخص المثل العليا والاوصاف التي رددها في ذلك بما يأتي : الجود ، وهو عنده في المرتبة الاولى ، السعد والاسعاد في جميع قصائده تقريباً ، النسبة القيسية القريشية لهؤلاء الخلفاء ، الفضائل لا يمكن ان يحصرها نظم ولا نثر ، النور الذي يستمد من الشمس والقمر ، القدرة التي لا تعجزها النجوم ولو طولبت منهم ، فالدهر في ركابهم والانس والجن والملائكة في خدمتهم ، الظفر والنصر يقدمهم والرعب من بعيد يقهر أعداءهم . هذه هي العمد التي اعتمد عليها في مدحه الذي امتد نفسه طيلة خمسين سنة أو يزيد ، وغالبها مطروق لشعراء المديح . ».[11]

ولكن الدكتور عباس الجراوي يرى ان الشاعر الجراوي « على الرغم من سيره في اتجاه الدولة الرسمي فإنه لم يتشرب مبادىء مذهبها ، ولم يعمق في نفسه تجربة الثورة الموحدية القائمة على هذا المذهب ، ومن ثم جاءت افكاره سطحية يوردها بتقريرية وتكرار ، لا تعكس الظلال النابعة من وعيه بالدعوة . وهذا ما يجعلنا نشك في فعالية الجراوي من حيث قدرته على تصعيد مد الطاقة الشعورية الواعية لدى متلقيه وخلق مزيد من الانفعال بالمذهب والتجاوب معه . ».[12]

ولن أناقش أستاذنا الدكتور الجراري في رأيه هذا لكنني أرتاب كثيراً في تشككه لاخلاص الجراوي في خدمة العقيدة الموحدية ، لانني أرى أنه الشاعر المغربي الوحيد الذي ردد في شعره مبادىء الدعوة المهدوية ، والا كيف نحلل ارتباطه خلال خمسين سنة من المدح لاربعة خلفاء ، يسجل مسيرتهم ويخلد مآثرهم ؟ ولو وصلنا شعره الكامل لاستطعنا إصدار حكم أكثر وضوحاً ، ولعلها ظاهرة فريدة في التاريخ الادبي في مختلف عصوره أن يرتبط شاعر بأربعة خلفاء (عبد المومن - يوسف بن عبد المومن يعقوب المنصور محمد الناصر) يمدحهم ومع كل خليفة يحاول اثبات وجوده والحفاظ على مكانته رغم الهزات العنيفة التي كادت تزعزعه ، ولكنه ظل صامداً بل إغتنى كثيراً بما زودته به المناسبات الحربية التي لم تكد تنقطع خلال الوجود الموحدي بالمغرب .

وعلى العموم فإن لشعر الجراوي نبرة خاصة وديباجة متميزة تفردت من بين صور الادب المغربي كما ان شعره يعتبر وثيقة تاريخية مهمة أرخت للموحدين مواقف مشهورة « زمن ثم يمكننا أن نقول إن شعر الجراوي يعد مصدراً تاريخياً يمثل حياة الموحدين ويسجل مواقفهم الحاسمة في تاريخ المغرب والاندلس . ».[13]

وهناك جانب مهم يعتبر من المقومات التي تلعب دوراً في حياة الشاعر وهي ثقافته ، وخبرته بالشعر ، وشاعرنا من الذين توفرت لهم ثقافة واسعة وفكر متأهل وموهبة قادرة على استيعاب الاحداث وصياغتها في أفكار تناسب مقامها ، وان كانت لا تخلو من الصنعة الرصينة ، فقد جارى في بعض اتجاهاته الفنية شعر المتنبي وابن هاني في المديح كما نهج على منوال أبي تمام في تفخيم المعاني البطولية . وربما يتفق الجراوي مع ابن هاني في شعره ومبادئه ، وحسب الشعر الذي بين أيدينا للجراوي لانجد لهما شعراً في الخمرة ولا شعراً حقيقياً في النساء والغزل وذلك راجع للأسس الاخلاقية والدينية التي قامت عليها الدولة الموحدية ، حتى مطلع القصائد كانت تتخذ من الموضوع محوراً مباشراً للمدح مخالفاً منهجية القصيدة العربية ، وعلى هذا نستطيع أن نقول إن البناء الفني لقصيدة الجراوي لا يتسم بالمقدمة التقليدية « التي تمثل الجسر التقليدي الذي تمر من خلاله القصيدة ، وهي عادة تأخذ طريق الوقوف على الطلل او الديار ثم تسلية الهم بناقة قوية ، ويدخل أحياناً لوحة الصيد ثم الإنتقال إلى الممدوح ، وقد تقتصر هذه اللوحة على ذكر الحبيبة دون الديار والانتقال الى الناقة ثم الممدوح . . . وتختزل عند بعض الشعراء إلى الاكتفاء بالغزل ثم الانتقال الى الممدوح ... إن مقومات القصائد التقليدية بصورة عامة ، ومقدمات قصائد المديح بصورة خاصة بقيت مجالاً واسعاً من مجال المعاناة النفسية ، وصورة من صور التجارب الماضية التي اكتسبها الشاعر من خلال وقوفه على النماذج القديمة ، وصورة من صور الرؤيا الحاضرة التي كان يعيش أحداثها ، ويتأثر بوقائعها ويخضع لظروفها . ».[14]

ان القصيدة الموحدية بصفة عامة اتخذت طابعاً مستقلاً بذاتها وكأنها أرادت ان تساير مبدأ الموحدين في انفصالهم عن الشرق ، ورفض كل ماله علاقة به ، رغم انها احتفظت بسمات فنية لا تختلف في جوهرها عن القصيدة العربية .

واخيراً نقول إن دراسة شعر الجراوي البطولي دقيقة تمكننا من الوقوف عند الكثير من المسائل التي اكد وجودها لانه قد نصل من خلال دراسة هذه النصوص الى معرفة جوانب مهمة

لحياة الموحدين، فنقف على عظمة الاسلام في شخصية الموحدين ويتجلى لنا جانب شخصية الجراوي، إذ أنه كان حاملاً على اعداء الخلافة، مثيراً للحماسة القومية. لقد اغرم الجراوي بالمبالغة، وهو ما يخالف طبيعة العقل المتزن، واعتقد أن الشاعر حينما يعتمد كثيراً على المبالغة فانه لا يعبر عن إحساس أو وجدان ذاتي وإنما هو تعبير عن السقوط الفني، وكيفما كان الامر فإن شعره مادام لم يصلنا كله فان المجال يبقى مفتوحاً أمام الدارسين والباحثين لدراسة شخصيته وشعره دراسة علمية موسعة.

الهوامش :

(١) المراكشي / المعجب / ص : ١٢٩ ـ ١٣٢.

(٢) الاستاذ محمد بن تاويت / أصدار في الادب الموحدي / دعوة الحق / عدد : ٩ / س : ١١ / ص : ٩٤.

(٣) الدكتور حسن جلاب / محاضرات في الادب المغربي / السنة الجامعية ٨١ ـ ٨٢ (كلية الاداب / جامعة القاضي عياض / مراكش).

(٤) جميع الاستشهادات الشعرية من كتاب (الوافي بالادب العربي في المغرب الاقصى) الجزء الاول / محمد بن تاويت ص : ١١٦ ـ ١٦٧.

(٥) الاستاذ عبد الكريم التواتي / مبادىء الموحدين السياسية الدنيوية / دعوة الحق / عدد : ٢٢٥ / ص ٤٨.

(٦) الاستاذ محمد الفاسي / ابو العباس الجراوي / مجلة رسالة المغرب / مارس ١٩٤٣ ص ٨.

(٧) يوسف انشباخ / تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين / ترجمة : عبد الله عنان / ص ٢٣٧ ـ ٣٢٨.

(٨) الدكتور كامل سعفان / التجربة الشعرية بين الصدق الفني والصدق الواقعي / مجلة ـ الشعر ـ المصرية / عدد ابريل ١٩٨٠ ص ٢٢.

(٩) الاستاذ محمد بن تاويت / الوافي ... / ص ١٢٤.

(١٠) الدكتور نوري حمودي علي / تقديم جديد لقصيدة المديح في الادب العربي قبل الاسلام مجلة الجامعة / العراقية / ع : ٤ / س : ٩ / ص ٢٣.

(١١) الاستاذ محمد بن تاويت / الوافي ... ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

(١٢) الدكتور عباس الجراري / الامير الشاعر ابو الربيع سليمان الموحدي عصره وحياته وشعره / ص ١١٠.

(١٣) الاستاذ محمد عبد العزيز الدباغ / مجلة دعوة الحق / يونيو ١٩٧٠ / ص ١٣١

(١٤) الدكتور نوري حمودي علي / مرجع سابق / ص ١٦.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

.. ما ـ فهم اقوال الناقدين في السرقات . فهم يقولون « ان من ... معنى عارياً فكساه لفظاً من عنده كان احق به » اذ ... ـ يقول الجرجاني ـ ان يتصور ان يكون هناك معنى ... عليه . ثم كيف يمكن ان يكون اللاحق احق من ... اذا كانت الالفاظ الجديدة لا تحدث في النص صيغة ... يتكسب فضيلة جديدة » .[٢٥] ولا يريد الجرجاني أن ... ان الالفاظ الجديدة التي يعدها اللفظيون « كسوة » ... ـ لا بد أن تحدث في المعنى اختلافاً نابعاً من الاختلاف الذي ينشأ عن العلاقات الجديدة . وليس معنى قولهم « فكساه لفظاً من عنده » غير عبارة عن صورة يحدثها الشاعر أو غير الشاعر للمعنى .[٢٦] وتحسين العبارة أو اللفظ لا تنصرف الى اللفظ قدر انصرافها الى المعنى الذي تحدثه العلاقة الجديدة .

وعلى هذا النحو يفسر الجرجاني احكام النقاد السابقين . فيما يبدو ظاهرياً انه حكم ينصرف الى اللفظ وحده . فقول النقاد عن شاعر ما انه « ما اساء الاتباع » لا يعني غير ان الشاعر صنع بالمعنى شيئاً لم يكن له قبلاً .. أي انه نقل المعنى من صورة الى صورة ، ومن تركيب الى آخر . والشعر في تركيبه ونظمه وليس في الفاظه المجردة .[٢٧] وعلى هذا النحو ينبغي أيضاً ان نفهم اقوال العلماء في السرقات من مثل « اخذ المعنى من صاحبه فاحسن واجاد » او قولهم « انه ـ اي الشاعر ـ اساء وقصر » .. وفي ثالث « انه أخذ المعنى فظهر اخذه » أو « انه اخفاه فاخفى الاخذ » ..[٢٨]

فكل هذه الاحكام المعيارية لا تعني السرقة في شيء ، وانما اعادة الصياغة والترتيب الذي يولد معنى جديداً .

وليس اشد وضوحاً بعد الذي عرضناه من قوله « واعلم انك اذا سبرت أحوال هؤلاء الذين زعموا انه اذا كان المعبر عنه واحداً والعبارة اثنين ، ثم كانت احدى العبارتين افصح من الاخرى واحسن فانه ينبغي ان يكون السبب في كونها افصح واحسن اللفظ نفسه ... ولقد غلطوا فافحشوا . لانه لا يتصور ان تكون صورة المعنى في أحد الكلامين أو البيتين مثل صورته في الاخر البتة »[٢٩] الا اذا جاء المعنيان بالالفاظ نفسها والصياغة عينها . وعندها لن يكون امامنا غير سرقة الفاظ ومعان .. وهي سرقة محضة لا علاقة لها بالنقد والتحليل . وهناك أيضاً حالة أخرى يتشابه فيها المعنيان تماماً وتختلف الالفاظ بشرط ان تكون الالفاظ في النص الثاني مرادفة تماماً لالفاظ النص الاول وداخلة علاقات مماثلة للنص السابق .. ويستشهد الجرجاني على ذلك بقول الحطيئة :ـ

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

إذ لو قلنا :

ذر المفاخر لا تذهب لمطلبها
واجلس فانك انت الاكل اللابس

لا نكون قد صنعنا شيئاً غير اعادة المعنى نفسه . يقول الجرجاني بهذا الصدد « ذلك لانه لا يكون صانعاً شيئاً يستحق أن يدعي من اجله واضع كلام ويستأنف عبارة وقائل شعر . ذلك لان بيت الحطيئة لم يكن كلاماً وشعراً من اجل معاني الالفاظ المفردة التي تراها فيه ، مجردة معراة من معاني النظم والتأليف ، بل منها متوخى فيها ما ترى من كون المكارم مفعولاً لدع ، وكون قوله لا ترحل لبغيتها جملة اكدت الجملة التي قبلها .. »[٣٠] بمعنى آخر صار البيت ذا معنى وصار شعراً بالعلاقات التي اوجدها الشاعر فيه .. ولذلك فان الذي يأتي بكلام مثل (ذر المفاخر .. الخ) « لايكون قد اتى بكلام ثان وعبارة ثانية . بل لا يكون قد قال من عند نفسه شيئاً البتة » .[٣١]

ولتوضيح وجهة نظر الجرجاني نشير الى تحليله للابيات التي كثيراً ما ترد في كتب السرقات بصفتها ابياتاً نموذجية لتعاور الشعراء على المعنى الواحد . وهو ـ كما يرى ـ الجرجاني ـ ليس كذلك .

يقول النابغة :

إذا ما غزا بالجيش حلق فوقهم
عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد ايقن ان قبيله
اذا ما التقى الجمعان اول غالب

ويقول أبو نواس :

تتأيا الطير غدوته
ثقة بالشبع من جزره

فنحن هنا امام معنيين لا معنى واحد ..

احدهما اصل وهو علم الطير بان الممدوح اذا غزا عدواً كان الظفر له لا محالة ..

وثانيهما فرع وهو طمع الطير في ان تتسع عليها المطاعم من لحوم القتلى .

وقد عمد النابغة الى الاصل الذي هو معرفة الطير بحتمية نصر الممدوح فذكره صريحاً ، واستدل على ذلك بالمعنى الفرعي الذي هو طمع الكواسر بلحوم القتلى .[٣٢]

اما ابو نواس فقد عكس القصة على حد قول الجرجاني . فذكر الفرع الذي هو طمع الكواسر ، وجعل دليل ذلك حتمية ظفر الممدوح . ولقد اكتفى الجرجاني بالاشارة الى المعنى عند هذين الشاعرين على طريقة الاسباب والنتائج ، ثم تحول النتائج الى اسباب عند الاخر .. وعلى النحو الاتي :ـ

حتمية الظفر (سبب) ـــــ شبع الكواسر (نتيجة)
شبع الكواسر (سبب) ـــــ حتمية الظفر (نتيجة)

ثم يعقب « افيكون شيء اظفر من هذا في النقل عن صورة الى صورة » .[٣٣] ولم يمض الجرجاني الى ابعد من هذا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ليكشف عن طبيعة العلاقات التي قادت الى مثل هذا التصور عند الشاعرين . ظناً منه ان هذا مما يدرك طبعاً . وهو بالفعل كذلك . اذ لو لم تكن العلاقات مختلفة لما جاءت النتائج على هذه الصورة المختلفة أيضاً . فمثل هذين المعنيين اللذين يبدوان ـ في عرف معظم النقاد ـ متشابهين ليسا اكثر من « الشيئين يجمعهما جنس واحد ثم يفترقان بخواص ومزايا وصفات . كالخاتم والخاتم والشنف والشنف والسوار والسوار وسائر أصناف الحلي التي يجمعها جنس واحد ثم يكون بينهما الاختلاف الشديد في الصنعة والعمل »(٣٤) وهذا يشبه حديثه في الاسرار ـ وقد المعنا اليه ـ عن الغرض الذي هو جنس هنا ، وعمود المعنى وصورته الذي هو الخواص والمزايا التي تميز نصا من آخر .

ـ ٤ ـ

لقد حاول الجرجاني ان ينظر الى السرقات من زاوية النظم والعلاقات . وارتأى ان السرقات ليست مرتبطة باللفظ أو بالمعنى كل على حدة كما فعل السابقون عليه عندما قسموها الى سرقات معان وسرقات الفاظ . وانما هي ذات صلة وثيقة بتاليف الكلام ونسقه وتركيبه وصورته ..

اما ابن طباطبا فقد لاحظ ان المعاني تدخل في سياقات مختلفة متباينة . وهذا يجمل المعنى الواحد في سياق ما غيره في سياق ثان . فحيث عنى الجرجاني بعلاقات الالفاظ .. التفت ابن طباطبا الى سياق المعاني . وقد كان من الممكن ان تقود هاتان الفكرتان الى منهج افضل لدراسة السرقات . غير ان هذا لم يحصل . وبقيت النظرة الى السرقات قائمة على تشابه المعاني وعلى كون اللاحق متاثراً بالسابق ناقلًا عنه .(٣٥) آية ذلك ان كتب السرقات ـ بَلْهَ الفصول الطويلة في كتب النقد والبلاغة وغيرها ـ لم تسع الى تحليل النصوص بحثاً عن المعنى المسروق .. بل نكتفي ـ في أغلب الاحوال ـ بالاشارة الى ان هذا البيت منقول عن هذا .. اما النظر الى موضع البيت المسروق في النص (القصيدة) والغرض الذي سبق من أجله فابعد ما يكون عن تصور هؤلاء النقاد .

ومع ذلك لا يستطيع الباحث الا ان يلاحظ تطوراً ـ لا في المنهج حسب ـ وانما في النظرة الى السرقات . فقد حاول النقاد ان يضيقوا من نطاقها الى حد بعيد حتى حصروها في « البديع المخترع » . ونضيف الى ذلك أن المصطلح الذي نشأ عن (السرقات) لم يكن يحمل دلالات مستهجنة قاسية كانت تحملها مصطلحات (السرقة) و (الاغارة) و (الغصب) و (الاجتلاب) في القرنين الاول والثاني للهجرة . وعلى الرغم من تعدد المصطلح النقدي المتعلق بهذه الظاهرة ، وهو بحد ذاته يكشف عن اهتمام زائد بالموضوع كما يصلح ان يكون وحده موضوع دراسة ، لا نجد فيه غير دلالات تكشف عن نظرة مرنة للسرقات لو استطعنا استنطاقها جيداً . فبعض هذه المصطلحات يفسر أو يحلل وبعضها الاخر يسوغ او يصف الظاهرة بتجرد . وكل هذه الدلالات تحاول أن تستوعب السرقات بصفتها ظاهرة أدبية تدور في اطار توليد المعاني واشتقاقها ، والاشكال التي يمكن ان تتخذها هذه المعاني في سياقاتها المختلفة .

ولقد انتهى التفكير بالسرقات الى نقلها من النقد الى البديع . وهو تطور يستحق الاهتمام . ولابد من وقفة عنده .. لانه أولًا وضع السرقات في اطار لم يتغير بعد ذلك الا ما جاء عند المحدثين من تفسيرات جديدة متأثرة بالتيارات المعاصرة في علم النفس والبحث اللساني . وثانياً لم تعد السرقات (تهمة) تلصق بالشاعر انتقاصاً من شاعريته كما فعل الامدي أو العميدي مثلًا .. ولم تعد من « معايب الشاعر » كما يقول الامدي « داء قديماً » كما عند عبد العزيز الجرجاني . وعلى الرغم من كون البديع علماً لاحقاً بعلمي المعاني والبيان ، الا انه مع ذلك عنصر يضفي على النص جمالًا لفظياً ومعنوياً تبعاً لنوع البديع كما هو معروف . وصار تماثل المعاني يندرج تحت مصطلحات مثل (التضمين) و (الاقتباس) و (التلميح) و (الاشارة) الخ . وثالثاً تحولت النظرة الى السرقات من كونها ذات طابع معياري الى الطابع الوصفي . وهذا وحده كاف لان يبعد السرقة عن ان تكون مقياساً يفاضل بموجبه الشعراء فقد اصبحت ظاهرة توصف في اطار الانواع البديعية الكثيرة .

وليس اوضح بهذا الصدد من رأى العلوي صاحب الطراز الذي سوغ تحول السرقات الى البديع . قال « ان علم البديع أمر عارض لتاليف الالفاظ وصوغها وتنزيلها على هيئة تعجب الناظر وتشوق القلب والخاطر . وهذا موجود في السرقات الشعرية » .(٣٦) ثم يضيف « فان الشاعرين المفلقين ياخذ كل واحد منهما معنى صاحبه ويصوغه على خلاف تلك الصياغة ويقلبه على قالب آخر . فاما زاد عليه واما نقص منه . وكل ذلك انما هو خوض في تاليف الكلام ونظمه »(٣٧) والمهم في هذين النصين ان السرقات اصبحت مسالة ترتبط بنظم الكلام وصياغته على هيئة تعجب الناظر ، وانها من سمات الشاعر المفلق .. على أن مسالة الصياغة وتاليف الكلام ليست مما يرتبط دوماً بالبديع . وقد يبدو ان العلوي كان متأثراً بالاتجاه اللفظي الذي ساد البلاغة العربية في العصور المتأخرة فربط كل ما له صلة باللفظ بعلم البديع . ولما كانت السرقات الشعرية في رأيه تصرفاً بالالفاظ فقد حق ان تكون جزءاً من البديع .

ـ ٥ ـ

يميز النقد الحديث السرقات الادبية المحضة ويسميها Plagiarism وبين التاثر والاستحياء والمحاكاة واستعارة الهياكل وقد اشار الدكتور محمد مندور الى هذا وخلص الى

القول ان من الصعب تطبيق مناهج النقد الحديث على السرقات في الادب العربي . لان هذا ادب معان جزئية من ناحية ، ولان الحديث عن (استعارة الهياكل) لا يكون الا في الاعمال الادبية التي تتوافر فيها الوحدة من ناحية اخرى « ونحن لا نجد في الشعر العربي شيئاً كهذا » .(٣٨)

والامر عنده لا يختلف في الاستيحاء والتاثر « فالاستيحاء امر ليس من السهل ان ندركه في أدب كالادب العربي قلما يحدثنا احد من رجاله عن مصدر فكرة نرد فيه أو تعبير . نحن نعتمد اليوم في دراستنا لمسالة كهذه على اعترافات الشعراء والكتاب انفسهم . اللهم الا ان يكون الاستيحاء واضحاً قريب الادراك . واما التاثر فانه وان يكن نقاد العرب قد فطنوا الى شيء من هذا عندما حدثونا عن الرواية وبخاصة عندما تكون من شاعر لشاعر ـ فان هذه الملاحظات ظلت موجزة » .(٣٩)

ليس من شك في أن التمييز بين النحل (السرقة المحضة) والتاثير مقبول ومنطقي . وقد التفت القدماء الى شيء من هذا عندما فصلوا قضية (نحل الشعر) عن (السرقات) كما مر بنا . ان الادب العربي شانه شان الاداب العالمية الاخرى ، يخضع لعوامل التاثير والاستيحاء ـ ولعل المسالة اشد وضوحاً في ادبنا بحكم التزام القصيدة العربية بالموروث المتمثل بعمود الشعر ، واعتماد الشاعر على الرواية . كما يمكن القول ان استعارة الهياكل موجودة في القصيدة العربية ، أو في بعض اقسامها ، ولاسيما المقدمات الطللية والغزلية ووصف الرحلة . ان اشارة ابن قتيبة الى ضرورة وجود المقدمات في القصائد الحديثة لا يمكن ان يفسر الا في ضوء استعارة الهياكل التي يشير اليها د . مندور ، أو في ضوء نظرية (النماذج العليا) التي يشير اليها علم النفس الجمعي . ولا اظننا بحاجة الى اعترافات الشعراء للتدليل على مسائل التاثر والاستيحاء . وما يقوله د . مندور يصح على آداب الامم الاخرى مثلما يصح على الادب العربي .. اذ لم يترك ـ حسبما نعلم ـ ادباء الامم الاخرى وشعراؤها اعترافات تكشف عن تاثرهم بمن سبقهم ـ والا ما مهمة الناقد ومؤرخ الادب ؟ وهل يحتاج الناقد العربي القديم الى دليل يبرهن على تاثر ابي تمام مثلًا بالشعر العربي ، على الرغم من خروجه عن عمود الشعر كما يقولون ؟ الم يعتمد الآمدي على كثرة مختارات ابي تمام ليدلل على عنايته بالشعر ، وانه اشتغل به وجعله وكده ، وانه ما فاته كثير من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدث الا قرأه وطالع فيه . ولهذا اقول ـ ان الذي خفي من سرقاته اكثر مما ظهر منها على كثرتها »(٤٠) فندلل على سرقات ابي تمام ـ او قل تاثره ـ بكثرة محفوظة للقديم .

لقد حاول الدرس النقدي المعاصر ان يفسر الابداع الادبي لا على اساس (نظرية التعبير) الرومانسية أو (نظرية المحاكاة) الكلاسيكية ، وانما على اساس ما تسميه (نظرية الكتابة) فعند هؤلاء ما النص الا مجموعة اقتباسات من نصوص سابقة عليه . ومن السذاجة ان نختزل النص الادبي في ضوء العلاقة البسيطة بين الشكل والمعنى . فهو اضافة الى ذلك ، ذو ابعاد تاريخية . لان النص « اعادة » كتابة لنصوص سابقة . ولذلك لا يمكن ان نقرأ النص بمعزل عن الحوار الذي يقيمه مع ما سبقه من نصوص . وهذا الترابط بين النصوص مبدأ حقيقي وشامل « تتحول النصوص على اساسه فتقلد بعضها بعضاً ، ويردد بعضها بعضاً ، ويبعد بعضها عن بعض ، ويكون صدى بعضها البعض الاخر » .(٤١) ولذلك « فكل نص يمكن ان يكون دائماً قراءة لنص آخر . وهكذا حتى نهاية النصوص » .(٤٢) ويشبه هذا قول أحد اقطاب هذا المنهج « ان كل نص هو قطعة فسيفسائية من الاقتباسات ـ وكل نص هو امتصاص لنصوص اخرى وتحويل لها »(٤٣) وبناء على هذا لا ينبغي ان يقرأ النص الا في ضوء علاقته بالنصوص الاخرى » .(٤٤)

وقد اصطلح المنهج النقدي المعاصر على تسمية هذه الظاهرة باسم (التناص) او (تداخل النصوص) ـ وهي انواع منها :ـ

١ ـ علاقات التناص التي تفترض وجود نص في نص آخر ، او تولد شعوراً لدى القارىء بالعلاقات التي تربط النص الذي يقرؤه بنصوص اخرى . وعلاقات التناص هذه هي وحدها التي تنتج الدلالة في حين ان القراءة الخطية (النصية الصرفة) لا تنتج الا المعنى .

٢ ـ وهناك علاقات تربط نصاً بآخر يتحدث عنه من غير ان توجد بالضرورة نقول او اقتباسات .

٣ ـ وهناك « النصية الشاملة » التي تربط نصاً باخر يسبقه ويكون بالنسبة اليه النموذج والمنبع والاطار والمرجع(٤٥) ويشبه ان يكون هذا ما سبق ان اشرنا اليه بشأن استعارة الهياكل أو اعتماد النموذج القديم في بناء القصيدة .

ليس من شك في ان (التناص) او (تداخل النصوص) نظرية واسعة الجنبات ، متعددة الاطراف . فهي تضع النص في محيط ثقافي واسع قد يشمل ثقافات متعددة قديمة وحديثة . وما يعنينا من انماط (التناص) ـ المعارضات والنقائض في الشعر ـ وهو تناص يدور في اطار النص الكامل وليس في جزئياته كما هو الحال في الاقتباس والتضمين والتمثيل والتكرار والتلميح والاشارة وغيرها مما يندرج في نقدنا القديم في باب السرقات ـ وعده المتاخرون انماطاً من البديع . ومن اللافت للنظر ان القدماء لم يعدوا النقائض والمعارضات سرقة . مع ان الشاعر المتاخر ينظم قصيدته على نمط القصيدة التي ينقضها أو يعارضها . بل انه في بعض الاحيان يتبنى افكارها ويضعها في سياق جديد ولا سيما قصائد المعارضات ، مثلما يلتزم شاعر النقيضة بالبناء العروضي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للنص السابق . ولعل السبب في ان هذين النوعين من (التناص) ليسا من السرقات الشعرية .. ان نظرية السرقات في النقد العربي لم تخرج عن اطار المعاني الجزئية . ولذلك اقتصرت فكرة السرقات على هذا النوع من المعاني .. ولم تنظر الى النقيضة من هذه الزاوية.

لقد قلصت فكرة « الموروث » وتاثيره في الشعر عند القدماء مساحة السرقات الى أدنى حد ممكن فقصرته ـ كما المعنا ـ على البديع المخترع وادرجت الانماط الاخرى من تماثل المعاني في أطار البديع . اما المناهج النقدية المعاصرة فقد رأت ان « الموروث » يعيش في النص ، ولذلك فان (تداخل النصوص) ظاهرة طبيعية ، وليست السرقات بالمعنى الذي وجدناه في تاريخنا النقدي غير مظهر من مظاهر هذا التداخل . لقد اعادت نظرية (التناص) الاعتبار لظاهرة أدبية بقيت في نقدنا العربي ينظر اليها بشيء من الاستهجان ، على الرغم من محاولات المتاخرين التخفيف من حدة هذه النظرة .

ولا نعدم ان نرى في تراثنا النقدي مايعد ريادة حقيقية لنظرية تداخل النصوص ، وتوليد المعاني بعضها لبعض . يقول ابن رشيق في (قراضة الذهب) « وقد علمنا ان الكلام من الكلام مأخوذ ، وبه متعلق ، والحذق في الاخذ على ضروب »[٤٦].

الهوامش

(١) العمدة (القاهرة ١٩٣٤) ٢ / ٢٦٥ .
(٢) دلائل الاعجاز (ط.محمود محمد شاكر) ٣٧٤ .
(٣) عيار الشعر (القاهرة ١٩٥٦) ٨ ـ ٩ .
(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ١ /٧٥ .
(٥) الوساطة (القاهرة ١٩٦٦) ٢١٤ .
(٦) الموازنة (القاهرة ١٩٦١) .
* كما عند شوقي على سبيل المثال
(٧) انظر على سبيل المثال ٦١ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ .
(٨) عيار الشعر ٧٧ ـ ٧٨ . وانظر الوساطة ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٤
(٩) سرقات ابي نواس ٦٧ .
(١٠) د . أحمد احمد بدوي ، عبد القاهر الجرجاني (سلسلة اعلام العرب ٨) ٢٥٦ .
(١١) دلائل الاعجاز ٣٦ .
(١٢) المصدر السابق ٢٦٠ .
(١٣) اسرار البلاغة (ط.رتر) ٢٥٩ . ٢٩٦ .
(١٤) المصدر السابق ٢٦٦ .
(١٥) المصدر السابق ٢٧٠ .
(١٦) المصدر السابق ٣١٣ .
(١٧) المصدر السابق ٢٦١ .
(١٨) المصدر السابق ٣١٤ .
(١٩) المصدر السابق ٣١٥ .
(٢٠) المصدر السابق ٣١٧ .
(٢١) المصدر السابق ٢٦٦ .
(٢٢) المصدر السابق ١٧٢ .
(٢٣) دلائل الاعجاز ٤٨١ ـ ٤٨٢ .
(٢٤) المصدر السابق ٤٨٢ .
(٢٥) المصدر السابق ٤٨٣ .
(٢٦) المصدر السابق ٤٨٤ .
(٢٧) دلائل الاعجاز ٥٠٣ ، ٥٠٩ .
(٢٨) دلائل الاعجاز ٥٠٩ .
(٢٩) المصدر السابق ٤٨٦ ـ ٤٨٧ .
(٣٠) المصدر السابق ٤٨٧ ـ ٤٨٨ .
(٣١) المصدر السابق ٤٨٨ .
(٣٢) المصدر السابق ٥٠٢ .
(٣٣) المصدر السابق ٥٠٣ .
(٣٤) المصدر السابق ٥٠٧ .
(٣٥) لاحظ ابن الاثير ان ابن الدهان في رسالته (المآخذ الكندية من المعاني الطائية) يشير الى معنى المتنبي ويقول عنه إنه مأخوذ من الطائي تمام ، فاذا تصفحنا ذلك لم نجد اخذاً ولا تشابها او مماثلة بين المعنيين .. (انظر الاستدراك ، تحقيق حنفي محمد شرف ، ص ٢) . وهذا اسوأ ما يمكن ان يصل اليه التصوير النقدي للسرقات ... اختلاف التشابه !
(٣٦) الطراز ٣ /١٨٩ .
(٣٧) المصدر السابق ٣ /١٨٩ ـ ١٩٠ .
(٣٨) النقد المنهجي عند العرب (القاهرة بلا تاريخ) ٣٥٧ .
(٣٩) المصدر السابق ٣٥٨ .
(٤٠) الموازنة ١ /٥٥ ـ ٥٦ .
(٤١) اطراس ، او كيف يختبيء النص الادبي نصوصاً اخرى (مجلة العرب والفكر العالمي) العدد الثاني ١٢٩ .
(٤٢) المصدر السابق .
(٤٣) J. Culler, Structuralist Poetics, 139.
(٤٤) المصدر السابق .
(٤٥) مجلة (العرب والفكر العالمي) العدد ٢ ، ص ١٢٨ .
(٤٦) (القاهرة ١٩٢٦) ٢٦ .

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

دراسة

على هامش قضية الانتحال

د. محسن غياض عجيل

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

كانت نزعة التحدي وحب القوة والغلبة، ابرز صفات استاذنا العظيم الدكتور طه حسين طيب الله ثراه وغفر له، وكان يحب ان يثير حول نفسه ضجيجاً وعجيجاً، ويدفع الناس دفعاً الى الخلاف والخصومة والمناقشة، وما يقتضيه ذلك، من القراءة والبحث والتفكير، وقد عمد في سبيل ذلك الى هز كثير من المسلمات والتشكيك في كثير مما عنه الناس من البديهيات، ومن اجل ذلك كان كتابه الرائد في الادب الجاهلي وما دار حوله من حركة علمية مباركة وما نتج عنه من نشاط علمي خصب، تمثل في تلك الكثرة من الكتب والمقالات التي نشرت في الرد عليه خاصة، وقُل مثل ذلك عن بعض فصول حديث الاربعاء وكتابه عن ابي الطيب المتنبي.

واذا تركنا جانباً مغالاة الدكتور طه وتطرفه في مسألة انتحال الشعر الجاهلي، والصورة المضخمة المهولة القاتمة التي رسمها لذلك، وفضلنا ان نبقى ضمن الحدود المعقولة التي حدد بها القدماء هذه المسألة، وابرزهم في هذا ابن سلام الجمحي. خلصنا من هذا الى ان الانتحال في شعرنا القديم مسألة واقعة مقررة لم تعد تحتمل جدلًا ولا مناقشة ولا مراء، وان محاولة تطبيق ذلك على الادب العباسي وتلمس دواعي الانتحال فيه، محاولة مشروعة تماماً ومرغوب فيها، ومن هنا كانت محاولة استاذنا الجليل الدكتور علي الزبيدي، وكتابه القيم (في الادب العباسي) الذي حاول ان يكشف فيه مظاهر الانتحال والعبث في ذلك ألادب، ويقرر ان دوافع الانتحال في الشعر الجاهلي التي ذكرها طه حسين بقيت هي هي في العصر العباسي، عاملة فعالة مؤثرة.

واذا كان ابن سلام لم يشر الى النحل في الشعر العباسي ولم يلتفت اليه، فلأنه لم يدرسه ولم يؤلف فيه، وانما كانت دراسته تلك القيمة مقدمة لما درسه من شعر الفحول الجاهليين والاسلاميين، ولا بأس على من يريد دراسة الادب العباسي ان يطبق منهج ابن سلام وطه حسين ويحذو حذوهما.

وقد نبه استاذنا في الفصل الاول من كتابه الى ما يحتور الدراسات العباسية من نقص وخلل علمي نتيجة لقلة ما وصل الينا من مصادر الادب العباسي، وكثرة المفقود منها، ودلل على ذلك بقائمة طويلة باسماء الكتب المؤلفة في الشعر والشعراء واخبارهم والمختار من آثارهم (وفي الجدول الذي نثبته ادناه نموذج من اعمال المؤلفين في ادب المحدثين)[1] وصحيح ما قاله من ان كثيراً مما ذكر في ذلك الجدول من الضائع المفقود، ولكن الصحيح ايضاً، اننا نفتقر الى ما يؤيد ان كل تلك المؤلفات كانت في أدب المحدثين خاصة، وان حساب خسارتها على الادب العباسي دون سواه، اذ وردت اسماء عشرات من الكتب مطلقة لا تحمل تحديداً لعصر بعينه، مثل الاشارة في اخبار الشعراء، واسماء فحول الشعراء، وصناعة الشعر، والشعراء المذكورين، وطبقات الشعراء وألقاب الشعراء والشعر والشعراء واشعار النساء، والديباج في اخبار الشعراء ومناقضات الشعراء، وكتاب المتيمين، وعيون الاخبار والاشعار، واخبار الشعراء، والمنير والموفق في اخبارهم، وكتاب المراثي، والشعراء وانسابهم، والشعراء وطبقاتهم،[2] ولعل معظم هذه الكتب كانت عن شعراء الجاهلية والاسلام. فيكون ما فقد من مصادرهما بقدر ما فقد من مصادر الادب العباسي.

اما الكتب التي تدل عنواناتها على انها مؤلفة في الادب العباسي خاصة، كأن تذكر كلمة (المحدثين) صفة للشعراء في عنوان الكتاب، او يذكر اسم الشاعر العباسي الذي جُعل الكتاب مقصوراً على اخباره او المختار من شعره. فلا شك ان فقدها خسارة للادب العباسي، ومدعاة للنقص في دراساته، اسوة بدراسات العصور السابقة له، ولعل مما يخفف هذه الخسارة شيئاً ويلطف شعور المرارة بها، ان بعضاً مما عده استاذنا مفقوداً عند نشر الكتاب في سنة ١٩٥٩ م.

اصبح اليوم منشوراً متداولًا في ايدي الباحثين، مثل عيار الشعر لابن طباطبا وكتاب الاوراق للصولي واخبار ابي تمام له، وحماسة الخالديين، واخبار ابي نواس لابي هفان وابن منظور، واخبار السيد الحميري للمرزباني، هذا، اضافة الى ما نشره المحققون من دواوين الشعر العباسي، عن مخطوطاتها الاصيلة، او جمعوه من المصادر لهذا الشاعر او ذاك، تعويضاً عن دواوينهم المخطوطة، ومن يطلع على القوائم الاحصائية التي اعدها استاذنا الجليل الدكتور علي جواد الطاهر[3]، وزميلنا الكريم الدكتور حاتم الضامن[4]، لما نشره العراقيون من التراث الادبي خاصة، سيسره ذلك دون ريب، وسيعلم ان كثيراً مما ظنه الناس مفقوداً في السنوات السابقة ـ يوم كانت كثير من مخطوطاتنا غير معروفة وغير مفهرسة، ويوم كان نشر التراث وتحقيقه مقصوراً على مصر وحدها على الاغلب ـ اقول: سيعلم ان كثيراً مما ظنه مفقوداً، ربما كان في الطريق الينا، بعد ان شملت الفهرسة معظم مراكز المخطوطات وبعد ان اصبحت مراكز تحقيق التراث ونشره مبثوثة من مشرق الارض العربية الى مغربها، تؤازرها جهود العاملين في هذا الحقل من علماء

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

العربية من المسلمين والمستشرقين . ومع اننا كنا نتمنى ان يصل الينا تراثنا الادبي كاملاً غير منقوص ، وكان ذلك سيسعدنا ويبهجنا من غير ريب ، الا اننا نجد ان من المفيد للباحثين الا تذهب انفسهم حسرات على كثير من هذا المفقود ، ولا يثبطهم ذلك ولا يفل عزائمهم . ذلك ان عشرات من الكتب الصغيرة في اخبار الشعراء واشعارهم قد ابتلعتها المصادر الكبيرة وبثت مادتها نقولاً متفرقة في اجزائها الكثيرة ، فحفظتها كلها اومعظمها ، مثل كتب الاغاني والحيوان والامالي ومعجم الادباء والعقد الفريد وعيون الاخبار ونهاية الارب وخزانة الادب ومعاهد التنصيص وغيرها . وينبغي الا نظن ان ذلك المفقود كله كان من عيون التراث ونفائسه ، مما يوجب الاسى على فقده ، والحزن لخسارته ، بل لعله لم يفقد الا لهوانه وقلة شانه وقيمته ، وانه في معظمه من هذه الكراريس المتشابهة الاسماء والمحتوى ، والتي ينقل بعضها عن بعض نقلاً حرفياً لا غناء فيه ، ولا فائدة لاحد من نسخه وتداوله ، ولو كان ذا قيمة لحرص الناس على اقتنائه ولكثرت نسخه وسارت في البلاد ، فإذا فقد في بغداد ، وجدناه في مصر وخراسان والبصرة وبخارى ، وليس عبثاً ان يصل الاغاني باجزائه التي تنوف على العشرين ، كاملاً لا شية فيه ، ويُفقد ما هو دونه حجماً ، وقل مثل ذلك عن سلامة الحيوان والبيان والتبيين وامالي القالي وعيون ابن قتيبة ، وما ذلك الا لإعجاب الناس بها وكثرة نسخها وانتشارها وسيرورتها في البلاد الاسلامية ، وهذا يعني ان هذه الامة المباركة اخضعت تراثها العلمي لغربلة نقدية تاريخية طويلة ، فحفظت منه ما رأته جديراً بالخلود ، واعرضت عما دون ذلك واهملته . وليست الامة ملزمة بأن تحفظ على صدرها جيلاً بعد جيل ، كل ذلك الهذيان المعاد لعشرات من صغار الشعراء والمتشاعرين ولعشرات من المتعالمين الذين كان التأليف عندهم مجموعة من نقول حرفية ياخذ بعضها برقاب بعض ، كمثل هذا الكثير الذي نجده في عصرنا الحاضر ، والذي لا اشك انهم وجدوا اضعافه في العصور الماضية .

وتحدث استاذنا الجليل في الفصل الثاني عن الوراقين وتجار الكتب(٥) ، وتساءل عن عدم تشكك الباحثين في اخبار الشعراء العباسيين كما شككوا في اخبار الشعراء السابقين لهم ، مع ان الذين عبثوا في اخبار السابقين واشعارهم ، هم انفسهم رواة السوء وتجار الكتب وجهلة الوراقين الذين نقلوا اشعار العباسيين واخبارهم . ولا شك ان الرواية الشفوية الطويلة المهد لاشعار السابقين ، ومعاصرة الشعر العباسي لحركة التدوين والكتابة ، وان كثيراً من دواوينه جُمعت في حياة اصحابها وقُرئت عليهم ، كل ذلك جعل الباحثين اكثر اطمئناناً للشعر العباسي واكثر ثقة بسلامته من الشعر السابق له ، ولا شك ان الدواوين العباسية الموثقة لكبار الشعراء كأبي نواس وابي تمام والبحتري وابن المعتز وابن الرومي والشريفين والمتنبي والمعري ، هي اكثر بكثير من مثيلاتها من دواوين الجاهليين والامويين . كما ان ضياع قسم من اشعار المكثرين كبشار والسيد وابي العتاهية ، انما كان على سبيل الغربلة الطبيعية ، وانتقاء الاحسن من شعر كل شاعر ، واهمال ما دون ذلك والاعراض عنه ، والا فمن ذا الذي يحفظ اثنتي عشرة الف قصيدة لبشار(٦) وحده .

ولا شك ان العلماء المحققين قد بذلوا جهوداً كبيرة في محاكمة الشعر الجاهلي وتوثيقه وغربلته وتمييز زائفه من صحيحه ، لا لكون قيمته الفنية ، ولكن لكونه مصدراً لشواهد الفصاحة اللغوية وقواعد النحو واللغة والتفسير وغيرها من العلوم العربية والاسلامية التي لا تصح قواعدها من غير شاهد من شعر فصيح لا يرقى الشك اليه . ولانهم لم يحتاجوا الى الشعر العباسي في شيء من هذا كله ، فإنهم لم يكترثوا كثيراً لما وقع فيه من عبث بعض الجهلة من الرواة والوراقين .

واذا كان بعض الرواة قد تزيدوا في الشعر الجاهلي ليظهروا للناس سعة علمهم به ، بعد ان اكسبه القدم قدسية وزانت الدراسات الادبية واللغوية من قيمته والتهافت عليه ، وبعد عهد الناس به ، مما اصبح العلم به وروايته دليلاً على سعة علم العالم ورسوخ قدمه .

فإن مثل هذه المغريات وهذه الهالة العلمية لا تتوافر لرواة الشعر العباسي ، لمعاصرتهم له ولكثرته بين ايدي الناس وانتشاره بينهم ، واذا كان الناس يبذلون مالاً للحصول على قصيدة نادرة لطرفة او للنابغة ، فلا شك انهم لم يفعلوا ذلك من اجل قصيدة لاحد معاصريهم من الشعراء العباسيين .

اما التخبط في نسبة الشعر الى اصحابه وما يقع فيه من تصحيف وتحريف على ايدي صبيان الوراقين وجهلتهم ، فأمر لا يختص بالادب العباسي وحده ، وانما وقع في ادب العصور على اختلافها ، وهو يكثر في النسخ المفردة من الاثر الادبي ، اما الذي قُرِيء على اصحابه وعورضت نسخه وكثر رواته ، فإن وقوع ذلك فيه ، من القليل النادر .

وفي اهل كل صناعة الجيد والرديء ، واذا كنا نعاني من عبث جهلة الوراقين في اضطراب النسبة والتصحيف والتحريف ، فإننا مدينون من غير شك ، بمئات من مصادر تراثنا الموثقة السليمة ، الى عشرات من الوراقين الامناء العلماء ، الذين صانوا تراثنا ونقلوه سليماً من العبث والتحريف . والا فمن الذي نقل الينا المجلدات الضخمة في التفسير والحديث والتاريخ والادب ، غير اولئك الوراقين الثقاة واذا اضطربت نسبة بعض الكتب الى اصحابها ، فإن عشرات غيرها صحيحة النسبة .

وصحيح ان العصبية المذهبية الدينية(٧) مفسدة للخلق القويم وان صاحبها قد يغفل رواية شعر المخالفين له مذهبياً ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكن الصحيح ايضاً ان اهل كل مذهب كانوا حراصاً على رواية شعرهم واشاعته ، وبذلك وصلتنا اشعار كل الشعراء من اصحاب المذاهب والآراء المختلفة .

فحفظ كل قيم شعره ولم يضره اعراض خصومه عنه .

وكذلك نقول في الخصومة الفنية ، واذا كان المحافظون يضيقون بالجديد وينكرون روايته ، فإن انصاره رووا منه الكثير الاوفى ونقلوه الينا مدوناً . وكذلك فعل المحافظون في روايتهم للشعر الذي يفضلون ولم يمنعهم من ذلك خصومة انصار الجديد ، وضيقهم به . وانا اعتقد ان عمر العصبية الدينية المذهبية ، لا يقتصر على العصر العباسي وحده ، وانما يشمل ايضاً شعراء صدر الاسلام وبني امية . وكذلك هو حال العصبية السياسية ، اما العصبية الفنية ، فقد اقتصرت الخصومة فيها على الشعراء العباسيين ، بعد ان عُد شعراء العصور السابقة من حصة المحافظين ، وصار القياس على شعرهم ، تقليداً او مخالفة ، هو الفيصل في تصنيف الشعراء الى محافظين ومجددين . واذا كان الشعراء والنقاد لا يحملون ضغينة او حسداً ، لاولئك الاموات من الشعراء السابقين ، فإن عوامل الحسد والمنافسة بين المتعاصرين من اصحاب الصناعة الواحدة ، قد تؤدي الى تعصب شديد يمنع صاحبه من النظر بعين العدل الى نتاج معاصريه . فيحاول الغض من قيمته والتقليل من شأنه ، واحسب ان هذه الآفة لا تقتصر على عصر بعينه ، وانما تشمل العصور كلها ، وهي من طبيعة النفس البشرية . ومع ان في كل عصر قديماً وجديداً ، وخصومة قائمة بينهما ، الا انها كانت اكثر ظهوراً في العصر العباسي ، واشد وضوحاً من العصور السابقة له ، ونحن مدينون من غير شك لهذه الخصومة الفنية ، بكثير من تلك الموازنات الادبية الممتعة والرصينة ، التي دارت حول كبار شعراء العصر العباسي .

ويبقى الفصل الرابع عن القصص الغرامي وغيره من القصص[٨] ، من اجمل فصول هذا الكتاب ، واكثرها عمقاً ومتعة ، مع اعتقادنا ان القصص التي نسجت عن الجاهليين والاسلاميين اكثر بكثير من القصص التي نسجت حول شخصيات عباسية ، وهي بشكل عام اقل الانواع ضرراً في مسألة الانتحال ، لانها عمل فني بحت مبني بطبيعته على الخيال والكذب والتهويل ، واختلاط الحقيقة بالاسطورة ، وهو يقدم مادة للسمر والمتعة ، ولا يقدم الحقائق العلمية التي ينشدها الباحث . كما ان الباحث نفسه ، وهو يعلم طبيعة هذا الفن واهدافه ، سيكون حذراً من التغرير به ، ولا يقع بسهولة في مصيدة الانتحال ، لمعرفته المسبقة به ، وتوقعه له .

وقبل ان نختتم حديثنا عن هذا الكتاب الرائد المتميز في الدراسات الادبية العباسية ، هل لي ان اقول : انني مدين بهذه الملاحظات لاستاذنا الدكتور علي الزبيدي وهو بعض ما تعلمته منه ، وقد فتح لي كتابه القيم آفاقاً من التأمل والمعرفة ، ودلني على كثير مما يستحق التمحيص والمناقشة والنظر العقلي . وصولاً الى ما يُطمأن اليه من نتائج علمية ، وقد ذكر الجاحظ رحمه الله ، استاذه النظام بقوله (فإني اقول : انه قد انهج لهم (للمعتزلة) سُبلاً ، وفتق لهم اموراً ، واختصر لهم ابواباً ، ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بهم النعمة)[٩] وانا اقول في استاذنا الزبيدي ، مثل هذا وزيادة ، والله الموفق ، وله الحمد والفضل والمنة جميعاً .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحواشي

١) في الادب العباسي ، الدكتور علي الزبيدي ٢٢
٢) نفسه ٢٢ – ٢٣
٣) نشر الشعر وتحقيقه في العراق ، الدكتور علي جواد الطاهر ، مجلة المورد ، م ٣ ع ٢ ص ٢٢٣ – ٢٣٤ .
٤) اسهام العراقيين المعاصرين في تحقيق التراث ، د . حاتم الضامن
٥) في الادب العباسي ، الدكتور الزبيدي ٤٠ – ٧٤
٦) الاغاني ٣ / ١٤٤
٧) في الادب العباسي ٧٥ ، ١٣٢
٨) نفسه ٩٥ – ١٣١
٩) الحيوان للجاحظ ٤ / ٢٠٦

المصادر

١ – الاغاني – ابو الفرج الاصبهاني – مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية
٢ – اسهام العراقيين المعاصرين في تحقيق التراث ، الدكتور حاتم الضامن ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٩٨٩
٣ – الحيوان – الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، بيروت ١٩٦٩
٤ – في الادب العباسي ، الدكتور علي الزبيدي ، مصر ١٩٥٩
٥ – مجلة المورد ، المجلد الثالث ، العدد الثاني ، بغداد ١٩٧٤ بحث الدكتور علي جواد الطاهر (نشر الشعر وتحقيقه في العراق).

دراسة

ظاهرة تفاضل الازهار في الأدب الاندلسي

د . هدى شوكة بهنام

كلية التربية ــ الجامعة المستنصرية

بدأت هذه الظاهرة في مدة حكم المنصور بن ابي عامر نتيجة كثرة مظاهر الترف وتعدد مشاهد الجمال ، حيث شاعت في الحياة الاندلسية ألوان مادية استرعت انتباه الشعراء وأوحت إليهم بنقلها لوحات من الشعر ، تطورت في الازمان اللاحقة الى رسائل نثرية ايضاً . وقد كانت الطبيعة من أهم ما جذب أنظار الشعراء الوصافين ، حتى لنجد شعر الطبيعة قد اتضحت معالمه واحتل مكاناً واضحاً في الشعر الاندلسي منذ ذلك الحين : فقد وصفت الرياض والانوار والحدائق والازهار ، بل انطقت الازهار فتفاضلت وأجري الثناء على لسانها فمدحت[١] ، ومن أمثلة ذلك ما نرى في أشعار ابي مروان الجزيري وكان عالماً أديبا شاعراً ، كثير الشعر غزير المادة ، معدوداً بين أكابر البلغاء من ذوي البديهة وله في ذلك رسائل واشعار مروية ، وكان كاتب المنصور ثم ولده المظفر ، سجنه المنصور ثم عفا عنه ، توفي سنة ٣٩٤ هـ[٢] .

ويرجح د . احمد هيكل ان وقوف الاندلسيين على شعر الصنوبري المشرقي وتاثرهم به كان واحداً من أسباب نضج شعر الطبيعة الاندلسي وازدهاره في تلك المدة . والصنوبري احمد بن محمد بن الحسن الضبي كنيته ابو بكر نشا بحلب وقضى اكثر حياته فيها وفي ضواحيها دخل دمشق ووصف متنزهاتها وغلبت عليه نسبة الصنوبري ، اكثر شعره يتصل بالرياض ووصفها والانوار والتغني بجمال الطبيعة والعكوف على اللذات ، ووصف الطبيعة هو الجانب الذي يلفت اليه الانظار ويميزه بين شعراء عصره ، وكانت وفاته سنة ٣٣٤ هـ ، له ديوان مشهور لم يصل الينا كله حققه الدكتور احسان عباس ، وجمع محمد راغب الطباخ شعر الازهار لديه وسماه بالروضيات .[٣]

وقد دخل شعر هذا الشاعر المشرقي الى الاندلس في اواخر مدة الخلافة مع محمد بن العباس وهو عالم من اهل حلب ، وكان قد تلقى عنمه بالمشرق ، وروى شعر الصنوبري عنه ، ثم نقله الى الاندلس حين وفد عليها في ايام الحكم المستنصر[٤] .

والجزيري كان واحداً من الشعراء البارزين في وصف الروضيات والنوريات ، وهو ممن نافس الصنوبري في شعره المعروف بهذا اللون .

من ذلك قوله على لسان بهار المُنية العامرية :

خَـنَقُ الجِسـانِ تُغِـرُ لـي وتـغـارُ
وتَضَـلُ فـي صفتي النُّهـى وتحـارُ

طلعتْ على قُضُبي عيونُ كمائمي
مثلُ العيون تحفُّها الاشفارُ

وأخصُّ شيء بي إذا شبَّهتَني
دُرَرٌ تنطَّقَ سلكُها دينارُ

أهدى له قُضُبُ الزمردِ ساقَهُ
وخباه أنفَس عطرِهِ العطارُ

أنا نرجسٌ حقاً بهرتُ عقولَهم
ببديع تركيبي فقيل بهارُ

ويرى د . احمد هيكل ان الجزيري قد تاثر بالصنوبري وان روحه وطيفه وراء اكثر صور الجزيري[٥] . ومن شعر الصنوبري في الازهار قصيدته التالية :

قد أتانا بطيبِهِ آذارُ
وشجتنا بشجوِها الاطيارُ

يخجِلُ الوردُ حين عارضه النر
جسُ من حُسنه وغار البهارُ

فعلتْ ذاك حمرةٌ ، وعلت ذا
حيرةٌ ، واعترى البهارَ اصفرارُ

وغدا الاقحوانُ يضحك عُجباً
عن ثنايا لِثاتهنَّ نُضارُ

نمَّ عنه النَّمامُ فاستمع السُّو
سَنُ لمّا أذيعتِ الاسرارُ

عندها أبرز الشقيقُ خدوداً
صار فيها من لطمِهِ آثارُ

سُكِبَتْ فوقَها دموعٌ من الطلِّ
كما تُسكَب الدموعُ الغزارُ

واكتسى ذا البنفسجُ الغضُّ أثوا
بَ حدادٍ إذ خانه الاصطبارُ

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

وأضرَّ السُّقامُ بالياسمينِ الـ
ـغضّ حتى أذابه الاضرارُ
ثم نادى الخيريّ في سائر الزُّهـ
ـرِ فوافاه جَحْفَلٌ جرّارُ
فاستجاشوا على محاربةِ النر
جسِ بالحُزمِ الذي لا يبارُ
فأتى في جواشنٍ سابغاتٍ
تحتَ سُجْفٍ من العجاج تُثارُ
ثم لما رأيتُ ذا النرجس الغـ
ـضَّ ضعيفاً ما إن لديه انتصارُ
لم أزل أعملُ التلطُّفَ للور
دِ جذاراً ان يُغلَب النُّوارُ
فجمعناهما لدى مجلسٍ تصـ
ـخبُ فيه الاطيار والاوتارُ
لو ترى ذا وذا لَقُلْتَ خدودٌ
تُدمِنُ اللحظ نحوها الابصار
وأدرنا الكؤوس اذ نَغَّمَ الزيـ
ـرُ بشجوٍ وغرَّدَ المزمارُ

• •

حين نتطلع الى القصيدتين لا نجد افكاراً مشتركة بينهما ـ كما لاحظ الدكتور احمد هيكل ـ ، فالجزيري يتحدث عن البهار فقط بانه تنظر اليه الحسان او الازهار الحسان الاخرى ، وتغار من حسنه وتحار ايضاً وانه متفتح كما العيون ذات النظرة الحادة المتفتحة على قضبه الخضراء ، وبياضه الذي يشبه حدقة العين يشبه ايضاً الدرر والزمرد وعطره فائح واسمه بهار لانه يبهر الجميع ، لكن ما قاله الصنوبري الذي تأثر به الجزيري لا نجده في هذه القصيدة ولا في قصيدة اخرى للجزيري بان الورد يخجل حين يعترضه النرجس من جماله الفاتن ، ثم ان النرجس يغار ، فقد اعتلته صفرة الغيرة والورد اعتلته حمرة الخجل ، اما الاقحوان فقد ضحك عجباً ، وزهر النمام ارسل نميمته واستمع السوسن الى ما جرى فأبرز الشقيق خدوده ولطمها فاحمرت من آثار اللطم ، وماء الطلّ يقطر فوق الازهار كانه الدموع الغزار ، وحزن البنفسج فارتدى اثواب الحداد للونه الداكن ، واضرّ السقام بالياسمين فدخل بسرعة لان صفته سرعة الذبول ، وهنا ينقل الصورة الى الجيش بان الخيري نادى في سائر الزهر فجاءه جحفل جرار لمحاربة النرجس ، وينقلنا الى صور حربية للمعارك من اثارة الغبار واستخدام الجواشن السابغات ، ونحن لدينا اجمل شيء في الوجود هو الازهار التي هي مصدر جمال الحياة ، فكل شيء جميل يشبّه بالازهار ، فكيف استساغ الشاعر ان يخلق صورة التنافس والحسد ويشبهها بالمعارك الحربية ؟ حتى انه احتاج الى مجلس للتفاوض وارضاء النفوس فتحول المجلس الى مجلس شراب وغناء صورة غريبة للشاعر المشرقي ، صحيح انه شخّص الازهار وجسّدها واسبغ عليها صفات انسانية في الحب والحسد والخجل والتباهي لكنه بالغ وابعدنا عن الصورة الحقيقية للمشبه . والشاعر المشرقي يتحدث بلسانه عن الازهار ، وهذا ما يختلف عن الجزيري في مقطوعته المشار إليها على وجه الخصوص بانه ينطق الازهار ويجعلها تتفاضل ، لا ان الشاعر يصف تفاضلها ويجعلها تصف نفسها وتشبه كل جزء منها بالجواهر والنفائس ولكن هذه الصفات والخلافات التي خلقها الشاعر المشرقي عن الازهار نجد بعضها لدى ابن الرومي حين باهى بالنرجس وأخجل الورد ولكن الذي ذكره الصنوبري نجده مجسداً لدى ابن برد والحميري حين كتبا رسالة نثرية في تفاضل الازهار ، ولكنهما زادا على الصنوبري بان جعلا الازهار تنطق بنفسها وتتفاضل ويقترب ابن الابار هنا من الصنوبري في رسالته النثرية .

فالذي قال بان الاندلسيين تاثروا بالصنوبري ، ارد وأؤيد رأيهم لكن ليس الجزيري الذي تاثر وانما غيره من الاندلسيين ، وكان الاندلسيون سباقون في انطاق الازهار وجعلها تتفاضل في صفاتها الطبيعية التي أسبغها الله عليها ، وكان الزهرة انسان ناطق يحس ويتالم ويحسد ويغار ويعجب بنفسه وبجماله ، فالشاعر الاندلسي الذي فتن بطبيعة بلاده وفتح عينيه على جمالها يندمج فيها ولا يفرق في شعره حين يفاضل الازهار وينطقها هل الزهرة تنطق ام الفتاة الجميلة .

وليس المهم هنا لمن هي بدايات هذه الظاهرة هل هي للاندلسيين ام للمشارقة كما حاول اثبات ذلك بعض الباحثين حين ردوها لابن الرومي[٦] او لصريع الغواني[٧] ، لكن يهمني وجود هذه الظاهرة في الاندلس وفيها نجد اطلاع الاندلسيين على شعر المشارقة خاصة حين ردوا قصيدة ابن الرومي المعروفة في تفضيل الورد لان شعر ابن الرومي عُرف في الاندلس كما عرفت اشعار غيره من المشارقة الكبار .

لقد تطورت هذه الظاهرة في القرن التالي اي القرن الخامس الهجري ونجدقيام بعض ادباء الاندلس بتخصيص مؤلفات كاملة عن هذه الظاهرة .

من هؤلاء ابو الوليد الحميري المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، حيث ألف كتابا في الازهار سماه (البديع في وصف الربيع) اودع فيه ما لاهل الاندلس خاصة في هذا المعنى من الذين لم تتكرر اوصافهم على الاسماع ، وقسم كتابه الى عدة أبواب في الربيع والانوار ، وجعله في ثلاثة فصول ، الاول : القطع في الربيع التي لم يُسمّ فيها نور . الثاني في القطع التي لم تنفرد

ARCHIVE
Archivebeta.Sakhrit.com

بنوار واحد وانما اشتملت على نورين او انوار ، الثالث في القطع المنفردة كل قطعة منها بنور على حدة الآس : ، الياسمين ، البهار ، البنفسج ، الخيري النمام ، نور اللوز ، الاقحوان ، الشقر ، نور الباقلاء ، الكتان ، الغالية ، الرمان ، الجلنار ، الخيري الاصفر ، النرجس الاصفر ، الورد ، السوسن ، الخُرَم ، النيلوفر .

وفي هذا الكتاب يورد الاشعار الكثيرة التي تجعل الازهار تمدح نفسها وتتفاضل فيما بينها ، وفي الفصل الثاني بُرد رسالة لابي حفص ابن رد[٨] الى ابي الوليد بن جهور[٩] في تفضيل الورد على البهار ورسالة له (اي للمؤلف) في تفضيل البهار على الورد ، ورسالة لابي جعفر بن الابار[١٠] يصف فيها نزهة بين الازهار ، وقصيدة في الرد على ابن الرومي في تفضيله البهار على الورد ، وقصيدة للوزير أبي الاصبغ بن عبد العزيز[١١] في تفضيل الخيري على البنفسج ، يرد عليها ابو بكر بن القوطية[١٢] صاحب الشرطة ويفضل البنفسج على الخيري .

وأول شيء لدينا رسالة ابن برد في تفضيل الورد ؛ فقد جسّم الازهار وجعلها اشخاصاً تعقد مجلساً تختاره بين احضان الطبيعة الجميلة ويحضر المجلس الورد وعدة نواوير هي النرجس الاصفر والبنفسج والبهار والخيري النمام .

ويقوم في المجلس متحدث يبين فضائل الازهار المجتمعة بشكلها ومحاسنها وعبقها واتجاه الاعين اليها وتداولها بين الاحبة ونيابتها عن لطائف الرسائل ، وهي البشرى وفي وصفها قيل القريض الكثير حتى اعجبت بنفسها ونسيت ان هناك من هو افضل منها ألا انه (الورد) الذي هو أولى بالرياسة ، ويروح فيبين المتحدث فضائل الورد وطيبه ولونه وحسن الاشعار المتغنية به . لذلك اجمعت على تفضيله الازهار المجتمعة وأدلت كل زهرة برأيها بعد أن بينت فضائلها وجعلت للورد مزية عليها ، فلما كان اجتماع الاراء على تفضيل الورد ادلوا بشهاداتهم في كتاب ، وكل واحدة من الازهار كتبت شهادتها وكانها توقّع على تفضيله .[١٣]

ويروح المؤلف فيرد على هذا الاجتماع ومحضره برد ثم بكتاب يفضل فيه البهار على الورد ، بانه نسب إليه ما لا يستحقه (ومن مدح امرءاً بما ليس فيه فقد بالغ في هجائه) فقام بتوجيه كتاب الى الاقحوان والخيري الاصفر لان الازهار السابقة لا يحق لها أن تغير رأيها لذلك اتجه الى الزهرتين تلك وبيّن ان الورد لا يستحق إمامة الازهار ، ويطلب تقديم البهار فوصل كتابه الى النورين ، وكان عندهما الازهار التي فضلت الورد فقامتا بتانيبهما على تفضيلهما الورد ، وردّت الازهار بانها سقطة وغلطة (وقد قيل اللبيب من عُدّت سقطاته ، والاريب من حُصّلت هفواته) .. (ورحم الله القائل وقد يكون مع المستعجل الزلل) فسُرَّ الخيري والاقحوان بما بدا منها الإقرار بذنوبها ، وجاوب الاقحوان والخيري الاصفر نواوير الربيع الازهر بما نفذ من حسن القدر ، ويورد المؤلف نسخة كتابهما الى البهار ، وان النواوير الربيعية مقتنعة بتفضيل البهار وتطلب منه إباحة هذا التفضيل فأباح لها وكتبت الازهار بين يديه هذا التفضيل ، ويورد شهادات أخرى من الازهار التي فضلت الورد فيها اعتذار عن تفضيله وشهادة بتفضيل البهار . وهذه الشهادات يكتبها نثراً ثم شعراً ، ثم تاتي شهادتا الاقحوان والخيري الاصفر بالطريقة نفسها ، وهذه الرسالة يقدمها للمعتضد فقد كان احد ندمائه وجلسائه في نزهاته ، فاهدى إليه هذا اللون من الفن واستخدم فيه المثل .[١٤]

ويكتب أديب آخر هو ابو جعفر بن الابار رسالة نثرية يصف فيها نزهة بين الأزهار ويصل وصفه بمدح الحاجب ، وفي الرسالة يبين صفات الازهار زهرة زهرة ، إن سبب ذكري لهذه الرسالة هو لبيان الفرق بين اساليب الكتاب الثلاثة سينما يقومون بتخيل الازهار وهي تتفاضل وتتناظر فيما بينها او ان يصفها الكاتب لذاتها كما فعل ابن الابار ، لان صفات الازهار واحدة في الطبيعة وهناك شبه اتفاق بين الادباء حول ما تشبه به ، وتبقى معالجة الاديب الفنية لاساليب الكلام ونجاحه في ذلك او اخفاقه ، وساورد هنا نموذجاً من رسالة كل كاتب وأبين بعض الملاحظات حول اساليب الادباء الثلاثة المختلفة في المبنى المتقاربة في المعنى .

فمن رسالة ابي حفص بن برد : نسخة الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تحالفت عليه اصناف الشجر وضروب الزَهر وشجيُها وشَتَويُها وربيعيُها وقيظيُها حيث ما نَجمَتْ من تلْعةٍ او ربوةٍ وتفتحَت من قرارة او حديقة عندما راجَعت من بصائرها وألهمت من رَشادها واعترفت بما سلف من هفواتها وأعطت للورد قيادَها ومَلّكته أمرها وأخلَصت له مَحبتَها وعرفنا أنه أميرُها المقدّم بخصاله فيها والمؤمّر بسوابقه عليها واعتقَدت له السمعَ والطاعة والتزمت له الرِق والعُبودية وبرئت من كل نور نازعتهُ نفسُه المباهاة له والانتزاء عليه في كل وطن ومع كل زمن فائة زهرة قص عليها لسانُ الايام هذا الحلف فلتعرِف أن رشاذها فيها وقوام أمرِها به ولتحمد الله كثيراً على ما هداها إليه واستنقذها من الضَلالِ بتبصرتِه ولتشهده على اعتقادها والله شهيد على الجميع .

شهادة النرجس :

شهد النرجس والله يرى
صحة النيات منها والمرض
أنّ للورد عليه بيعةً
أكّدت عقداً فما ان تنتقض »[15]

إن ابن برد في رسالته هذه يجعل لها مقدمة يتحدث فيها عن فكرة عقد مجلس بين الازهار باسلوب انشائي بليغ يستخدم فيه الطباق والجناس والترادف والتوازن والازدواج والسجع في فقرات قصيرة ، ويختار الفاظاً تنسجم وصفات الازهار الجميلة من الجمال والرقة والاعتدال والعبق والمائية ، والمؤلف كاتب متمكن وشاعر مجيد ، فهو في نثره شاعر ايضاً لجزالة الفاظه وقوة سبك عبارته ووضوح هذه العبارة مع مبالغة في الصفات المعنوية وابتعاد عن التكرار الذي وظفه ليعطي معنى جديدا وفكرة أخرى .

وقد رسم المؤلف صورة لكل زهرة تتحدث مستمدة من صفاتها الحقيقية في الطبيعة ووظفها لكي تعبر عن حالة شعورية خاصة تجاه الزهرة التي تتفاضل معها كان يكون نحول الزهرة المتحدثة وسقمها سبباً في صفرتها ، والزهرة هذه هي النرجس الاصفر التي في حقيقتها زهرة نحيلة لونها اصفر ، وتأتي صور الكاتب البلاغية مبنية على التشبيه والاستعارة والكناية .

والرسالة تتضمن قسماً آخر بما معناه ان الازهار قررت ان تكتب شهادة في كتاب كما يفعل في كل مجلس يعقد ان يحرر له محضر يسجل فيه ما دار في المجلس ، والقرارات التي تصدر عنه . وقد سجلت الازهار شهاداتها بتفضيل الورد عليها ، كل زهرة كتبت شهادتها منفردة ببيتين من الشعر تنجلي عنها قابلية ابي حفص بن برد الكاتب الشاعر ، لكن شعره هنا تقريري خطابي مباشر ذو وزن وقافية ، فهو كلام نثري مصاغ شعراً .

ومن رسالة أبي الوليد الحميري : « .. وكتبت بين يديه هنالك :

بسم الله الرحمن الرحيم ــ هذا كتابُ مبكري الانوار وسابقي الازهار الى من غاب عنها بشخصه ولم يحضرها بنفسه :

أما بعدُ فإنّا نحمدُ إليكمُ الله الذي لا اله إلا هو مستنقذنا من الفعلة القبيحة والدنيّة الصريحة التي نفذ بها كتابُنا إليكم وورد بإكمالها خطابُنا عليكم وتلك غلْطة ظهرت لكم وسقطة لم تغب عنكم ولعمرُ الحقّ الذي إليه ترجعُ وبه في أمْرِنا نقطعُ لقد ظَهر إلينا فسادُ ما خُصِصْنا عليه وقبحُ ما نُدِبنا إليه بعدَ إنفاذِهِ وإكماله والتدبُّر لجميع أحواله ولم نسقُط الا بتعجيل التدبير ولا خيرَ في الرأي الفطير وإذ قد اجتمع الرأيُ من سراتكم ومنا وصدر الاتفاق عن كُبرائكم وعنّا فهي النعمة التي بها تنتظم أميرُنا ويراعى أميرنا وقد بايعنا البهاز الباهرَ جمالهُ الظاهر كماله على ما رضيتم به ورغبتم فيه وقد وضعنا شهادتنا على صدقٍ من نياتنا .

وكان كاتبُ الصحيفة البنفسج فقيل له : ابدأ شهادتكَ

شهادة البنفسج : النثر : والله ما أضعف أمَلي وضاعف عللي وأوهَنَ سوقي منّي وقلّلني في كل سوق الا الدخول في تلك الوحول والبُعدُ عن الخُلقِ الكريم والصراط المستقيم في تاخير هذا المَلِكِ العظيم الذي بتقديمه الآن ارجو انّ دائي قد لان .

والنظم له :

امّا البنفسجُ فهو يشهدُ أنه
متذمّمُ مما جنى متنصّلُ
مُتَبري من بَيْعةِ الوردِ التي
لم يَبْرَ منها داؤهُ المتاصّلُ
متبيّنٌ فضلَ البهارِ وعالِمٌ
ان البهاز هو المليكُ الأفضَل »؟[16]

فالحميري بيّن غرضه في رسالته التي اردفها على رسالة ابن برد بتفضيل البهار على الورد وخاطب بها ذا الوزارتين القاضي ابن عباد وبدأ بالخطاب (يا مولاي) ، وهي ايضاً من النثر الانشائي البليغ المسجع الذي وظف فيه أساليب البديع والبيان لخدمة فكرته ، فاستخدم السجع والازدواج في فقرات قصيرة متساوية ومتوازنة احياناً واحياناً غير متوازنة ، ثم قد تخرجه الفكرة فتطول فقراته ويخرج بها عن شرط تساوي الفقرات .

ورسالته كلها بلغة الازهار ــ كما في رسالة ابن برد ــ تخاطب وتعاتب وتلوم وتخطّيء وتغفر وتحرر الكتب وكانها أنس ينطق ويتكلم ويستخدم اسلوب النقاش والمحاجة والاستدلال بالامثال الكثيرة لاقناع الازهار بخطأ رأيها في تقديم الورد على سائر الازهار والذي يشبه بالخدود ، وافهامها بالرأي الصحيح في تقديم البهار الذي يشبه بالعيون مستشهدة بكلام ابن الرومي :

اين الخدودُ من العيون رياسة
ونفاسة لولا القياسُ الفاسدُ

والحميري يستخدم التكرار في صياغة الفكرة الواحدة بعدة أساليب مع المبالغة في الاوصاف واستخدام الحجج والادلة واليقين ، اضافة الى استخدام الاسلوب البلاغي في تحرير هذه الرسالة من سجع وجناس وطباق وتشبيه وكناية

وتورية وتضمين .

ويورد الحميري كتاباً فيه شهادات نثرية وشعرية لكل زهرة في تقديم البهار على سائر الازهار واعطائه الرئاسة والامامة ، وفيها تعترف كل زهرة بخطئها في تقديم الورد مبينا فضل البهار وانه ملك الازهار كلها .

وشهادة الزهرة النثرية تقع في ثلاثة او اربعة اسطر ثم يردفها بثلاثة ابيات شعرية في المعنى نفسه فيها صفة التقريرية فيورد شهادات للبنفسج والنرجس والخيري النمام والاقحوان والخيري الاصفر .

وقال ابو جعفر بن الابار في رسالته : « ... أراد — ابقاه الله ووقاه — التنزه الى بعض ضياعه في فصل الربيع عندما أشفقَ من انصرامه وضياعه وكنت في جملة من اصطحب لا في صفوةٍ من انتخب . فامكنت من السير غرّته والصبح قد شذخَت غُرّتُه ، وجبين الجو طلق ، وغلائلُ السماء زُرق ، وحاجب الشمس متطلع ، وجيدُ الانس متتلّع ، وريقُ العيش خَضِر ، وبُردُ الارض خَضِر ، قد فُوّفَ من الزهر ، بمثل الانجم الزُهر ، والرياضُ راضيةُ من الحيا متبرجة بعد الحياء أخذت لها المُزنُ بِرزها ، فابدَت يواقيتَها ودُررها ، وخشِيت بالكُتم عُقوقَها ، فاستنفدَت زُمُرُدها وعقيقَها ، إن حيّتك بالشقائقِ فكاللذاتِ الشقائقِ مُغلّفاتِ الغصائب ، مُنشُراتِ الذوائِب ، أو بالنرجسِ والوردِ فكالعُيونِ النّواظرِ ، الى الخُدود النّواظِرِ ، بلْ ذاكَ صبحٌ مشتملٌ على شمس أصيل ، وهذا خجلٌ مستوْل على خدٍّ أسيل ، أو سفَرت عن البَنفْسَج الانيق ، فكلابِس ثوبَ المسك الفتيقِ ، وكانّما كسَتْه لَعَسها الشّفاهُ ، فإذا تنشّمه او توسّمه المحزونُ شفاهُ ، قد شرِقَت بالطّلِّ مُقلُها ، وضُمّنت بالمسك حُلَلُها .»[17]

واسلوب ابي جعفر بن الابار من خلال هذه الرسالة نجد فيه ناحية مختلفة عن الرسالتين السابقتين وهي انه يصف الازهار دونَ ان يجعلها تتفاضل ويستخدم الصفات نفسها التي تفاضلت بها كل زهرة في الرسالتين السابقتين فشقائق النعمان ملتفة ومجتمعة على بعضها كالاخوة ، والنرجس والورد ينظر كالعيون الى الخدود الاسيلة ، وهنا تتداخل صفتا النرجس والورد اللتان على اساسهما كانت كل زهرة مفضلة في كل من الرسالتين ، وان البنفسج لابس ثياب المسك والحزن اي عطره فائح ولونه غامق .

واسلوب ابن الابار ميزته الاولى البلاغة ، فهو يكثر من الاستعارات والتشبيهات والكنايات مع التكرار والسجع لذلك احتاج كلامه الى شرح فاضطر مؤلف البديع كعادته مع القصائد او القطع النثرية،التي فيها كلمات صعبة الفهم اضطر الى شرحها في نهاية القطعة ، وقد كثر هذا الشرح مع شعر ونثر ابن الابار عامة .

وفكرة عقد مجلس بين الازهار المتفاضلة لم تكن جديدة ؛ فقد وجدناها عند الصنوبري في قصيدته التي فاضل بها بين الازهار . وهنا يظهر وهم من قال « انهم لم يكثروا من عقد المجالس للازهار المختلفة ليجروا بينها المناظرات الطريفة كما رأيناها عند الصنوبري »[18] ، فالنماذج التي اوردتها من كتاب البديع تكون اكبر رد على مثل هذا القول .

وفي باب التفاضل هذا لون جديد آخر ورد شعراً وفيه مقارنة بشعر المشارقة ومنهم ابن الرومي في قصيدته التي ذم فيها الورد وفضّل البهار ، وفي هذا التفاضل صفتان : مدح لزهر او نور وذم لآخر ، فلا تنفرد القطعة بنور وانما اشتملت على نورين وتضمنت وصف شيئين .

ولابد لي اولًا من ايراد قصيدة ابن الرومي التي كانت موضع اهتمام الاندلسيين حيث قال فيها :

خجِلَتْ خدودُ الورد مِن تفضيلهِ
خجلًا تورُّدها عليه شاهدُ

لم يخجلِ الوردُ المورَّد لونه
إلّا وناحِلُهُ الفضيلةَ عاندُ

فصلُ القضية ان هذا قائد
زهرَ الرياض وان هذا طارد

شتّان بين اثنين هذا مُوعِدٌ
بتسلُّب الدنيا ، وهذا واعدُ

واذا احتَفَظْتَ بهِ فامتَعُ صاحبٍ
بحياته ، لو أن حيّاً خالدُ

للنرجس الفضلُ المبينُ وان أبى
آبٍ وحاد عن الطريقةِ حائدُ

من فضله عن الحِجاج بانه
زهر ونوْر وهو نبت واحدُ

يحكي مصابيحَ السماء وتارةً
يحكي مصابيح الوجوه تَراصَدُ

ينْهى النديم عن القبيح بلحظه
وعلى المدامة والسماع مُساعدُ

اطلب بعفوك في الملاح سَميَّهُ
أبداً فإنك لا محالة واجدُ

والورد — لو فتشت — فرد في اسمه
ما في الملاح له سميٌّ واحدُ

هذي النجوم هي التي ربّتهما
بحَيا السحاب كما يُربي الوالدُ

فتأمل الاثنين : مَنْ أدناهُما
شبهاً بوالده ، فذاك الماجدُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.sakhrit.com

أين العيون من الخدود نفاسةً
ورياسةً لولا القياسُ الفاسدُ(١٩)

فابن الرومي يجعل الورد خجلاً عندما يفضل النرجس أمامه ، وهذا الخجل وتورد الخدود شاهد على أفضلية النرجس الذي يجعله قائد زهر الرياض ، وانه يبقى ويدوم اكثر من الورد الذي سرعان ما يذبل ، اذن للنرجس الفضل وأن رفض ذلك الغير ، والحجة انه زهر ونور ، اي يكون نوارة صغيرة ثم زهرة ، وهو جميل في الحالتين على الرغم من انه نبت واحد : فهو يشبه النجوم (يشبهها بمصابيح الصباح) وهي تتلالا وتارة يشابه الوجوه المصبحة ، فعينه تمنع النديم عن فعل القبيح ، ويساعد على الطرب والانس فيساعد على شرب المدام وسماع النغمات ، وكلمة نرجس نجدها كثيراً ما تسمى بها المليحات ، لكن الورد ليس له سمي واحد : فالنجوم هي التي تربي الزهور وتسقيها بوابل السحاب كما يربي الوالد ابناءه ، فاذا ما تاملنا الورد والنرجس فالذي يشبه اباه هو الماجد كما قال الشاعر (ومن شابه اباه فما ظلم) فلما كان النرجس اشبه بالنجوم المتلالئة فهو اشبه بابيه ، وهو يشبه العيون التي هي عند ابن الرومي أنفس من الخدود واهم من الخدود ، فهي ارأس وأنفس لولا القياسات والمفاضلات الخاطئة عن الناس .

ويورد الحميري في باب جديد هذا النوع من التفاضل بين نورين في مدح واحد وذم الآخر فاهتم بقصيدة ابن الرومي وأورد قصائد شعراء ردوا عليها او عارضوها . وقد كان اول المعارضين لها الوزير ابو الحزم جهور بن أبي عبدة في قصيدته :

الوردُ أحسنُ ما رأت عينٌ وأذْ
كى ما سقى ماءُ السَّحابِ الجائدُ
خَضعتْ نواويرُ الرياض لحُسْنِه
فتَذلَّلت تَنْقادُ وهي شواردُ
واذا تبدّى الورد في أغصانه
يزهو فذا مَيْتٌ وهذا حاسدُ
واذا أتى وَفْدُ الربيع مُبَشِّراً
بطلُوع صفحتِه فنِعْمَ الوافدُ
ليْسَ المُبَشِّرُ كالمُبشر باسمه
خبرٌ عليه من النُّبوة شاهدُ
واذا تعزى الورد من أوراقه
بقيت عوارفُه فهُنَّ خوالِدُ(٢٠)

فيجعل الورد أحسن ما رأت عيناه وانه أخضع نواوير الرياض بحسنه ، واذا ما ظهر الورد تبدو الازهار تجاهه إما ميتة او حاسدة فالورد هو المبشر بمجيء الربيع ، واعطى له صفة الديمومة والبقاء ببقاء عطره ، ويقترب من ابن الرومي حين يتعرض الى اسم الورد وانه شاهد عليه كما هو عند النرجس .

وممن عارض قصيدة ابن الرومي ايضاً الشاعر ابو عثمان سعيد بن الفرج الجياني في قصيدته :

عنّي اليكَ فما القياسُ الفاسدُ
الا الذي ادّى العيانُ الشاهدُ
أزعمتَ أنّ الوردَ من تفضيله
خجلٌ وناحِلُهُ الفضيلةَ عائِدُ
إن كان يَستحيي لفضل جماله
فحياؤهُ فيهِ جمالٌ زائدُ
والنرجسُ المصفر اعظم ريبة
من ان يحولَ عليه لون واحدُ
لبس البياض لصفرةٍ في وجهه
صفةٌ كما وُصفَ الحزينُ الفاقدُ
والآن فاسمع للبراهين التي
قطعت فليس يحيدُ عنها حائدُ
الوردُ تيجانُ الربيع فانّما
اختار الفخارُ مُتوَّجٌ أو ساجدُ
ولمن يكون الفضل في حكم العُلا الـ
ـمَوْعودُ عنهُ او النديمُ الواعدُ
فمهلاً فما هُو بالتقدُّم قائدُ
كلّا ولاذا بالتأخر طاردُ
وانظر اذا اعتدل الزمانُ وغنّت الـ
أطيارُ فهو لشجوهنّ مُساعدُ
موفٍ على الغصن النضير كأنّه
في منبرٍ بين الحدائق قاعدُ
والنرجسُ المنحطُّ إمّا راكعٌ
ذُلّا الى عفر الثرى او ساجدُ
وجعلت للاسماء خطأً زائداً
مهلاً فما هذا سبيلٌ قاصدُ
اسم الذي فضّلتَ إن فتّشته
وخرمتَ اوّله فرجسٌ راكدُ
والورد كيف خرمته وخبنته
وِدٌّ تودُّ به وردٌ عائدُ
وَدَعِ البقاء فما ترى من جملةٍ
إلّا وافضلُها يكونُ البائدُ
يفنى خيارُ الخَلق في الدُّنيا
وما شيء سوى إبليس فيها خالدُ

والضدُّ كلّ الضدِّ قولك إنّه
يَنْهى النَّديمَ بلحظِهِ ويُساعدُ
فاغرتْهُ عينُ الرّقيبِ فللعمى
والسمل طرفٌ للاحبّة راصدُ
واذا فخرت على الخُدودِ بُمقلةٍ
يرقانها بادٍ فاضلُك فاسدُ
ولو أنّ فعلًا للكواكب في الثرى
زَنَّى الرياضَ كما يُزني الوالدُ
وتنازَعَ النُّوار شبه صفاتها
ما كان غير الورد فيها الماجدُ
الورد وقّادُ التوقُّد ناضرٌ
والنجمُ ناريٌّ مُضيّ واقدُ(٢١)

فالجياني يعارض ابن الرومي معنى معنى بقصيدة دالية من البحر نفسه (الكامل) فياخذُ ما قاله عن القياس الفاسد في البيت الاخير فيرد عليه بقوله ان سببه الناظر وانشاهد ، ويعود الى بداية قصيدة ابن الرومي وما قاله عن الورد وخجله عند تفضيل النرجس عليه ويجعل الحياء صفة جمال وفضل له ، لكن الاصفرار في النرجس كان من الريبة من ان يفضل لون آخر عليه ، فلبس البياض لصفرة في وجهه صفة كما نرى صفة الحزين الذي يفقد عزيزاً عليه (لان الحداد عندهم بلبس البياض لا السواد) . وهنا كلامه كان برهاناً لا يقبل الرد لان الورد تاج الربيع سواء كان متوجاً او ساجداً اي سواء كانت الزهرة مرفوعة او منحنية ويرد على قوله ان الفضل في حكم العلا او النديم الواعد ، ويدعوه الى التمهل بان ليس البهار يقود التقدم ولا الورد مبعداً بالتاخر لان الاثنين ازهار وتسجو على اغصانها النضرة الاطيار بين الحدائق . فالحدائق كالمنبر فيها النرجس المنحني (ويعد هذا صفة قبح فيه بانه منحط او راكع ذلا الى تراب الارض او انه ساجد) ، ويرد على المعنى المتعلق باسم الزهرتين بان هذا ايضاً ليس سبيلا للمفاضلة لان اسم النرجس المفضل لدى ابن الرومي لو غيرت حرفه الاول صار رجساً راكداً ، لكن الورد مهما تخرمه او تخبنه فيكون معناه جميلًا (وُدٌ او تود) ، والمعنى الاخر بانه ينهى النديم بلحظه ويساعده فحين اعاره عين الرقيب كان مخطئاً ، فاحياناً الاعمى والسمل العين يرصد الاحبة ويحسدهم فقلب المعنى تماماً ، وحين يتفاخر بالعيون على الخدود يرده بان الاصفرار في هذه العيون هو مرض ومرض قبيح هو اليرقان الواضح ، فهنا ــ كما في كل المعاني ــ ياخذ صفة ابن الرومي التي يجعلها حكماً للمفاضلة ويقلبها الى ضدها ويجعلها صفة للقبح .

اما ان النجوم تربي الرياض وازهارها ، فالورد هو الماجد في هذه الصفة لانه متوقد وناضر وكذلك النجم ناري ومضيء وواقد .

ولم يفت الحميري مؤلف كتاب البديع التعليق على رد الجياني وتوضيح الفرق بينه وبين ابن الرومي في صفة ظهور او ذبول الزهرة وايحائها بمجيء او انقضاء الربيع ، وديمومة الزهرة ، وتسميتها .

وهكذا كان الشاعر المغربي يرد بكل ثقة قصيدة لشاعر مشرقي من أكابر شعراء المشرق ويأخذ كل صفة جميلة ويقلبها ويجعلها صفة قبح لما استحسنه المشرقي وهنا ناحية تستحق الانتباه ان الشاعرين هما اللذان يصفان الازهار وليست الازهار تتفاضل بلسانها ، وهذا اسلوب تابع فيه الاندلسيون المشارقة .

وهذه الصفات لحمرة الورد ويرقان العيون نجدها عند الصنوبري المشرقي في مقطوعة له في الورد .

زعم الوردُ انه هو أبهى
من جميع الانوار والريحان
فاجابته أعينُ النرجسِ الغضّ
بذلٍّ من قولها وهوان
ايما احسنُ التوردُ أم مقلةُ ريم مريضةُ الاجفان
أم فماذا يرجو بحمرته الخدُّ اذا لم يكنْ له عينان
فزهي الوردُ ثم قال مجيبا
بقياسٍ مستحسنٍ وبيان
ان وردَ الخدودِ احسنُ من عينٍ بها صُفْرَةٌ من اليرقان(٢٢)

ويقوم الشاعر صاحب الشرطة ابو بكر بن القوطية الحفيد بنظم قصيدة في الرد على ابن الرومي فيها تفاضل آخر بين الورد والنرجس ، اعطى صفة التميز للورد واجرى التفاضل على لسانه ووصله بمدح القاضي في اسلوب واضح بسيط دون استخدام للمحسنات البلاغية ، قال في قصيدته :

كسفت خدود النرجس المصفرّ من
حسدٍ وقد يدوي العدُوّ الحاسدُ
واصفرّ حتى كاد ان تقضي أسىً
لمّا رأى الوردَ الذي هو واردُ
هيهاتَ للوردِ الفضائل كلها
وان ادّعى التكذيب فيه معاندُ
فصلُ القضية أن هذا ممتعٌ
فضلَ الربيع وكل نورٍ بائدُ
ياتي ونوّار الرُبى مُتزحزحٌ
وكذا الرئيسُ من المشابه واحدُ
هذا مُقِرٌّ للسماء بفضلها

في ما غذتْهُ به وهذا جاحدُ
وترى تباينَ ذاك في وجهيهما
باللّون والنشر الذي هو شاهدُ
كم بينَ مصطنعَيْن هذا كافرٌ
إفضالَ سيدهِ وهذا حامدُ
هذا له خَلقُ العجوز وهذه
عذراءُ في حفرِ المجاسدِ ناهدُ
وكفى افتخارا أن هذا نافقٌ
غضّاً ومبتذلًا وهذا كاسدُ
لو لم يكُنْ للوَرْد إلّا انَّه
يفنى ويبقى ماؤه المتعاهدُ
وله منافِعُ لا تجمَّل كثرةً
ومرافِقٌ مشكورةٌ وفوائدُ
والنرجسُ المصفرّ ليس بنافع
ميتاً ولا في الروض إذ هو وافِدُ
هذا عقيمٌ لا يُشادُ بذكره
ابداً وعقبُ الوردِ باقٍ خالدُ
أخوانِ مفزوّانِ لم يتنازعا
شبهاً وبينهما إخاءٌ تالدُ
هذا يبشّرُ بالحياةِ وذاك يُنذِرُ بالمماتِ إذا أتاهُ العائدُ
أينَ الحياةُ من المماتِ نفاسةً
ورياسةً لولا القياسُ الفاسِدُ(٢٣)

وهنا لم يفت الحميري ايضاً الاشارة الى البيت الاخير الذي فيه رد على ابن الرومي في قصيدته الدالية .

ويروح الشاعر ابو عبد الله بن مسعود بنظم قطعة من الرجز بديعة في وصف البهار وتفضيل الورد عليه ، وهنا نجد اسلوبا آخر للتفضيل الا وهو ان الشاعر يروي ما يجري بين الازهار باسلوب قصصي ، فبعد مقدمة عن صفة البهار وهبوب ريح الصبا عليه ، فيجري محادثة على لسان الورد والبهار وكانه يروي قصة ويلمح في ارجوزته بتفضيل ابن الرومي للنرجس ، قال الشاعر ابن مسعود :

ولابسٍ ثوبَ الضّنى
من حسدٍ قد اكتأبْ
كانما أحداقُهُ
اقداحُ تِبرٍ منتخَبْ
مِنَ الحيا مُتْرَعَةٌ
أجَلُ مشروبٍ شُربْ
يسعى بها مُحتسباً
بلا أذى ولا نصب
ساقٍ على ساقٍ لهُ
تزهى بمُخْضرٍ قصبْ
زبرجدٌ مبتهجٌ
يكادُ لينا ينقضِبْ
إذا الصَّبا غنَّتْ له
وماسَ عن ثقل الحببْ
صَبًا لبعض بعضُهُ
فيلْتَقي ويصطحِبْ
يقولُ للوردِ أنا
برٌ حبيبٌ يقتربْ
قال له الوردُ لقد
أخطأت يا من لم يُصِبْ
أنتَ إذا ما صحّفوا
وانصفُوا بيتٌ خَرِبْ
أنا الذي لم اختلق
ما قلته ولم أحبْ
أشبهُ شيء بالخدو
د الزُّهر ريعَتْ من كثبْ
وانت عينٌ دهرها
في مثل دهرٍ قد كلبْ
فانشعبت أسرابُهُ
خوفاً ... منسربْ
واصفرّ من همّ كما
يفعلُ مخصومٌ غُلِبْ
الفضلُ للورد وإن
أبى عليٌ وحربْ
طِيبٌ وطِبٌ وشذا
ومنظرٌ ينفي الكُرَبْ
سلطانُ الانوار على
رغْم الغبيّ المضطربْ
كما ابنُ عبّادٍ حمى الـ
إسلامِ سلطانُ العربْ(٢٤)

ويستمر المؤلف بايراد مجموعة قطع في تفاضل الازهار احياناً تتفاضل بلسانها واحياناً تكون بلسان الشاعر ، ويورد رسالة اخرى للجزيري عن بنفسج العامرية موصولة بشعر فضل فيها بنفسج العامرية على النرجس والبهار كتبها الى المنصور بن ابي عامر جعل فيها البنفسج يتحدث الى المنصور ويطلب منه الفصل في قضية تفضيل البهار والنرجس لمحاسنهما ووصفهما والفخر بمشابهما ، لان فضل البنفسج

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عليهما اوضح من الشمس ، ولان الاستمتاع بالبنفسج يكون في حياته وجفافه لادخاره في خزائن الملوك جافا واستخدامه في الاغراض الطبية وانه قال الاشعار في وصفه كما قالاها البهار والنرجس ، لكن المهم انه حضر بنفسه بين يدي المنصور (فقديما فضلوا الحاضر وان كان مفضولا) ويكمل الاديب ذلك بقطعة من الشعر ذكر فيها صفة البنفسج ووصلها بمدح المنصور ، فهنا كان التفاضل من قبل زدرة واحدة على زهرتين ، فالتحدث كان من البنفسج وكأنه في حضرة المنصور وتعرض عليه قضية المفاضلة والطرف الثاني لا تذكر صفاته ولا يتحدث فمن ذلك قول الجزيري في رسالته :

« ... فإن كانا قد تشبّها في شعريهما المرتفعين الى مولاي ــ أبقاه الله وأيده ــ ببعض ما في الارض من جواهر الارض ومصابيح السماء وهي من الموات الصامت فإني اتشبه باحسن ما زيّن الله به الانسان وهو الحيوان الناطق من أدوات خلقه وانفس ما ركّب فيه من مواد حياته مع اني اعطر منهما عطراً ، واحمد خبراً ، واكرم امتاعا شاهدا وغائبا ويانعا وذابلا وكلاهما لا يمتعك إلا ريثَ ما يبدو للعيون ويسلم من الذبول ثم تستكره الانوف شمُه ، وتستدفع الاكفّ ضمُه ، فأين هذه الحال من الاستمتاع بي رطباً وادخاري في خزائن الملوك جافا وتفضيلي على ألسنة الحكماء وتصريفي في منافع الاعضاء وإن فخرا باستقلالهما على ساقٍ هي اقوى من ساقي فلا غَرْو ان الوشي ضعيفٌ ، والهوى لطيفٌ ، والمسك خفيف « وليس المجد يدرك بالصراع » كما قال حكيم الشعراء .... »

والشعر

شــهـدت لنـوّار البنفســج ألسُــنُ
مــن لــونــه الاحــوى ومــن ايـنــاعــه
بمشــابــه الشــعــر الاثيــث أعــاره
قمــرُ الجبيــن الصلتِ نــور شعــاعــه
ولــربّمــا جــفّ النجيــع مــن الطُّلــى
بصــوارم المنصــور يــومَ قــراعِــهِ
فحكــاه غيــر مخــالــف فــي لــونــه
لا فــي روائحــه وطيــب طبــاعــه
مَلِـكٌ جـهلنــا قبلــه سُبُــل الــعــلا
حتــى وَضَحْــنَ بنـهجــه وشــراعــه
امّــا نــداهُ فــهــوَ صنــفٌ للحيــا
فــي صــوبــه لم أغْنِ فــي اقــلاعــه
فــي سيفــه - قِصَــرٌ لِطُــولِ نجــاده
وكمــالِ ســاعــده وفسحــة بــاعــه »[٢٥]

ويعود المؤلف فيذكر قصيدتين طويلتين وفيها يفضل الشاعر ابو الاصبغ بن عبد العزيز الخيري ، وابو بكر بن القوطية البنفسج وهما موصولتان بمدح الحاجب[٢٦] . ويستمر المؤلف بذكر عدد من القطع الشعرية في المفاضلة حتى يختم الفصل بقصيدة من نظمه في تفضيل النّمام على الخيري[٢٧] .

والاشعار التي ذكرتها هي نماذج وامثلة لاشعار اخرى كثيرة جرت في هذا المضمار او في مضمار مشابه ولا تتوقف في التفاضل عند نوع معين من الازهار وان كان المشهور والاكثر عقدالمفاضلة بين الورد والنرجس ولكن دخل هذا اللون من الادب تفضيل ازهار اخرى كنور اللوز والياسمين والشقائق والجلنار وغير ذلك من الازهار وبالاسلوب نفسه .

وللاستاذ علي الجندي رأي في تفاضيل الازهار وخاصة تفضيل النرجس على الورد لابن الرومي « بأنه نوع من المدح المقرون بقسيمه من الذم ، او الذم المصحوب بما يعادله من المدح ــ باعتبار انه يمدح زهرة ويذم اخرى ــ هو ابلغ واعمق الوان الثناء والهجاء ذلك لانه كعرضك للشيء مصحوباً بالدليل والبرهان ، والكشف والتوضيح وقديماً قالوا : حبك الشيء يعمي ويصم ، ومن بحث عن عيب وجده .

وقال الشاعر :

وعين الــرضــا عن كــل عيــب كليلــة
كما ان عين السُخط تبدي المساويا »[٢٨]

ويجعل أدلة ابن الرومي أدلة متبرجة ببلاغتها لانها تستحوذ على الوجدان وترضي الشعور ولا تثبت امام العقل ، لكننا مضطرون أن نعجب الى المدى البعيد بهذه الشاعرية المخترعة الموسومة بالاستقصاء والتوليد والتشقيق[٢٩] .

ولم يقف ايراد مثل هذه القصائد التفضيلية على كتاب البديع ؛ بل كان البديع واحداً من الكتب التي اختصت بذكر الازهار والربيع والحدائق ، واهتمت بالاشعار والرسائل في المفاضلة بين الازهار[٣٠] ومنها ما اورده الكتاني في كتابه (التشبيهات من اشعار اهل الاندلس) حيث ذكر في باب الورد قصيدة للرمادي في تفضيل الورد على سائر الانوار وهو في مجال تفضيل زهرة على عدة ازهار ، قال الرمادي :

للآسِ والسوسنِ والياسمين الغضّ والخيريّ فضلٌ شديدْ
ســادت بــه الــروضُ ومــن بينـهــا
وبيــن فَضْــلِ الــورد بــون بــعيــدْ
هــل لــك فــي الآسِ ســوى شمــةٍ
تطــرحُــهُ من بعــدهــا فــي الــوقــودْ
والــوردُ إن يــذبــلْ ففــي مــائــه
نسيــمُ ضــمّ الإلــف بــعــدَ الصــدود

والشوءُ في السوسن عام وفي
ساعةِ سوء قد تُزارُ اللحود
والياسمينُ اليائسُ في بدنه
فهو لمن يَطْمعُ همُّ عتيد
أخنُ بالخيري خلقٌ كخُلـ
ـقِ اللصُّ يستيقظُ بعذالهجود
فالوردُ مولى الروضِ لكنّه
في قدره عبدٌ لوردِ الخدود(٢١)

وبعد هذه الرحلة مع الازهار . لابد من تبيين بعض السمات التي اتصف بها هذا اللون من الادب ، واهمها وجود عنصرين يجري بينهما التفاضل اي وجود زهرتين تتفاضل فيما بينهما او وجود تفاضل بين زهرة وعدة ازهار .

الناحية الثانية ان المفاضلة كانت تجري على لسان الزهرة فيصف الشاعر حالة متخيلة ويحاول تجسيد النبات وكأنه انسان ناطق ، او أن ينطق الازهار نفسها فيكون عنصر التشخيص او التجسيد مباشراً بان تكون كفتاتين او عدة فتيات تتفاضل فيما بينهن وتتباهى بجمالهن .

الناحية الثالثة : ان المفاضلة لدى المشارقة كانت بلسان الشاعر وهو يصف حالة التفاضل بين الازهار ، بينما كان الاندلسيون ينطقون بنفسها فتتفاضل فيما بينها ، كما انهم جاروا المشارقة بوصف الازهار المتفاضلة فالفرق بين المشارقة والاندلسيين ان الاخيرين اهتموا بانطاق الازهار لاتخيلها ووصف نطقها وهو ما تميز به الاندلسيون على المشارقة .

الناحية الرابعة ان النثر الذي اجري على لسان الازهار اهتم بالتصنع وكان نثرا فنيا بليغا مسجعا ، اما الشعر فكان في لغة جزلة واضحة وتميز باستيحاء صفات الازهار الطبيعية لتقوم على اساسها المفاضلة وهو في مضمونه هذا لا يخرج عن مضمون النثر .

هذا وفي الختام ارجو ان اكون قد وفقت في القاء الضوء على ظاهرة ادبية وجدت عند الادباء وتوسعت ونضجت وتخصصت عند الاندلسيين لوجودهم في بيئة كانت هي العامل المساعد لهم في استلهام الصور الجميلة وتخيل الازهار اناسا ينطقون ويحسون ويتحاسدون ثم يتفاضلون .

الهوامش والمصادر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ، د . احمد هيكل ، ط ٥ ، مصر دار المعارف ١٩٧٠ . ٣١٠ .

(٢) مطمح الانفس ومسرح التأنس للفتح بن خاقان ، تحقيق هدى شوكت بهنام ، بيروت ، دار الفصون . ١٩٨٩ ، ٣٠ ــ ٣٢ .

(٣) ديوان الصنوبري ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٠ ، ٥ ــ ٦ .

(٤) انظر ترجمته في تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ، تحقيق ابراهيم الابياري . القاهرة وبيروت دار الكتاب المصري واللبناني ١٩٨٩ ، ٢ / ٨٠٥ ــ ٨٠٦ .

(٥) الادب الاندلسي ٣١٠ ــ ٣١١ .

(٦) تاريخ الادب الاندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، د . احسان عباس ، بيروت دار الثقافة ، ١٩٦٩ ، ١١ وفيها يبين ايضاً ان روح المفاضلة والمناظرة بين الازهار برزت بتشجيع المظفر ابن المنصور الشعراء على الاكثار من القول في انواعها المختلفة ليطرح اشعارهم فيها للغناء .

(٧) تاريخ النوريات في الشعر العربي في المشرق وفي الاندلس : مقداد رحيم خضر بمجلة آداب المستنصرية ، ع ١١ س ١٩٨٥ ص ٢١٢ ــ ٢١٣ .

(٨) وزير وكاتب بليغ وشاعر مجيد له رسالة السيف والقلم والمفاخرة بينهما كان حياً بعد الاربعين والاربعمائة [المطمح ٥٠] .

(٩) تنافس هو واخوه في الرئاسة واضطربت بهما الدولة ، توفي في قرطبة سنة ٤٦٢ هـ كان حافظاً للقرآن مجودا لحروفه كثير التلاوة له [المطمح ٣٣] .

(١٠) ابو جعفر بن الابار احد شعراء المعتضد المتقنين واحد شعراء كتاب البديع برع في شعر النوريات [الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة لابن بسام تحقيق احسان عباس بيروت / دار الثقافة ، ١٩٧٨ ، ١٣٥/١/٢]

(١١) الوزير ابو الاصبغ بن عبد العزيز اديب شاعر ذكره ابو عامر ابن مسلمة [جذوة المقتبس في تاريخ علماء الاندلس للحميدي ، تحقيق ابراهيم الابياري ، القاهرة ،بيروت دار الكتاب المصري واللبناني ١٩٨٩ ، ٦٢٠/٢] .

(١٢) هو حفيد المؤرخ واللغوي ابو بكر بن القوطية عاش في المائة الخامسة وكان احد شعراء المعتضد واحد شعراء كتاب البديع برع في شعر النوريات [شعر ابي بكر بن القوطية صنعة هدى شوكت بهنام ، مجلة المورد م ١٤ ع أس ١٩٨٥ ، ص ٨٥ ــ ١١٤ .

(١٣) البديع في وصف الربيع لابي الوليد الحميري تحقيق هنري بيريس ، الرباط ، المطبعة الاقتصادية ، ١٩٤٠ م ، ٥٢ ــ ٥٨ .

(١٤) م ، ن ٥٨ ــ ٦٧ .

(١٥) م ، ن ٥٦ ــ ٥٧ .

(١٦) م ، ن ٦٤ ـ ٦٥ .
(١٧) م . ن ٦٨ .
(١٨) الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه : مصطفى الشكعة ، بيروت ، ط ٤ دار العلم للملايين ، ١٩٧٩ ، ٢٧٧ .
(١٩) ديوان ابن الرومي ، تحقيق د . حسين نصار ، مصر ، دار الكتب ، ١٩٧٤ ، ٢ / ٦٤٣ .
(٢٠) المطمح ٣٤ ، تاريخ النوريات ٢٢١ .
(٢١) البديع ٧١ ـ ٧٢ .
(٢٢) ديوان الصنوبري ٤٩٨ .
(٢٣) البديع ٧٣ ـ ٧٤ .
(٢٤) م . ن ٧٤ ـ ٧٥ .
(٢٥) البديع ٧٩ .
(٢٦) م . ن ٨٠ ـ ٨٢ .
(٢٧) م . ن ٨٥ .
(٢٨) الشذا المؤنس في الورد والنرجس ، مصر ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦١ ، ١٦٤ . البيئة الاندلسية واثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف : د . سعد اسماعيل شلبي ، مصر ، دار نهضة ، مصر ، ١٩٧٨ ، ١٠٧ .
(٢٩) علي الجندي : الشذا المؤنس ١٦٥ ـ ١٦٦ .
(٣٠) للمزيد من المعلومات عن النوريات يراجع بحث د . مقداد رحيم تاريخ النوريات .
(٣١) الكتاني : التشبيهات من اشعار اهل الاندلس تحقيق احسان عباس ، بيروت ، دار الشروق ، ١٩٨١ ، ٥٧ .

جوائز وزارة الثقافة والاعلام في ميادين الثقافة والفنون والادب

٢) استناداً الى الفقرة السابعة من (نظام جوائز وزارة الثقافة والاعلام) رقم (٥) لسنة ١٩٩٣ ومن اجل تشجيع العمل الابداعي ثقافياً وفنياً وفي شتى الميادين في عراق الثورة والصمود والابداع تعلن وزارة الثقافة والاعلام عن فتح باب الترشيح للمبدعين التقدم بترشيحاتهم عن طريقهم مباشرة او عن طريق مؤسساتهم الثقافية للترشيح إلى :ـ

١ ـ جائزة الابداع
٢ ـ جائزة التشجيعية للشباب

٢) تمنح كل جائزة من الجوائز في الحقول الاتية :ـ

اولاً : الادب ويشمل

أ ـ الشعر
ب ـ الرواية
جـ ـ المسرحية
د ـ القصة القصيرة
هـ ـ الدراسات النقدية
و ـ تاريخ الادب وتحقيق التراث
ز ـ الترجمة
ح ـ الدراسات اللغوية
ط ـ ادب الاطفال (القصة ـ الشعر)

ثانياً : الفنون وتشمل

أ ـ الفنون السينمائية وتشمل السيناريو والاخراج والتمثيل و (التصوير والاضاءة) والديكور والمونتاج والصوت والموسيقى التصويرية (المؤلفة)
ب ـ المسرح ويشمل الاخراج والتمثيل والديكور والاضاءة المسرحية و (الموسيقى والمؤثرات)
ج ـ الفنون التشكيلية وتشمل الرسم والنحت والسيراميك والكرافيك (الخط والزخرفة)
د ـ الفنون الموسيقية وتشمل التاليف الموسيقي والتلحين والاداء الغنائي والاداء الموسيقي وتصميم لوحات الرقص الشعبي والدراسات الموسيقية .
هـ ـ التلفزيون ويشمل افضل عمل درامي اخراجاً وتنفيذاً وتاليفاً وسيناريو وافضل برنامج (اعداداً وتقديماً واخراجاً . والموسيقى التصويرية المؤلفة للدراما وللبرامج وللفلم الوثائقي .
و ـ الاذاعة وتشمل افضل عمل درامي اخراجاً وتاليفاً واعداداً وتنفيذاًوافضل برنامج اعداداً وتقديماً واخراجاً والموسيقى التصويرية المؤلفة للدراما .

٣) تقدم الجوائز التشجيعية للشباب المبدعين الذين لا تتجاوز اعمارهم الاربعين عاماً ويحق لهم الترشيح الى جائزة الابداع

٤) يقدم المرشحون في مجال الاداب خمس نسخ من اعمالهم المنشورة عام ١٩٩٧ ويكون التحكيم على الاعمال الفنية المنتجة في ذلك العام

٥) يراجع المرشح لملء الاستمارة الخاصة بالترشيح (امانة الجائزة) في مبنى وزارة الثقافة والاعلام .

٦) يستمر قبول طلبات الترشيح حتى نهاية الدوام الرسمي لليوم الحادي والثلاثين من شهر اذار عام ١٩٩٨ .

٧) تخضع الاعمال المرشحة للتحكيم وتكون قرارات اللجان نهائية

٨) تعلن النتائج خلال النصف الثاني من عام ١٩٩٨

وزارة الثقافة والاعلام
امانة الجائزة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دراسة

الطّلل في القصيدة الجاهلية

بين الرفض والقبول

د . صميم كريم الياس

كلية التربية / ابن رشد / جامعة بغداد

تقديم

لا يبدو من الغريب القول ان الشاعر الجاهلي كان ينظر الى الاشياء نظرة واضحة خالية من التعقيد غير مسبوقة باطر محددة ، فقد كان يحسها ويراها كما هي بسيطة لا تختبىء اية دلالة غامضة او مبهمة . واذا بدا شعوره تجاهها يكتنفه نوع من الاحساس بالانفصال عنها فما ذلك الا محاولة لتعزيز شعوره بذاته المستقلة التي كان صراعها مع المحيط صراعاً عنيفاً وجدلها مع الموضوع حاداً في كثير من الاحيان ، ذلك ان كلا القطبين (الذات والموضوع) حاول اثبات الوجود واعلان الهوية بشكل يحقق انتصار احدهما على الاخر .

لقد اتسم ذلك الشعر بالواقعية الاصيلة التي شفت عن حركة وجموح وانطلاق نحو الاوسع والارحب . انه شعر وجداني صافٍ سواء في تسجيله المآثر الانسانية بروح البطولة والفروسية ام في كشفه الاشياء المحيطة به رفضاً لها او تواطؤاً . لقد عبر الشاعر عن الحب والكره والرجاء والياس والتمرد والرضا والغنى والفقر والغبطة والكآبة والفرح والماساة وسائر المشاعر الانسانية الاخرى .

المرأة والطلل

لعلنا لا نجانب الصواب اذا قلنا انه لا يوجد في الشعر الجاهلي طلل بغير المرأة الا في نصوص نادرة ذلك انها تشكل عنصره الرئيس ، فقد تعامل الشعراء معها بالتلميح تارة وبالتصريح تارة أخرى فهي هند وسلمى والرباب والبسباسة في اطلال امرىء القيس ، وميه وسعادة في طلل النابغة ، واسماء وام اوفى وسلمى في اطلال زهير وهكذا .

لقد كان رحيلها ومفارقة الشاعر اياها اهم المثيرات التي دعت الى استجلاء رقة العواطف وتصوير انقلاب الحال حيث تفرق الصحبة وتشتت الشمل . لقد وقف الشاعر بهذه الديار باكياً الذكريات الخالية فيها بمرارة والم نستشف منهما امنية خفية تلمن هذه الديار وترجو لو انها لم توجد ولم تحتضن الحبيبة المغادرة . ومن صور البكاء ما قاله امرؤ القيس .

ففاضت دموع العين في صبابة
على النحر حتى بلَّ دمعي محملي[1]

انه بكاء كثير تتابع فيه الدمع فائضاً ، غير ان الشاعر لم يجعله يتجاوز تبليل حمائل السيف اما الاعشى فقد امتدت عنده الصورة حين قال

ففاضت دموعي كفيض الغرو
ب اما وكيفا واما انحدارا[2]

لقد صارت الدموع على شكل دلاء تقطر او تسيل واخذت بعداً اوسع مما كانت عليه لدى امرىء القيس ، في حين وصلت الصورة الى الذروة عند زهير اذ قال

كان عيني في غربيْ مقتلة
من النواضح تسقي جنه سحقا[3]

فالدموع جدول تفرغ فيه دلاء متتابعة تسقي بستاناً من النخيل . وهكذا نلحظ هذا التدرج الواضح في صورة الدمع الذي فاض لدى هؤلاء الشعراء الثلاث الذين عكسوا ذواتهم عليها فجاءت الصور بهذه الروعة من حيث النضج في البعد الشعري ابتداءً بامرىء القيس وانتهاءً بزهير .

ومن الصور البكائية التي عكست نضج التعامل مع الطلل في ذلك العصر عن طريق استخدام المنبهات الاسلوبية وعناصر الصورة ، فضلًا عن تجميع تشكيلات موضوعية مختلفة تكاد تمثل خلاصة ما انتهى اليه شعراء ذلك العصر ، من تلك الصور إبيات ربيعة بن مقروم الضبي الميمية التي يقول فيها

أمِنْ آلِ هندٍ عرفتَ الرسوما ... بحمرات قفراً أبت ان تريما
تخالُ معارِفها بعد ما ... أتتْ سنتانٍ عليها الوشوما
وقفت أسائلها ناقتي ... وما أنا أم ما سؤالي الرسوما
وذكرني العهدُ ايامَها ... فهاج التذكر قلباً سقيما
ففاضت دموعي فنهنهتُها ... على لحيتي وردائي سجوما[4]

تبدأ هذه اللوحة بصورة الديار التي تابى ان تبرح الذاكرة بالرغم من مضي سنتين على رحيل هند ، هذا الرحيل الذي ابكى الشاعر بمرارة وعكس قلقه من خلال افتتاح النص بمذبه

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

اسلوبي هو الاستفهام الذي ينم عن الدهشة في معرفة هذه الرسوم ، لكن هذا الاستفهام لايجد جواباً بل يظل مسيطراً على الابيات حيث نجد صداه في (أسائلها) . وتتضح انعكاسات الصورة على ذات الشاعر من خلال ضمائر المتكلم التي تتابعت في الابيات الثلاثة الاخيرة حتى وصلت الى عشر ضمائر بين ظاهر ومستتر ، وكان تكثيفها في البيت الثالث واضحاً اذ جاء بعد التفات ذكي من ضمير المخاطب في البيتين الاول والثاني . وهذا الالتفات يثير السؤال عن المعني بضمير المخاطب في ذينك البيتين ـ اهو رفيق الشاعر ام انه الشاعر عينه ام شخص مفترض أملاه سياق النص ؟ ان ضمير المخاطب هنا لا يمكن ان يكون الا الشاعر نفسه ، فمن الذي عرف الرسوم من ال هند ؟ ومن ذاك الذي يخال معارفها الوشوم ان لم يكن الشاعر عينه ؟ !

ان الذي دعا ربيعة لوضع مخاطب في البيتين الاول والثاني هو الاستفهام الحائر في الافتتاح ، اذ لابد ان يوجه الخطاب الى شخص آخر ، فلم يجد من يجاوره الا ذاته المتفردة الحزينة التي خاطبها ووجه الاستفهام اليها .

وجعلته الذكرى يؤنسن العلاقة بينه وبين الرسوم الدارسة التي تخيلها شخصاً يوجه اليه الاسئلة ، ولعل هذه الرسوم لم تكن سوى الذات المنهكة التي هامت على وجهها في الفيافي الشاسعة . ولا يبدو امر دلالة المخاطب على المتكلم غريباً « فكثيراً ما نرى في الشعر ضميري الغائب والمخاطب يدلان على الشاعر نفسه وهذا ما يطلق عليه البلاغيون اسم « التجريد » .(٥)

ولم يكتفِ الشعراء لتصوير الدموع وابراز الشحنات العاطفية من خلال ذلك بل اضافوا تشكيلات جديدة تنسجم مع معطيات البيئة المادية في محاولة تحقيق التوازن التي راموا الوصول اليها . ومن تلك التشكيلات وصف الديار والاطلال الدارسة كيف انها خلت وعفت ولم تعد الا خرائب ، وما على الشاعر الا ان يتحلى بالصبر لفقد الاحبة ، لكنه سرعان مايضيق ذرعاً بالامر فيبعث الحياة في هذه الديار ويبث تموجات الحركة في الجماد الصامت ليشيع اجواء الحيوية محاولًا اعادة التوازن الذي فقدته النفس حين رحل الاحباب ، لهذا غدت صورة الحيوان من عين وآرام تصول وتجول في ارجاء تلك المنازل كانها البديل الذي يبعث الامل ويخفف عن النفس بعض ألمها . يقول المرقش الاكبر

هل تعرف الدار عفا رسمها	الا الاثـــافيّ ومبنى الخيم
اعـرفها داراً لاسماء فـالـ	دمعُ على الخدينِ سحٌ سجم
أمست خـلاءً بعد سكانها	مقفرةً ما إن بهـا من إرمْ
إلا من العينِ تـرعى بهـا	كالفارسيين مشوا في الكمم(٦)

لقد لجأ الشاعر في هذه الابيات الى اقامة حوار مع شخص غائب لعله ذاته التي تفردت بسبب رحيل الاحبة ، اذ سأل عن هذه الديار الخالية من كل شيء سوى الاثافي وعمد الخيام ، لكنه عرفها ودمعه يسيل على خديه عاكساً اجواء الالم والحزن التي تعتصر نفسه المنسحقة . وسرعان ما حاول الشاعر اعادة الحياة الى الديار ، لكنها حياة خالية من الحبيبة التي رحلت مع الاهل والرفاق ، والذي بقي هي تلك العين التي ما زالت ترعى في الديار . وقد استخدم الشاعر الاستفهام الذي خرج الى النفي ليؤكد اغتراب الذات وعدم استطاعتها مواجهة الديار على هذه الحال مما جعله يحاول اعادة التوازن الى الذات من خلال صورة بقر الوحش في البيت الرابع اعتقاداً منه ان بعث الحياة في الديار باي شكل كان يقربه من تلك الايام السعيدة التي عاشها الى جانب الحبيبة المهاجرة .

الطلل بين الرفض والقبول

ان سعي الذات الحثيث الى تحقيق توازنها في هذا العالم المتشابك والمعقد بيئياً واجتماعياً جعل الاطلال تقوم على ثنائيات اساسية تتحرك داخلها منها : الجدب والخصب ، والجفاف والري ، والصمت والصخب ، والسكون والحركة ، والظلام والنور ، والخفاء والكشف ، وغيرها الكثير . وهذه الثنائيات تشكل محوراً جوهرياً لا في لوحة الطلل فحسب بل في الشعر الجاهلي على وجه العموم .(٧)

ان هذه الثنائيات رموز لصراع الكائنات وتضامنها في هذا العالم الذي تقف فيه قوى السلب في مواجهة مستمرة ودائمة مع قوى الايجاب . ومن هنا « فان الشاعر العربي لا يريد ان يقف منفرداً او تقف الحياة منفردة في مواجهة قوى الصراع التي يعايشها وتعايشه ، فيقيم من اللغة ثنائيات او تجمعات تقوم على التجاوز والتساند والتماسك والمشاركة »(٨)

وهذه الثنائيات انماط لغوية يحرص الشاعر على اقامتها بحسه الملهم ليؤكد بها ذاته عن طريق عناصر الحياة المختلفة كالنبات والحيوان والمطر ، واظهار هذه العناصر على عوامل التفكك والفناء . انه يحاول ان يعكس ذاته على اللغة ليحقق لها الامان ويدفع عنها المخاوف في محاولته الابداعية لتنظيم العالم عن طريق الخلق الشعري .

ومن يتأمل لوحة الطلل يجد ذاتها انها تمثل تحولًا على صعيدين :

الاول الصعيد الشكلي للطلل ، اذ يبرز مجسداً من خلال الديار التي تهدمت بعد ان هجرها اصحابها وارتحل عنها احبابها واصبحت خالية من مشاهد الحب واللقاء التي نمت في داخلها وبين احضانها حتى آلَ امرها الى تقطع اسباب الحركة والحيوية عنها .

والثاني صعيد الشاعر ذاتهُ ، اذ تحولت الديار من طبيعتها

المحسوسة الى طبيعة الهامية يتامل فيها الشاعر بعض ذكرياته او يستحضر ذكريات من سبقه في صياغة ابداعية لموقف من اندر المواقف في حياته .

وازاء ذلك فقد اخذ موقف الشاعر الجاهلي من الطلل اتجاهين متقابلين ـ « فهو إما ان يتعاطف معه ويشعر ازاءه بنوع من الاشفاق واما ان يرفضه من خلال رفضه لاحاسيس الياس والاحباط التي تتجمع عليه ، وهو في كلا الامرين يكاد يتوحد مع هذا الطلل في لحظة وجودية فريدة يد قط فيها كثيراً من ذاته ، فهو اذا رفض فانما يرفض هذا الجانب الذي اسقطه ، واذا تعاطف او اشفق فانما يتعاطف مع ما انتزعه من هذه الذات » .(٩)

وسنحاول رصد نصين يمثلان هذين الخطين المتقابلين من الرفض والاشفاق ، فمن ادل النصوص الرافضة للطلل الابيات التي يفتتح بها امرؤ القيس لاميته حيث يقول

الاعم صباحا ايها الطللُ البالى
وهل يعمنَ من كان في العُصرِ الخالي
وهل يعمَن الا سعيدٌ مخلدٌ
قليلُ الهمومِ ما يبيتُ باوجالِ
وهل يعمَن من كان احدثَ عهدهِ
ثلاثين شهراً في ثلاثة احوالِ
دياز لسلمى عافياتٌ بذي خالِ
الحّ عليها كل اسحم هطّالِ
وتحسب سلمى لا تزال ترى طَلَا
من الوحش او بيضاً بميثاء محلالِ
وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا
بوادي الخزامى اوعلى رَسُ أوعالِ
ليالَى سلمى اذ تريك منصَباً
وجيداً لجيد الرئم ليس بمعطالِ
الا زعمت بسباسة اليوم انني
كبرتُ والا يحسن أن يُزنُ امثالي
كذبت ، لقد اصبي على المرء عرسَهُ
وامنعُ عرسي أن يُزنُ بها الخالي
ويارُب يوم قد لهوت وليلةٍ
بانسةٍ كانها خَطُ تمثالِ(١٠)

ان الابيات تثبت قدرة الشاعر على استرجاع الماضي من خلال تكثيفه في لحظة ابداعية يشف عنها البعد الزماني والمكاني ، فالحضور الزمني ياتي في مفتتح البيت الاول (الاعم صباحاً) ، فهذه الجملة جمعت بين الشاعر والطلل في مواجهة ثنائية يظن المتلقي من خلالها ان الطلل مليء بالحياة ومتفتح لها حتى إنه دفع الشاعر للتوجه اليه بهذه التحية المركزة تعبيرياً ، اذ بدأت بـ (الا) اداة الاستفتاح التنبهية ، ثم (عم صباحاً) الامر المجسد للود ، ثم (ايها الطلل) النداء المؤكد لمعاني الحيوية الدافقة . ولكن سرعان ماتحفت لحظة الحضور الحارة هذه وناقل بكلمة واحدة هي (البالي) تبدأ حركة الرفض للطلل ، وتتضح اكثر حين يتحول الشاعر من المخاطب الى الغياب ، وكذلك عندما يعتمد على منبه اسلوبي آخر هو اداة الاستفهام (هل) التي افرغها من دلالتها وابدلها دلالة أخرى هي النفي الممتزج بالانكار . وهكذا ينتشر الماضي الذي مهدت له كلمة (البالي) من خلال (العصر الخالي) و (ثلاثين شهراً في ثلاثة احوالِ) و (عافيات بذي خالِ) و (الح عليها كل اسحم هطالِ) . وفي البيت التاسع والعاشر يجمع الشاعر بين الطلل الممثل للماضي وبين ماضي عمره فيرفضهما بشكل مدهش من خلال ادعاء صاحبته بسباسة من انه كبر واصبح غير صالح للعب واللهو .

« وهنا تظهر علاقة الشد والجذب بين صورة الطلل واجزائه وبين الشاعر ، فاذا كان الطلل قد افتقد الحياة والحيوية فان الشاعر يجسد عالماً مليئاً بهما ، واذا كان الطلل قد توقف زمنه متسحباً الى الماضي فان الشاعر ما يزال الزمن لديه مستمراً حاضراً ومستقبلاً »(١١)

وقد ساعدت المرأة الشاعر على رفضه الطلل ووقوفه في الجانب المقابل له ، ذلك انها هي التي حرص الشاعر على اثبات ذاته من خلالها وابراز حيويته وحركته وقدرته عن طريق علاقته معها . فاذا كان الطلل يمثل الماضي اليائس بالنسبة له فالمرأة هي المستقبل المليء بالامل والعنفوان .

ومعلوم ان امرأ القيس قد التمس في المرأة ملاذاً من الوحشة والجدب ، ذلك انها احتلت في شعره مكاناً اهم مما احتلته عند اي شاعر جاهلي آخر ، فقد صورها « متذكراً ومتاملًا وماجناً : في الاولى ياسى على ايامه الخوالي معها ، .... وفي الثانية تناولها مخلوقاً دقيقاً يصفه ويستغرق في وصفه ، وفي الثالثة جعلها مناط مغامراته ، مغامرات قد يكون فيها صادقاً او صانعاً »(١٢)

ومن النماذج التي يتضح فيها تآلف الشاعر وتعاطفه مع الطلل وحنوه عليه مما يؤكد نضج الذات في تعاملها مع المسالة وسعيها للبحث عن افاق ارحب واشمل من تلك التي تعامل معها امرؤ القيس ابيات زهير الطللية في معلقته اذ يقول .

امن ام اوفى دمنةٌ لم تكلُمِ ... بحومانة الدراجِ فالمتثلمِ
ديار لها بالرقمتين كانها ... مراجع وشم في نواشرِ معصمِ
بها العينُ والارامُ يمشينَ خلفةً ... واطلاؤها ينهضْنَ من كل مجثمِ
وقفتُ بها من بعد عشرين حُجة ... فلأيا عرفتُ الدار بعد توهُمِ
اثافي سُفعاً في معرس مرجلِ ... ونؤياً كجذمِ الحوض لم يتثلم
فلما عرفت الدار قلت لربعها ... الا انعم صباحاً ايها الربْعُ واسلمْ(١٣)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد بدأ الشاعر الابيات باستفهام هادىء عن دمن ام اوفى ، ولم يسال عن كل الدمن بل انه استفهم عن دمنة واحدة بعينها اشكلت عليه وشغلت الذات بالتقصي والنظر اذا قبلنا بان تقدير المحذوف : امن دمن ام اوفى دمنة لم تكلم ، وهذا يعني انه على علم بكل اطلال الحبيبة سوى هذه الدمنة التي اختلط عليه امرها بسبب تقادم العهد ، وهذه البداية الناضجة تختلف

عن بداية امرىء القيس في لاميته حيث تحية الطلل الساخرة المستهزئة . ان هذه الاطلال لم تندرس بل بقيت شاخصة وظلت اثارها تنطق بها وتابى ان تغادرها كانها الوشم في عروق المعصم . وبقاء الطلل يعني بقاء الحبيبة وثباتها في قلب الشاعر الذي ارتاح وسعد برؤية اثارها ، وسرعان ما احدث البديل المريح عنها لانها غائبة ، هذا البديل الذي استطاع ان يسقط عليه الذات التي تالفه ويالفها ، انه بديل يشع بالحياة ويمتلىء بالسلم والامان ذلك هو العين والظباء واولادها . انه بديل خصب يشف عن تعاطف وتالف اسري مفعم بالمودة نجد صداه واضحاً في ثنايا القصيدة .

وبعد كل هذه الصور المتعاقبة يقف الشاعر بهذه الديار التي تعرفها بصعوبة لمضي عهد طويل على اللقاء بها وبمن فيها ، وهو محق في هذا الا ان (الحجج المشرين) يمكن ان تغير كل المعالم ، لكن الشاعر تنبه الى بعض هذه المعالم بحسه المرهف فاستدل على تلك الديار بالرغم من تقادم العهد بها ، على العكس من امرىء القيس حيث بلي الطلل لديه بتاثير طول الزمن الذي لم يكن باطول من عهد طلل زهير اذ كان (ثلاثين شهراً في ثلاثة احوال)

وقد كان امرؤ القيس اكثر تطرفاً حين حكم على اطلاله بالبلى التامّ بينما ظلت بقايا الطلل لدى زهير (كجذم الحوض لم يتثلم).

وبعد وضوح صورة الطلل في ذهن الشاعر القى عليه ذلك الدعاء الجميل وسلم بتحية هادئة : الا انعم صباحاً ايها الربع واسلم ، فقد القى تحيته كاملة لم يجتزىء منها شيئاً كما فعل امرؤ القيس (الاعم صباحا) ، وهذا يوحي باتزان زهير ورزانته وقلق امرىء القيس واضطرابه ، ثم ان زهيراً دعا لها بالسلامة اي استمرار الحياة ، وهذا يتناقض مع البلى الذي يعني انقطاع الحياة ، واذا اضفنا كلمة (الربع) التي ادخلها الشاعر في سياق تحيته والتي تعني الصحبة والاحباب ، فهذا يعكس امنية ذاتية لا تخلو من افاق جماعية في تواصل الود والمحبة . واذا كانت بمعنى المنزل في الربيع ،[١٠] فهذا يمنح النص بعداً حيوياً مضافاً وشحنة يكثف فيها الشاعر حبه للحياة فضلًا عن الدعاء بالنعمة للديار وبالا تدرس وبان تسلم على الدوام . وهكذا فان هذا النص يكشف بجلاء عن توحد ذات الشاعر مع الطلل وتعاطفه معه واشفاقه عليه ونقل مطامحه وامانيه في المحبة والوئام الى هذه الطلل الباقي الذي لا يمكن ان يبلى مثلما ان المحبة والوئام هما الاثبت والابقى في قلوب الناس ومنهم الشاعر والمرأة (الحبيبة) (ام اوفى) . كما يمكن ان نلحظ في هذه الابيات تطوراً باتجاه تاكيد الذات والاعتزاز بـ (الانا) فامرؤ القيس وطرفة وغيرهما يستوقفون صاحباً او اكثر معهم على الاطلال (قفانبك ، وقوفا بها صحبي ، عوجا على الطلل المحيل ...) ، اما زهير فيقف عند هذه الدار وحده من غير صاحب مما يدل على ان الذات العربية بدأت ترقى في سلم الحضارة وتنفرد بنفسها وتحد من اتجاهها نحو الاخر .

ومن الجدير بالاشارة اننا يمكن ان ندرج لوحة لبيد الطللية في معلقته ضمن سياق الاشفاق على الطلل والتواطؤ معه ، لانها تمثل صراعاً من اجل بعث الحياة من خلال عناصرها ـ المطر والحيوان والنبات وغيرها . على ان المرأة لم تظهر فيها بشكل صريح لكننا يمكن ان نستشف دلالة الانوثة رديف الحياة والخصب من خلال اطراد الضمير (ها) في روي الابيات وسياق النص ، علاوة على شيوع التثنية التي ترتبط بالمصاحبة وتعد بديلًا واعياً عن العزلة والوحشة .

هوامش البحث

١ ـ ديوانه ، ص ٩
٢ ـ ديوانه ، ص ٩٥
٣ ـ ديوانه ، ص ٣٧ ، المقتلة : التي بلت لكثرة العمل ، السحق : النخيل
٤ ـ ديوانه ص ٣٨١ ، تريم : بتزح
٥ ـ الواقع والاسطورة في شعر ابي ذؤيب الهذلي الجاهلي ، ص ١٦٢
٦ ـ المرقش اخباره وشعره ، ص ٢٢٩ ، الكمم : القباب
٧ ـ ينظر الرؤيه المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي ، ص ٦٣
٨ ـ التحليل الدرامي للاطلال في معلقة لبيد (بحث) ، ص ١٦٩
٩ ـ قراءة ثانية في شعر امرىء القيس (بحث) ، ص ١٥٤
١٠ ـ ديوانه ، ص ٢٧ ـ ٢٩ ، ميثاء : مسيل الوادي ، المنصب : الثغر المستوي النبت ، بزن : يتهم
١١ ـ قراءة ثانية في شعر امرىء القيس (بحث) ، ص ١٥٥
١٢ ـ امرؤ القيس امير شعراء الجاهلية ، ص ٢٦٩
١٣ ـ ديوانه ، ص ٤ ـ ٨
١٤ ـ ينظر شرح المعلقات العشر ، ص ٢٠٢
١٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٠٦

المصادر والمراجع

١ ـ امرؤ القيس امير شعراء الجاهلية ، حياته وشعره ، طاهر احمد مكي ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٦٨

٢ ـ التحليل الدرامي للاطلال في معلقة لبيد دراسة تطبيقية ، محمد صديق غيث ، مجلة فصول المجلد الرابع العدد الثاني يناير فبراير مارس ، القاهرة ، ١٩٨٤

٣ ـ ديوان الاعشى الكبير ، تحقيق د . محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٤

٤ ـ ديوان امرؤ القيس ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤

٥ ـ ديوان ربيعة بن مقروم الضبي ، صنعه د . نوري حمودي القيسي ، مستلة من العدد الحادي عشر لمجلة كلية الاداب ١٩٦٨ ، مطبعة الحكمة ، بغداد ١٩٦٨

٦ ـ ديوان زهير بن ابي سلمى (شرح ديوان) ، صنعه ثعلب (ابو العباس احمد بن يحيى ت(٢٩١ هـ) ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، الدار القومية للطباعة والنشر ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م

٧ ـ شرح القصائد العشر ، الخطيب التبريزي . (ابو زكريا يحيا بن علي بن محمد الشيباني) حقق اصوله محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤

٨ ـ قراءة ثانية في شعر امرىء القيس ، الوقوف على الطلل ، (بحث) ، محمد عبد المطلب مصطفى ، مجلة فصول المجلد الرابع العدد الثاني يناير فبراير مارس القاهرة ١٩٨٤

٩ ـ المرقش الاكبر (اخباره وشعره) ، د . نوري حمودي القيسي ، مجلة العرب ، الجزء العاشر ، السعودية ١٩٧٠ م .

دراسة

الحصان العربي الاصيل

أصله . سلالاته . موطنه . صفاته

بقلم الكاتبة والباحثة الفرنسية « سيمون لوفلوريال زكري » الاستاذة في جامعة كولبج دي فرانس – باريس

ترجمة : محمد حسين ناصر

« يحكى والله اعلم انه كان في بلد آبائنا العرب ثلاثة اصدقاء من العالمين بالانساب ، وكانوا من اكثر الناس شجاعة وفطنة » .

بهذا كانت تبدأ القصة التي كانت شهرزاد قد عزمت ان تقصها في الليلة السادسة والعشرين بعد الثمانمائة من الف ليلة وليلة قضتها وهي معلقة المصير ... كانت اختها دنيازاد التي تسهر قرب مضجعها قد ايقظتها قبل الفجر ، وكانت هي تعلم ان السلطان شهريار الذي يتظاهر بالنوم سوف يصغي اليها الليلة ايضا كما فعل منذ سنوات ثلاث ، وانه في هذه المرة كذلك ، ولان القصة ستكون طويلة وشديدة التعقيد بحيث تثير اهتمامه ، سوف يأذن لها ان ترجيء التتمة الى ليلة مقبلة .

ولم تكن شهرزاد ، وهي المحنكة بفنون الاغراء ، تجهل ان شهرياراً اعتاد على مر الليالي ان يستمع اليها وهي الصبية الصغيرة ذات الجمال البارع والخصال الحميدة ، التي تعلمت كثيراً بفضل حبها الكبير للمطالعة وذاكرتها العجيبة ، وتضيف القصة ان شهرزاد كانت قد انكبت بنجاح على الفلسفة والطب والتاريخ والفنون واصناف العليم كلها ، وانها كانت تنظم الشعر اجود من افضل الشعراء ، فلا غرابة اذن في ان يصغي الملك بشغف الى الاحاديث الليلية التي تقصها عليه هذه السلطانة التي بلغت الذروة من الجمال والرقة والحكمة والذكاء والتي تعلق بها فؤاده .

وكانت هذه الفتاة الواسعة الاطلاع تعرف كيف تباشر كل المواضيع على نحو لا يتعب اهتمام زوجها وهي تعرف انه اهتمام هش ، اذ كانت حياتها رهناً بذلك ، ولذلك قررت ان تكرس هذا الصباح من صباحات السنة الثالثة للحديث عن الانساب ، وهو علم كان في ذلك الوقت يستأثر باهتمام الناس ، ولا سيما حين يدور حول ثلاثة من المواضيع الاثيرة الى قلب كل أمير عربي وهي الحجارة الكريمة والخيل والنساء .

ولسوف نخص نسب الحصان ، والحصان العربي بخاصة ، ببحثنا فنقول ان هؤلاء العلماء الاصدقاء الثلاثة الذين ذكرناهم آنفاً كانوا منكبين على الخمرة والحشيش ابتغاء للمسرة ، وكان هذا – على ما يقال – يقوي ذكاءهم ويشحذ فكرهم ، غير انهم ولسوء طالعهم قد ازعجوا السلطان بضوضائهم فاقتيدوا الى مجلسه وطولبوا بان يوضحوا سر فعلتهم وان يقدموا انفسهم . فانبرى ثانيهم للجواب وأنشأ يقول :

« أما أنا يا ملك الزمان فانني اعرف انساب الخيول وقد أجمع الناس على أنني اعلم العرب باعراق الخيل وأصولها . فما هي الا نظرة ألقيها حتى اعرف بلا اي خطأ على الاطلاق ما اذا كان الجواد الذي أمامي من خيل عنزه او المطير او اتى من لدن بني خالد او الضفير او جبل شمر . وانا اقدر ان احزر مؤكداً ما اذا كان قد ترعرع في جبال نجد ام في مراعي النفود ، وما اذا كان من سلالة كحيلان العجوز او سلالة صقلاوي جدران او الصقلاوي الشريفي او حمداني السمري او كحيلان الكرويشن » .

وبعد فترة قصيرة من هذا الحديث ، وكان النسابة الحشاش قد احتجز في القصر ، تصادف ان ارسل احد زعماء القبائل الاقوياء الى السلطان هدية يعبر بها عن إخلاصه ، وكانت جواداً كميتاً رائع الجمال مكتمل الاوصاف والصفات ، فاستدعي النساب لابداء الرأي فيه ، وأخطر بان جوابه سوف يقابل بوثيقة نسب الحصان التي كانت موضوعة وفق العادة المطردة في كيس من الجلد الموشى بالفيروز معلق في جيد الحصان ، وإذا ما اخطأ فان الخازوق سيكون مصيره .

القى النسابة نظرة واحدة خاطفة على الجواد الاصيل ثم التفت الى السلطان وقال :

يا ملك الزمان هذا الحصان ذو جمال نادر ومن عرق ممتاز ، اجزاؤه متناسقة ومشيته هادئة وقور وقوته رائعة . ثم راح الرجل يعدد كل الصفات التي تميز بها الجواد العربي الاصيل منذ الجاهلية وكان مما قاله ويوافقه عليه من يعشقون الخيول في ايامنا ويعرفونها ويرون في مقالته مصداقاً لما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* – ولدت الكاتبة والباحثة سيمون زكري في مدينة مولين بفرنسا عام ١٩٤٣ .
– لها مؤلفات عديدة في التراث العربي والاسلامي .
– تميزت مواقفها بالمساندة والتأييد للعرب وقضاياهم المصيرية وعلى راسها القضية الفلسطينية .
– لها مواقف متميزة الى جانب العراق خلال قادسية صدام المجيدة .

يعرفون :

ان منكبه دقيق ، ومتنه مرتفع (وفي الواقع ان للحصان العربي كتفاً ناتئاً او عالياً) وقوائمه كالفولاذ ، وشعره ناعم وثقيل ، أما رأسه ففيه كل الصفات التي تراها في حصان من بلاد العرب ، إذ هو عريض الجبهه بعيد ما بين العينين محدب الجبين (وهذه من علامات أصالة الجواد) . عيناه بارزتان جميلتان كعيون الغزلان وليس حولهما وبر فيبدو الجلد ناعماً اسود لامعاً . (كتب علي بن هذيل الاندلسي في القرن الرابع عشر ان من بين صفات الجواد العربي اتساع عينيه وبريقهما وانهما فاحمتان ولهما نظرة ثاقبة ، والمسافة واسعة بين العينين والاذنين) . وتابع النسابة يقول في وصف الجواد الذي امامه : « ان الوجه يضيق في اسفله ، (حتى ليقال اليوم ان طرف شفته السفلى يجب ان تحتويه كف الانسان اذا كان اصيلاً او من عتاق الخيل) ، وان الشفة السفلى من الفم يجب ان تكون اوسع من الشفة العليا ، اما اذناه فتكونان عريضتين طويلتين ناعمتين مفصلتين تفصيلاً دقيقاً متقناً كاذني الظبي ، اما لونه الكميت فهو سيد الالوان جميعاً » ..

هذا النص الذي نقلنا لكم طرفاً منه يعطينا بصورة غير مباشرة قدراً عن اصل هذا الحصان العربي الاصيل وتاريخه وبذاته ، إذ هو الجد الاعلى لكل اعراق الخيل وهو الذي اسهم كل الاسهام في تحسين خيول الركوب والسباق حتى ايامنا هذه . ان هذا الجواد الاصيل هو الذي ما زلنا نعشقه وليس أدل على ذلك من هذه الاسعار الخيالية التي تدفع ثمناً له في المزادات والتي تبهر الناس فيتناقلون حديثها .

لقد حفلت حكايات الف ليلة وليلة بسرد مستفيض عن الحصان ولكثير من الدعابات حوله ، وليس هذا عجيباً لان الادب العربي والاسلامي حافل بالاشارات الى هذا الحيوان الذي يعشقه العرب اكثر مما يعشقون النساء ، اذ هو الرفيق الامثل في الصيد وفي القتال وهو القوي الوفي الحكيم . ألسنا نسمع عنترة بن شداد فارس بني عبس يقول متهكماً وناصحاً .

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ،

ان كنت جاهلة بما لم تعلمي ؟

فالابجر حصان عنترة كان معروفاً لدى كل القبائل البدوية وتقول بعض الروايات ان هذا الحصان عندما مات صاحبه عنترة فر الى الصحراء حزيناً مستوحشاً وعاد برياً ، وكان الابجر اسود حالكاً كالليل ، تتصدر جبينه غرة بيضاء كنجمة الراعي ، وقوائمه صلبة كالفولاذ ، وحافره صغير كحجم الدرهم ، واذناه مستقيمتان كانهما القلم ، ولطالما اشتهاه كسرى ملك الفرس وقيصر ملك الروم . وكان الابجر قد اعطي لعنترة اعترافاً بعتقه وانه اصبح حراً .

اما داحس وهو الحصان الذي ينحدر من سلالة عوج الذي كان في البداية لدى قبيلتي بني سليم وبني هلال وكان جده (ذو العقال) ينتمي لبني رياح وبني اربعة ، فقد قامت من اجله بين فرسان عبس وذبيان حرب استمرت عشرين عاماً تمزقت فيها قبيلة بني عليان التي ينتمي اليها الطرفان . ولذلك نجد انساب الخيل التي تنتمي الى هذه العائلة الكبيرة من الخيل العربية قد ضربت جذورها في الاشعار الجاهلية .

لقد كان هناك في البداية حصان بري يطوف ويجول في ارجاء آسيا ، فقام رعاة من المغول والاريين بترويضه وجعله اليفاً ووصل معهم الى بلاد الشام ويبدو ان قصة الحصان مرتبطة بتاريخ الانسان ، واكثر من هذا فان قدر الحصان يدين برمته للحضارة البدوية في بلاد الشام . ويرى البعض ان الهكسوس قد اخذوا حصاناً او (اثنين) الى مصر ثم منها الى بلاد المغرب ، وكان هذا الحصان ذا وجه تراه من الجانب مستطيلاً ، وله متن مستقيم وذيل طويل بعيد عن جسمه ، فتناثرت سلالته في الصحارى الجنوبية من الهلال الخصيب ، كما يقال ان النبي سليمان اعطى اتباع ملكة سبا مهراً يدعى (زاد الراكب) فكان هو الجد الاعلى لسلالة الحصان العربي . واذا ضربنا صفحاً عن هذه التفاصيل ، فمن المعروف ان العرب الذين ينحدرون من ابراهيم الخليل واسماعيل (عليهما السلام) قاموا منذ القرنين الثالث والرابع بتربية الخيول والافراس الى جانب الجمال ، ومن سوريه انتقل الحصان الى الجزيرة منذ نحو الفي عام ، ويحكي ليون الافريقي خلال وصفه لافريقيا رايه في كيفية ظهور الحصان العربي في الشرق الادنى فيقول :

« في سوريه وفي مصر وصحراء الجزيرة واليمن السعيد ، كانت الخيول التي تتميز بالرشاقة والسرعة تدعى بالخيول العربية . ويرى المؤرخون ان هذه الفصيلة جاءت من الخيول البرية التي كانت تهيم في صحارى الجزيرة ثم قام العرب بترويضها منذ زمان اسماعيل ، ومنها انتشرت الخيول الى افريقيا باسرها » .

وعلى هذا فان حصان السباق الخفيف السريع قد ظهر في الشرق الادنى ، وقد سمي بالحصان العربي وقد ظل يصنف تحت هذا الاسم الى الآن بكل انواعه المعروفة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد اكتشف الاوربيون هذا الحصان ذا الاصل الرفيع في القرن الثامن عشر. فالمكتشف (فنيبور) اشترى من العراق الحصان المسمى (كحيلي) ، ومن حلب اشترى الحصان الذي منه ولد الحصان الانكليزي الاصيل (دارلي العربي) .

وفي عام ١٨٤٣ ارسل ابراهيم باشا ستة وثلاثين مهراً وفرساً الى فرنسا لتحسين انواع الخيل الفرنسية حتى قيل انها كانت اثمن واجمل ما راينا وما حلم الانسان في اي وقت ان يرى مثل هذا القدر من الجمال مجسداً حياً امامه . وكانت جميعها تنحدر من الخيل التي تلقاها باشا مصر كغنيمة حرب من عشائر ابن سعود وهي المعروفة تقليدياً تحت اسم (عنزه) وهي القبيلة الكبيرة الشهيرة التي جاء النساب على ذكرها في بداية موضوعنا ، وتتمركز بوجه خاص بين حلب وفلسطين وبغداد . فقد اشتهرت بانها تربي الخيول العربية واليها يرجع الفضل في محافظة الحصان (العربي) على نقائه .

وتحمس نابليون بونابرت لتربية هذا الحصان الاصيل ، فقال لمن حوله يوماً : يا سادة ، « ان الحصان العربي احسن الف مرة من احسن حصان انكليزي اصيل اذا شئتم ان تحسنوا اي سلالة من الخيول » . ولقد كان بونابرت ينطلق عن معرفة ودراية ، اذ كان يركب نماذج رائعة من الخيول المستوردة المشتراة او المهداة اليه سواء في حملته على مصر حين كان يمتطي جواده المسمى (عالي) في الاستعراضات او في مارنغو في روسيا حيث كان يمتطي فرساً ولدت عام ١٨١٨ وكان ابوها المهر المفضل لدى الشيخ بشير زعيم الدروز آنذاك ، وكانت قد اهدته اليه الليدي ستانهوب التي اشتهرت باسم (سيدة قصر لبنان) وكانت قد انشات مرابطها في جبل لبنان في (دير عبره) ...

وفي مصر ايضا اقامت آن بلونت والسير ويلفريد مرابط شهيرة حفلت بخيول جيء بها من شمالي الجزيرة ومن سوريا . وكانت هذه الخيول من فصيلتين هما الصقلاوي والمنيقي وهذا التفصيل يعود بنا الى حكاية شهرزاد ... فقد قال النسابه الذي تحدثت عنه « انني اعرف من اين جاء هذا الحصان ، فقد كان الحصان المهدى الى السلطان في الحكاية قد اتى من وسط الجزيرة ، وفي الاصل ان الحصان العربي المتعارف عليه (والذي يجب تمييزه تماماً عن حصان افريقيا الذي لا يمكن ان يعتبر اصيلاً حتى ولو كان قد دخل في اصله من اجل تحسينه خيول عربية اصيلة) قد اتى من جنوب الجزيرة . فالاصيل العربي الذي ينحدر من هذه الخيول يتصف بصفات مميزة وفريدة تجعله يرتبط بفرع كحيلان ، وهو الذي تقول الاسطورة قد ولد من فرس اسماعيل (ع) ، والذي قيل انه كان اول من ركب مهراً اصيلاً مولوداً من الفرس (كحول) وقد سميت كذلك بسبب جلدها اللامع الفاحم وعينيها الكبيرتين اللتين تحيط بهما الزرقة ، ويقال ايضا ان النبي اسماعيل كان قد اختار خمساً من الافراس هي التي اعطت اسماءها للفروع الخمسة من الجياد العربية التي سماها النسابة في حكايتنا وهي كحيلان العجوز وصقلاوي جدران والبقيه . وكانت سلالة الصقلاوي تعد من اجمل الخيول وتمتاز برشاقتها الانثوية ، وهيكلها العظمي الدقيق الصلب كالفولاذ كما قال النساب . اما الكحيلان وهو عالي المتن فهو من الخيول التي تركب ويستفاد منها في المعارك . ولم يكن بوسع النسابة ان يتحدث عن المنيقي اذ انه ظهر في القرن الثامن عشر وهو من خيل السباق وهو طويل الجسد عالي المتن وله راس اطول واضيق ، وقد حصل عليه مربو الخيول من قبيلة عنزة عن طريق تلقيح افراسهم بمهر تركماني جاء من الضفاف اليسرى للفرات ، ولذلك فهذه الخيول القادمة من الشمال تسمى احياناً (الشمالية) .

ان التحمس للحصان العربي ، بالرغم من بعض الهبوط في الاهتمام به لفترات معينة ، ما زال ينمو ويتسع في اوربا وامريكا على حد سواء . فاذا كان الملوك قد اهتموا بتربيته في القرن الثامن عشر ، ومرابط سان كلو ويومبالرور قد انشئت من اجل تبني الحصان العربي ، فان القرن التاسع عشر هو الذي شهد مضاعفة المبادرات في هذا السبيل ، وقد ظلت فرنسا بلداً عظيم الشهرة فيما يتعلق بنوع هذه الخيول ، بينما تخصص اصحاب الاصطبلات الامريكيون بخيول السباق للمسافات القصيرة ، غير انه توجد كذلك مرابط كبيرة في اسبانيا (ماربيلا ومزارع الغاخان) ، وفي انكلتره وكذلك في ايرلندا . وتنتشر بصورة منتظمة شجرات نسب هذه الخيول الاصيلة (العربية) وغيرها ، والكتب السنوية التي تتعلق بها تنتشر في الولايات المتحدة وانكلتره وكندا وغيرها .

اما بالنسبة للغة العربية فانها غنية بالمفردات القديمة الكلاسيكية والحديثة المتعلقة بهذا الحصان (العربي) سواء بصفاته او سلالته : فهو الكحيل والعرب ، والفرس ، والحر النبيل ، والعريق المنسوب ، والذي له اصل يمكن الرجوع اليه كالكحيلان ، والاصيل ، وكحيلان العجوز ، وهو ابن الارومة القديمة ، والعتيق والصافي ، وغيره ...

وكذلك فما اكثر الاشارات في النصوص المتعلقة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالحصان والتي يلقيها المختص لمجرد نظرة تلقى اليه ، فنظرة واحدة تكفي المشتري ، وهي نظرة تلقى بلا اهتمام متكلف الى راس الحصان ، وحين يقال راس الغزال ، وجانب الوجه المقعر والانف المرتعش ، والاذنين التي ترى احداهما الاخرى وتسممها ، فانها تشير الى الحيوان الذي له مظهر قوي ولكن هادىء كما جاء وصفه في الحكاية . ولا ريب في ان حصان السلطان كان جميلاً ولكن النساب حين قال ان الحصان فيه عيب . فلما جاءوا ليضعوه على الة التعذيب كانت قد بقيت لديه بقية من قوة جعلته يصيح بالملك : انظر الى حوافره . ويا للهول فقد كانت مشققة . فقد كان قد اغرى وحشاً بحرياً ليس كثير الهول فجاء منه هذا المهر ، وعندئذ لم يزل اعجاب السلطان . ولذلك فاذا كان الحجر الكريم فيه نقص ، والحصان كان هجيناً ، والمحظية مثلهما ، فان المسألة تبلغ غاية الرعب . ولكن السلطان نفسه كان هجيناً اذ كان ولداً غير شرعي من علاقة بين الملكة والطباخ ، ولذلك اضطرب السلطان وفضل ان ينفي نفسه ، فسافر كثيراً وغامر كثيراً ، ويقال ... ولكن الله اعلم .

كلمة لابد منها :

اعتمدنا من اجل هذا المقال على مصادر عديدة لا يمكن ان نشير اليها هنا ، ولنقل فقط ان الادب العربي في جميع مراحله تضمن احاديث كثيرة عن الخيل : فهناك كتاب الخيل ، واشهر منه : « لامة الفرسان » للهذيل الاندلسي الذي ترجمه (مرسيه) ... وهو الذي ربى حفيد هارون الرشيد وعلمه وكان عالماً بالخيل ، ويمكن الرجوع الى كتاب (كارل كسوان) وعنوانه (الخيول العربية) وكتاب (نيكول دو بلوماك ودنيس بو غروس) عن الحصان العربي او الخيول الاصيلة وهو كتاب يمكن الحصول عليه من المكتبات بسهولة .

واتقدم بالشكر الجزيل للسيد ويليام ريشاردو دو شوازي الذي تكرم بالقاء نظرة على هذا التقرير واعطاني الصور المناسبة له . والمذكور هو المسؤول عن المناسبات والصالات الخاصة بالحصان والحصان الصغير ومؤلف كتاب عن الحصان العربي وهو كذلك حكم دولي في مباريات سباق الخيول .

صدر عن دار الشؤون الثقافية العامة

دراسة

جنس النص النثري العربي

« الامتاع والمؤانسة »

انموذجاً

د . حسين حمزة حمود الجبوري

كلية التربية للبنات ـ جامعة الانبار

١ ـ ١ . الجنس في اللغة « الضرب من الشيء . وهو أعم من النوع »[١]

أما في المصطلح النقدي فانه « أحد القوالب التي تصب فيها الآثار الادبية »[٢] وكانت قضية الاجناس الادبية قد شغلت النظرية النقدية الكلاسيكية منذ وقت مبكر ، اذ ميز أفلاطون وأرسطو الاجناس على أساس المحاكاة ، والتجربة الذاتية للشاعر . وذكر بعض الاجناس منها الشعر الغنائي والشعر الملحمي[٣] .

وكانت فكرة الفصل بين هذه الاجناس واضحة ومهيمنة على النقد الكلاسيكي . اما النظرية النقدية الحديثة التي تتبعت هذه الفكرة ـ الفصل ـ ومختلف التطورات التي أثرت على الادب واجناسه ، فقد كشفت قصور الافكار القائلة بفكرة الفصل[٤] . فكان التداخل في الاجناس في النص الادبي الواحد مثار إهتمام النقد ، لان هذا التداخل يكسر الحدود ، والقوانين الحاكمة للجنس الادبي المخصوص ، وبذلك تعددت اختصاصات الاديب . وفي هذا الصدد يقول موريس بلانشو عن الاديب هرمان بروخ : « لم يكن روائياً حيناً ، شاعراً حيناً ، كاتباً مفكراً حيناً ، وانما كان كل هذا في الوقت نفسه . وغالباً ما يكون ذلك في الكتاب نفسه ، فهو قد تعرّض لما تعرّض له العديد من الكتّاب في عصرنا الحاضر ، وتعرّض لذلك الضغط الادب الذي لم يعد يحتمل التفرقة بين الاجناس »[٥] .

وفي ظل هذه الظروف ، ومتغيرات العصر الحضارية والفكرية . بدا واضحاً ان جنس « النص » يمكن ان يكون بديلاً لفكرة الفصل ، هذا الجنس الذي يمكن ان نلخّصه بانه تمثّل وامتصاص لاجناس أدبية مختلفة في نصّ واحد ، فتظهر على أساس تشكلها ونوعها الاصلي ولكن في إطار جنس أدبي جديد : وبذلك فهو جنس جديد يتألف من نصوص عدة ، منها أدبية ، وأخرى غير أدبية ، ولكن تظل السمة المهيمنة على باقي السمات الاخرى ، الادبية / الشعرية[٦] .

لقد تعرض الاديب العربي في العصر العباسي لظروف ، وظغوط مشابهة لما تعرض له الاديب الاوربي في العصر الحديث . ونتيجة لهذه الظروف نشأ جنس نثري أدبي جديد في أدبنا العربي يأخذ من كل علم بطرف . بعدما كانت ثقافتنا الادبية العربية تنفرد بجنس الشعر فحسب . وبدت نظرة الناقد العربي للنثر دونية : وهناك اسباب مختلفة لهذه النظرة . من جملتها نظرة القيود ، والحدود التي تصاحب الشعر من خلال الوزن الذي يؤدي الى ترابط الكلام . ويحافظ عليه من التشتت والضياع[٧] في حين يخلو النثر من هذه القيود ، فيتبعثر الكلام فيه ويتشتت . يقول مسكويه ، ان الشعر والنثر : « يشتركان في الكلام الذي هو جنس لهما ، ثم ينفصل النظم عن النثر بفضل الوزن الذي صير المنظوم منظوماً ، ولما كان الوزن حلية زائدة ، وصورة فاضلة على النثر صار الشعر أفضل من النثر من جهة الوزن ... »[٨] ، فضلاً عن ذلك فاننا وجدنا ان الناقد والاديب العربي لم يفصّل في النثر ، ولم يميّزه بين أنواع النثر . فمنهم من يفضل النثر على الشعر على اساس ان النثر يعد صلة الوصل المعرفية بين الشعوب ، فالمعارف كلها انتقلت من خلاله ، وليس من خلال الشعر ، ويتضح من هذا ان هؤلاء لم يكن يقصدون بكلامهم النثر الادبي[٩] ، لأن أهداف الادب المتعة الجمالية ، وليس نقل المعارف ، ومن ثم فان هذا الكلام يخص النثر العلمي غير الادبي فهو الناقل للمعارف والخبرات ، ومن ثم فان المفروض في الموازنة ان تكون بين أجناس الادب بسبب الاختصاص في القصد .

ان القصور في تحديد جنس النثر الادبي قد لفت نظر أحد النقاد المعاصرين فقال لو أجرينا موازنة « بين ما ألف حول السرد ، وما ألف حول الشعر ، فانه لا يسعنا الا ان نسجل (الضيم) الذي لحق السرد ، ما أكثر الكتب التي تعنى بتاريخ الشعر العربي ، امّا السرد فلا أحد إهتم بتتبع مراحله وابرز أساليبه ... »[١٠] .

٢ ـ ١ . لقد نشأ جنس النص النثري كما نجترح له هذا المصطلح ـ عند الجاحظ واكتمل كما نعتقد ـ عند أبي حيان التوحيدي . وكان التوحيدي من المعجبين بالجاحظ حيث يقول عن منهبه : « انّ منهب الجاحظ مدبّر باشياء لا تلتقي عند كلّ إنسان ولا تجتمع في صدر كلّ أحد : بالطبع والمنشأ ، والعلم والاصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ ، وهذه مفاتح قلما يملكها واحد ، وسواها مغالق قلما ينفك منها واحد ... »[١١]

وقد أسس هذا الجنس سياقه الخاص الذي هو « المرجع الذي يحال اليه المتلقي لكي يتمكن من إدراك مادة القول ... »[١٢] وشفرته وهي « الخصوصية الاسلوبية للنص ،

ولابد لهذه الشفرة ان تكون متعارفة بين (المرسل) و(المرسل اليه) تعارفاً كلياً ، او على الاقل جزئياً »[١٣] . ويتبع ذلك قبول الثقافة والادب العربي لهذا الجنس الجديد ، واسباغ الشرعية عليه ، فالكلام لا يصير نصاً « الا داخل ثقافة مسيذة »[١٤] . وفي هذه الحالة لا يكون هدف النص نقلاً للافكار ، والمعارف لانها ليست من اختصاصه ، وانما تكون مهمته الاساسية غرس قوانين الجنس الجديد في عالمه الثقافي والفكري المخصوص ، وتحقيق المتعة والنشوة التي يسعى اليها الادب . وقد أخذ هذا الجنس شرعيته من خلال تعدد الابداعات التي انتجها المبدعون العرب ، وتوالي انتاجها على مختلف عصور الادب والثقافة العربية . ومن خلال استقراءتنا لهذا الجنس استطعنا تحديد سماته ، وطبقناها على كتاب « الامتاع والمؤانسة » بوصفه إنموذجاً ابداعيا عالياً ، عند أديب عربي كبير هو التوحيدي . الذي عُرف بقدرته الادبية الخيالية والتخريفية الواسعة ، فاتهم بالكذب والزندقة ، والطعن بالآخرين ، فكانت هذه الصفات بحسب القوانين العرفية الاجتماعية منبوذة ، ومرفوضة ، ولكن في قوانين الادب تعد مثالاً وانموذجاً للاديب الناجح ، لا بصفات التوحيدي في العرف الاجتماعي ، وانما لان الخطأ الذي وقع فيه الدارسون أنهم لم يميزوا بين كتاباته الادبية ، وبين شخصيته . ولذلك فان كل صفات التوحيدي التي حددها الدارسون انما هي مستقاة من الادب ، وهذا مذهب غير صحيح ، اذ نعتقد ان هذه الصفات هي جزء أساسي من مذهبه الادبي وليس الشخصي . ولذلك تناولنا عمله من خلال الادب وسماته متجاوزين شخصيته الواقعية . لان ما يهمنا هو تحديد جنس النّص النثري الذي أبدع فيه .

١ ـ٢ . تتحدد سمات الجنس النثري العربي في :

أ ـ العنوانات : وجدنا ان العنوانات كافة تشمل موضوعات مخصوصة ، فيقوم الكاتب بالتقيد بهذا العنوان ، ومن ثم يجعل كل النصوص في الكتاب من شعر ، وسيرة ، وتفسير ، وحكايات في خدمة ذلك العنوان . ولهذا تتداخل الاجناس الادبية ، وغير الادبية لتكوّن الجنس النثري . أو تحديداً جنس النصّ .

وكان عنوان « الامتاع والمؤانسة » قد ارتبط بالجودة ، والظرف والانس .

فالامتاع في اللغة من مَتَعَ الرجل ، ومَتُعَ : جاد وظرف « وقيل هو ماتع ، والماتع من كل شيء ، البالغ في الجودة الغاية في بابه ... »[١٥]

نلحظ ان الجودة ترتبط بحسن الصياغة ، وبلوغ الصنعة منتهاها ، ومن جراء ذلك تتحقق الظرافة ، والراحة والفائدة . أما المؤانسة : فانها تحمل دلالة التعود على الشيء ، والفرح به ، والراحة منه ، وقد وردت لفظة الانس ، والمؤانسة بخلاف الوحشة[١٦] .

ان سياق الفضاء الزمني في عنوان الكتاب يرتبط بالليل المقترن بالاسمار ، والحكايات المولدة للراحة والفائدة ، فقد كان للعرب « قصص وأحاديث وأسمار وخرافات وأساطير يقضون بها أوقات الفراغ ، ويصورون بها عاداتهم وطباعهم ، وغرائزهم من حيث لا يقصدون ، ففي أي بقعة من البقاع العربية نجد الناس يسمرون تحت ضوء القمر في ليالي الصيف ، أو حول المواقد في الشتاء ـ »[١٧]

وإذا كانت هذه الاسمار والاحاديث التي تجري في مضافة القبيلة من أجل السمر ، واللذة والمتعة والموعظة والحكمة ، فان الحكايات التي تجري في قصر الخليفة أو الملك أو السلطان ، أو الامير أو الوزير ، تختلف عن حديث القبيلة في تنظيمها وفائدتها وهدفها ، واحتوائها على فنون القول الادبي البليغ . فهذا الخليفة أبو العباس السفاح يقول عن مجالس العلم بانها تزيد الانسان علماً وفهماً ، فيقول : « انما العجب ممن يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلاً ! فقال له أبو بكر الهذلي : ما تاويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال بترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ويدخل الى إمرأة او جارية فلا يزال يسمع سخفا ويروي نقصاً »[١٨] كما ان هذه المجالس والمسامرات تفضي الى حراسة السلطة ، اذ يظل السلطان ساهراً بعيداً عن الذيم من أجل الحفاظ على حياته ، ودولته وسلطته من غدر الغادرين فقد كان للاسكندر « قوم يضحكونه ويخرفونه ، لا يريد بذلك اللذة ، وانما كان يريد الحفظ والحرس »[١٩]

ولهذا كانت هذه الاحاديث ، وحكايات السمر والليالي ، العنصر الرئيس في جنس النص النثري لاسيما ان لاحاديث الليل الطويلة استطرادات كبيرة على مختلف العلوم ، للاستمرار في البوح والاستماع ومجافاة الملل ، يقول الجاحظ في الحيوان « ولاباس بذكر ما يعرض ، ما لم يكن من الابواب الطول . التي ليس فيها الا المقاييس المجردة ، والكلامية المحضة ، فان ذلك مما لا يخفّ سماعه ولا تهش النفوس لقراءته ، وقد يحتمل ذلك صاحب الصناعة ، وملتمس الثواب والحسبة (...) فمتى وجدنا من ذلك بابا يحتمل ان يوشّح بالاشعار الظريفة البليغة ـ تكلفنا ذلك »[٢٠] غير ان هذه الاستطرادات جميعاً يجب ان تكون في خدمة العنوان . ولا تشذ عنه ، ومن ثم فان هذه الاستطرادات أدت الى كسر قوانين الاجناس المختلفة فتداخلت في النص النثري . فاخذ هذا الجنس من كل علم بطرف . ولذلك اتسمت موضوعات « الامتاع والمؤانسة » بالجدية والمسؤولية والمتعة لانها مقدمة لوزير وصديق له دالة على التوحيدي . فتحققت علاقة مع المرسل اليه على أساس معرفة سياق هذا الجنس الادبي الجديد .

ب ـ طلب التأليف : لقد صنعت هذه النصوص بناءً على طلب موجه من خليفة أو أمير او وزير او صديق الى المؤلف / الناشر . وسواء أكان هذا الطلب حقيقياً أم كاذباً ، وسواء أكانت الشخصية الطالبة حقيقية ام غير حقيقية فان هذا الامر يمثل

احدى سمات الجنس الجديد الاساسية . اذ يقوم الطالب اللغوي ـ الموقع الاجتماعي والسياسي ـ بطرح سؤال ، ويريد من الكاتب / الناثر الاجابة عليه من خلال رسالة أو رسائل / كتاب[٢١] .

كما ان هذا الطالب قد يتدخل في طريقة عمل الكاتب لانجاز كتابه . فقد طلب أبو عبد الله العارض من أبي حيان التوحيدي ان يمتعه بحكايات يسمره فيها ، ويسرد عليه كل ما هو جميل ، وفيه فائدة ، فيقول في الليلة الاولى للكاتب « ـ تاقت نفسي الى حضورك للمحادثة والتأنيس ، ولا تعرف منك أشياء كثيرة مختلفة تردد في نفسي على مر الزمان لا أحصيها لك في هذا الوقت ، لكني أنثرها في المجلس بعد المجلس على قدر ما يسنح ويعرض » ثم يحدد المنهج الذي ينبغي على أبي حيان اعتماده في سرده ، « فاجبني عن ذلك كله باسترسال بال ؟ بملء فيك ـ ودع عنك تفنن البغداديين ـ مع عفو لفظك ، وزائد رايك ـ وبالغ اذا وصفت ، وأصدق اذا أسندت وأفصل اذا حكمت ... »[٢٢]

وهناك طالب آخر لتاليف الكتاب وتسجيل حكايات الليالي التي جرت في مجلس الوزير ، هو أبو الوفاء المهندس ، وكان طلبه يحمل تهديداً ووعيداً ، لابي حيان في حالة عدم تنفيذ رغبته .[٢٣]

فيقول ابو حيان على لسان أبي الوفاء :

« قلت لي ـ أدام الله توفيقك في كل قول وعمل ، وفي كل رأي ونظر ، انك تعلم يا أبا حيان انك انكفات من الري الى بغداد في أواخر سنة سبعين بعد فوت مأمولك من ذي الكفايتين (...) فارعيتك بصري ، وأعرتك سمعي ، وساهمتك في جميع ما وقرته في أذني بالجزع والتوجع والاستفظاع والتفجع (...) وعهدك الحديث العارض (...) وجهلت ان من قدر على وصولك يقدر على فصولك . وان من صعد بك حين أراد ينزل بك اذا شاء ، وان من يحسن فلا يشكر ، يجتهد في الاقتصاد حتى يعذر »[٢٤] .

ويرى عبد الكبير الخطيبي ان هذا الطلب المصحوب بالتهديد أحد سمات السردية العربية ، اذ ان صيغة « إحكي حكاية والا قتلتك »[٢٥] في حكايات الف ليلة وليلة تنطبق على تهديد ابي الوفاء التوحيدي .

أما بشان وجود هذين الشخصين تاريخياً ، فا... يؤكد على حقيقة أبي الوفاء ، في حين ان ابا عبد ا... شخصية وهمية ، ولا نجد لتاويلات أحمد أمين / ... الكتاب / من تسويغ فهو يقول : « لقد بحثت عنه في مظانه فلم أوفق الى العثور عليه ، وقبل ذلك عني المرحوم أحمد زكي باشا بالبحث والسؤال من بعض علماء الشرق والغرب فكان حظه حظي ـ وأخيراً رجحت انه هو الوزير ابو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة البويهي (...) وكلمة (العارض) كما في كتاب (الانساب للسمعاني) معناها (من يعرف العسكر ويحفظ أرزاقهم ، ويوصلها اليهم ، ويعرض على الملك اذا أحتيج الى ذلك) فالظاهر ان الوزير ابا عبد الله لقب هذا اللقب أما لانه تولى هذا العمل قبل ان يتولى الوزارة ، أو كان هذا لقباً لاسرته .. »[٢٦] .

ونحن نعتقد ان هذا التأويل خارجي ، وغير مسوغ ، ولا يخدم النص ايضاً . اذ لو كان التوحيدي قد كتب الكتاب للوزير الحقيقي تاريخياً ، فلماذا لا يذكر هذا الامر وهو مدعاة للفخر ، ولذلك نجد ان هذه الشخصية وهمية ، وهي جزء من سياق النص النثري . ونعتقد ان صفتي العارض والمهندس ، هما صفتان رمزيتان تخدمان القصد التاليفي ، وهيكلية النص من خلال التنظيم والتحديد ـ الهندسة ـ من جهة ، والعرض الشامل في النص لأمور الدين والدنيا ، الشعر والنثر الادب والمنطق ـ العارض ـ من جهة أخرى .

ومعنى هذا الامر ان التوحيدي لم يكن معنياً بالحقيقة بقدر مايعنيه خلق سياق لنص أدبي جديد ، وقد فات هذا الامر الدارسين لانهم ناقشوا التوحيدي ، وكانه يكتب نصاً معرفياً / علمياً وليس أدبياً . ان الادب ياخذ من الحقيقة الكثير ، وذلك للفارق بين فكر الكاتب الاولي ، وما يسطره في النص . لضرورات العناية بقواعد البناء الفني .[٢٥]

يقول ابو حيان لابي الوفاء بهذا الصدد : « ان الكلام صلف تياه لا يستجيب لكلّ انسان ، ولا يصحب كلّ لسان ، وخطره كبير ، ومتعاطيه مغرور ، وله أرن كارن المهر ، وأباء كاباء الحرون ، وزهو كزهو الملك ، وخفق كخفق البرق ، وهو يتسهل مرة ، و يتعسر مراراً ، (...) والوهم شديد السيلان ومجراه على اللسان ، اللسان كثير الطغيان ، وهو مركب من اللفظ اللغوي والصوغ الطباعي ، والتأليف الصناعي ، والاستعمال الاصطلاحي »[٢٧] . وهذا يعني ان الصناعة اللغوية الادبية هي المقصودة في العمل الفني لا الحقائق المجردة .

جـ : الراوي والمروي له : يظهر الراوي في هذه النصوص على مستويات مختلفة ، شان الاعمال السردية ، مرة يكون الراوي مؤلفاً ، ومرة أخرى يكون شخصية وهمية .

ولكن الدراسات النقدية الحديثة التي اهتمت بالسرد ، أكدت الراوي الحقيقي الذي يكون مقابلًا للقارىء أو المروي له الحقيقي ، والراوي الخيالي الذي هو الذات الثانية للراوي الحقيقي ، وهذا ... يكون ورقياً يقابله المروي له الضمني الذي هو الاخر ... من أسطر وورق . ثم أكدت هذه الدراسات على الراوي المشارك للحدث ، والاخر المفارق والراوي الموضوعي .

ولما كان « الامتاع والمؤانسة » أحاديث سمر ليلية شفاهية تحتوي ، على السرد ، فان الراوي والمروي له يرتبطان

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

بوجهة نظر محددة ، وهي طريقة تقديم الحكاية للمروي له . أو المرسل اليه / القارىء والمستمع ، والمخصوصة بالكتابة والسرد الشفاهي وهي بنية تعاقدية .

واذا طبقنا هذا التحديد على الرواة والمروي لهم في كتابنا ، يطالعنا الراوي الحقيقي / التوحيدي ، والمروي له / المهندس . ويجري بين هذين الشخصين عقد على الحكاية ، والبث الاخباري لكل ما يجري في قصر الوزير .

وفي فكرة التعاقد يفوض الطرف الاول / التوحيدي شيئاً من سلطته الكتابية للطرف الثاني / أبي الوفاء ، وذلك عندما سمح له / التوحيدي تحديد المنهج الذي يريده . ولكن التوحيدي يضع في مقابل ذلك قوة سلطته في صياغة النص منذ البداية قائلاً « هذا وانا أفعل ما طالبتني به من سرد جميع ذلك ، الا فان أنذت جمعته كله في رسالة تشتمل على الدقيق والجليل والحلو والمز ، والطري والعامي ، والمحبوب والمكروه . »[28]

أما المؤلف الضمني الذي يولد في لحظة قراءة النص السردي ، فانه الشخص المحاور للوزير ـ المروي له ـ الذي هو الاخر كائن خيالي يعيش داخل السرد . وبذلك فهما يمثلان حضوراً مجسداً وممسرحاً في شكل شخصيتين فنيتين ولذلك فان مستويات الراوي في الامتاع ... هي :

١ ـ الراوي المشارك في الحدث السردي ، وهو هنا الراوي الضمني الذي يسرد ويحاور الوزير عن أحداث شارك فيها مشاركة فعلية فهو يحاور الوزير في الليلة الخامسة والثلاثين ، ومن ثم يحاور أبا سليمان المنطقي للحصول على الاجابة للاسئلة التي طرحها الوزير : « ثم ناولني رقعة بخطه فيها مطالب نفيسة تاتي على علم عظيم ، وقال باحث عنها ابا سليمان وابا الخير ومن تعلم ان مجاراته فائدة من عالم كبير ، ومتعلم صغير (...) وكان في الرقعة »[29]

فكانت الرقعة التي تحتوي على مجموعة من الاسئلة لينقلها التوحيدي الى ابي سليمان المنطقي ، ليحصل على اجابات لتلك الاسئلة ، ليعود بها الى ابي عبدالله العارض . وهنا لا يكون للراوي من عمل سوى نقل الاسئلة والاجوبة . ولكنه يظل مشاركاً في الحدثين مع الوزير ومع أبي سليمان . ووجدنا في هذا السياق حذفاً للحظة الزمنية ، فهو لا يصف كيف وصل الى أبي سليمان ، ولا كيفية عودته ولا الساعة التي قضاها عند أحدهما . وهذا الحذف يشكل ظاهرة أسلوبية في الكتاب ، اذ لا نجد لحظة زمنية او زمناً واضحاً الا في أمر واحد ، هو ارتباط الحكايات بالليل .

٢ ـ الراوي المفارق للحدث : ياخذ الراوي المفارق الاول وظيفة الناقل والسارد للاحداث ، وكانه مؤرخ عن الشخصيات او الرواة المشاركين في الاحداث التي يرونها ، ولكن هذا الراوي لم يشترك في صنع الاحداث او يشاهدها . فهو هنا يعرف الاحداث من خلال الراوية التي يستمع اليها من الشهود / الرواة المشاركين .

ففي الليلة السادسة والثلاثين ينقل الراوي المفارق عن المروي له الذي يصبح هنا راوياً عن الوزير الحاتمي «قال : ورأيت الحاتمي ، يقول عشر كلمات جاءت عينها عين ولامها واو ، ولم أوثر شرحه ولا فائدة الا وهي معه فهل في حفظك هذه الكلمات ؟ »[30]

فالرواية نقلت من الماضي ، ولم يعرفها الراوي المفارق ، ولكنه نقلها على لسان الراوي المشارك / الوزير .

٣ ـ الراوي الموضوعي : يختفي الراوي الضمني خلف كلماته حتى لا يسمع له صوت ، فيقوم بلعب دور تنظيمي فقط ، وهذا ينطبق على رواية الليلة التاسعة عشرة التي يعلن انها كتبت وتليت على مسامع الوزير : « ورسم بجمع كلمات بوارع ، قصار جوامع ، فكتبت اليه اشياء كنت أسمعها من افواه أهل العلم والادب على مر الايام في السفر والحضر ... »[31]

ء ـ السند : كان لسياق الرواية الشفاهية والدينية أثر كبير في سياق السرد العربي على نحو عام[32] ، ومنها النصوص النثرية .

ففي السرد الشفاهي يسند الراوي حكايته الى رواة عدة من أجل تاكيد صحة الحكاية ، سواء أكان هذا الاسلوب يخص الاحاديث النبوية الشريفة ، أم في حكايات التاريخ ، أم حكايات السمر والليالي . وقد انتقل هذا الاسلوب الى مختلف العلوم العربية ، في كتابنا « الامتاع ... » يعد الراوي الضمني سنداً في سلسلة الرواة الذين ينقلون الحدث ، بينما الراوي الحقيقي / التوحيدي يكون المسؤول الاول في ايراد السند في النص . فالراوي الضمني ينقل الاحداث والاخبار والشعر مسندة ، وقد أكد كل من أبي الوفاء ، وأبي عبد الله العارض ضرورة الاعتناء بهذا الامر في سرد الليالي ، فيقول : « وليكن الحديث على تباعد أطرافه واختلاف فنونه مشروحاً والاسناد عالياً متصلاً »[33] . ويذهب ابو عبد الله الى المذهب ذاته ، « .. وبالغ اذا وصفت ، وأصدق اذا أسندت ... »[34] .

ففي الليلة السادسة يظهر السند في حديث التوحيدي عن حديث ابن المقفع في تفضيل العرب على سائر الامم . فينقل الحديث مسنداً : « قلت : قال شبيب بن شبه : أنا لوقوف في عرصة المربد (...) اذ طلع ابن المقفع ... »[35] .

وفي الليلة السادسة عشرة يقول : « ثم عدت وقتاً آخر فقال : كنت حكيت لي ان العامري صنف كتاباً عنوانه (بانقاذ البشر من الجبر والقدر) فكيف هذا الكتاب ؟ فقلت : هذا الكتاب رايته بخطه عند صديقنا وتلميذه ابي القاسم الكاتب ، ولم أقرأه على العامري ، ولكن سمعت ابا حاتم الرازي يقرأه عليه »[36] .

هـ ـ القراءة : ترتبط القراءة في النص النثري بالقصد الذي

يهدف اليه الكاتب ، وذلك في إدراك الاشياء المواجهة له[٣٧] بحسب نظرية القراءة الحديثة .

أما إدراك الاشياء المواجهة له ، فان التوحيدي يعمد الى القياس للربط بين الاجزاء المقابلة له في النصوص التي يطلع عليها ويريد قراءتها للوصول الى النتيجة بناءً على الربط والقياس . وفي كشف أشكاليات الاسئلة المطروحة عليه ، ففي الليلة الخامسة والعشرين سأل أبو عبد الله العارض التوحيدي عن مراتب النّظم والنثر . والى أي حدٍ ينتهيان ـ « فكان الجواب : انّ الكلام على الكلام صعب . قال : ولم ؟ قلت : لانّ الكلام على الامور المعتمد فيها على صور الامور وشكولها التي تنقسم بين المعقول وبين ما يكون بالحسّ ممكن ، وفضاء هذا متسع ، والمجال فيه مختلف ، فاما الكلام على الكلام فانّه يدور على نفسه ، ويلتبس بعضه ببعضه ، ولهذا شقّ النّحو وما أشبه النّحو من المنطق وكذلك النثر والشعر على ذلك ـ »[٣٨]

ثم يحدد مفهوم القياس نقلًا عن أبي سليمان المنطقي : « لما تميزت الاشياء في الاصول ، تلاقت ببعض التشابه في الفروع ، ولما تباينت الاشياء بالطبائع ، تآلفت بالمشاكلة في الصنائع ، فصارت من حيث أفترقت مجتمعة ، ومن حيث اجتمعت مفترقة ، لتكون قدرة الله ـ عزّ وجل ـ آتية على كل شيء ، وحكمته موجودة في كل شيء ، ومشيئته نافذة في كل شيء »[٣٩]

ويلجأ الكاتب / التوحيدي الى التأويل لمعادلة أسلوب القياس . فقد يكون التأويل فلسفياً ، أو تأويلًا لغوياً او دينياً او تاريخياً . وهذا يرتبط التأويل بفكرة / او رؤية الكاتب الايديولوجية اذ ان الراوي الضمني يستعير صوت الكاتب لبيان حقائق الاشياء من خلال تأويلها .

يقول التوحيدي عن بلاغة التأويل انها تسمح في تعدد واتساع « أسرار معاني الدين والدنيا ، وهي التي تأوّلها العلماء بالاستنباط من كلام الله عزّ وجل وكلام رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحلال والحرام ، والحظر والاباحة ـ »[٤٠] .

وفي إطار هذه الاساليب نرى ان كل النصوص ضعيفة علمياً ، وفيها نقص لكي يعلق عليها ، ويصحح الخطأ العلمي فيها ، ومن ثم فان هذا الاسلوب انما هو قراءة التوحيدي لنفسه ، فيصير أمامنا نصان : الاول النص الضعيف ، وهو منسوب الى شخص غير التوحيدي ، والثاني نص التوحيدي / التقويمي ، مثال ذلك . ان أبا حيان ذكر كتاباً لشخص اسمه الجيهاني ، وعندما بحث المحققان عن شخصية هذا الكاتب تاريخياً لم يعثرا على حقيقته ، ولا على كتاب منسوب اليه ، ومن ثم فاننا نعتقد ان هذه الشخصية هي من صنع التوحيدي ، فذكر نصاً له ، وكان هذا النص ضعيفاً ، فقام ابو حيان بتفكيك أقوال الجيهاني ، والرد عليها بالحجة ، فقال ان العرب هم أمة « أحسن الناس حالًا وعيشاً ـ »[٤١]

ويتكرر هذا الاسلوب في قراءة ابي حيان لكلام ابن المقفع عن مزايا الامم ، فيضع تعليقاً على لسان الوزير : « قال ما أحسن ما قال ابن المقفع ! وما أحسن ما قصصته وما أتيت به ! هات الان ما عندك من مسموع ومستنبط . فقلت : ان كان ما قال هذا الرجل البارع في ادبه المُقدّم بعقله كانياً فالزيادة فضل : مستغنى عنه ، واعقابه بما هو مثله لا فائدة فيه »[٤٢]

وهذا يعني ان ثمة فجوات في نص ابن المقفّع ، فيقوم أبو حيان بسد هذه الفجوات ، وهذا الامر يؤدي الى الاستمرار في الاستماع من قبل « المروي له الضمني » ـ الوزير ـ ومن القارىء الضمني ـ أبو الوفاء ـ فيظهر في كلام التوحيدي ضعف فكر الوزير الذي أعجبه كلام ابن المقفع من جهة ، ومن ثم يحدد أخطاء ابن المقفع من جهة ثانية . فيقول : « ـ ان هذه الفضائل المذكورة في هذه الامم المشهورة ليست لكل واحد من أفرادها ، بل هي الشائعة بينها ، ثم في جملتها من هو عارٍ من جميعها ، وموسوم باضدادها ، يعني انه لا يخلو الفرس من جاهل بالسياسة ، خالٍ من الادب ، داخل في الرعاع والهمج »[٤٣]

ان هذه النصوص هي من صنع التوحيدي ـ كما نعتقد ـ وهناك مثال واضح على هذا الامر في كتابه « البصائر والذخائر » عندما انشأ رسالة سميت « رسالة السقيفة » التي تنبه ابن ابي الحديد الى انها رسالة مصنوعة من قبل التوحيدي لانها تشبه مذهبه في الخطابة والبلاغة ، وان الذي يتامل « كلام التوحيدي يعرف ان ذلك الحدث خرج من معدنه ، ويدل عليه اسناده الى القاضي ابي حامد المروذي وهذه عادته في كتابه (البصائر) يسند الى ابي حامد كل ما يريد ان يقوله هو من تلقاء نفسه اذا كان كارهاً لان ينسب اليه »[٤٤] .

وقد أعلن التوحيدي عن وضعه لهذه الرسالة فيما بعد لاحد تلامذته وهو « الماليني » الذي قال : « قرأت الرسالة (ـ) فقال هذه الرسالة عملتها ـ »[٤٥]

ويرى د . احسان عباس ان التوحيدي لم يسلم من الوضع في الحديث النبوي الشريف ، فقد قال على حديث بسند واهٍ « وما أحبّ ان يتسرع لردّ مثل هذا فان العقل ، لا يأباه ، والتأويل لا يعجز عنه ـ ومتى أحب السامع ان ينتفع به لم يهمه . وهي الاسناد ، وقيمة الرواة ، وانما عليك قبول مالا ينبغي من العقل ويشمر على حكم العدل . ويلائم أساس الشريعة ومبنى الدين »[٤٦]

ولعل أبرز الامثلة على ما ذهبنا اليه ، ما وجدناه في كتابه « مثالب الوزيرين » فهو يضع على لسانيهما الرسائل الضعيفة فكرة ولغةً ثم يصحح هذه الاخطاء ، ولا غرابة في ذلك وهو يعلن عن عزمه على كشف مساوىء الوزيرين منذ العنوان ونحن اذ

نؤكد تصورنا من خلال كتب أخرى للمؤلف ، نرى ان صناعة التوحيدي للرسائل ، والزعم بأنها من صنع الاخرين ، انما هو مذهب للكاتب / الناثر . وهو أحد السمات المهمة لبناء جنس النص النثري ، لكي يتمكن من كتابة النص ، وقراءته من خلال كل ما ذكرناه نصل الى ان ابا حيان التوحيدي يقرأ نفسه باستمرار لا على سبيل المتعة الشخصية ، ولكن لبيان سمات النص الجديد .

الهوامش

١ ـ مختار الصحاح : مادة جنس .
٢ ـ معجم مصطلحات الادب : مجدي وهبة : ١٨٩
٣ ـ مفاهيم نقدية : رينيه ويليك : ٢٩ ـ ٣٢
٤ ـ معجم مصطلحات الادب : ١٨٩
٥ ـ من النص الى الجنس الادبي : احمد المديري : مجلة الفكر العربي المعاصر ع٤ / ٩٨٨
٦ ـ ينظر : نظرية المنهج الشكلي : نصوص الشكلانيين الروس : ٢٥ ـ ٢٦
٧ ـ ينظر : العمدة : لابن رشيق : ١٩
٨ ـ نقلا عن : حول مفهوم النثر الفني عند العرب : ١٠ ـ ١١
٩ ـ المصدر السابق : ١٩
١٠ ـ الحكاية والتاويل : عبد الفتاح كيليطو : ٥ ـ ٦
١١ ـ الامتاع والمؤانسة : ١ / ٦٦
١٢ ـ الخطيئة والتكفير : ٧
١٣ ـ نفسه
١٤ ـ الادب والغرابة : ٢٠
١٥ ـ اللسان : متع
١٦ ـ اللسان : ظرف وانس
١٧ ـ النثر الفني في القرن الرابع : ٢٤١
١٨ ـ ضحى الاسلام : ١ / ١٠٤
١٩ ـ الفهرست : ٣٦٣
٢٠ ـ الحيوان : ٥ / ١٥٣ وينظر ٦ / ٢٦٥
٢١ ـ ينظر رسائل الجاحظ : ت عبد السلام هارون : مكتبة الخانجي القاهرة د . ت
٢٢ ـ الامتاع ... ١ / ١٩
٢٣ ـ الامتاع .. ١ / ٤ وقد لاحظ د . عبد الامير الاعسم الذل والخضوع الذي يظهر على التوحيدي في تنفيذ الطلب : ينظر « ابو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات » دار الاندلس : ط١ : ١٩٨٢ : ١٢٣
٢٤ ـ الامتاع ... ١ / ٣ ـ ٤ ـ ٥
٢٥ ـ في الكتابة والتجربة : ١١٥ وينظر الحكاية والتاويل : ٣٣
٢٦ ـ مقدمة لمحمد أمين للكتاب : هـ .
٢٧ ـ الامتاع ... ١ / ٨
٢٨ ـ الامتاع ... ٣ / ١٠٦
٢٩ ـ الامتاع ... ٣ / ٨
٣٠ ـ الامتاع ... ٢ / ٦١
٣١ ـ الامتاع ... ٢ / ٦١
٣٢ ـ ينظر في الكتابة والتجربة : ١١ ـ ٧٠ ـ ٧١ وينظر الادب والغرابة : ٤٩ وينظر : الادب العربي تعبيره عن الوحدة والتنوع : ١٢٧
٣٣ ـ الامتاع ... ١ / ٨
٣٤ ـ الامتاع ... ١ / ١٩
٣٥ ـ الامتاع ... ١ / ٧١
٣٦ ـ الامتاع ... ١ / ٢٢٢ وينظر الليلة الرابعة والعشرين ٢ / ١٠٥
٣٧ ـ ينظر : الفينومينولوجيا عند هوسرل : سماح محمد رافع : ٢٩ وينظر : مجلة فصول ع / ١٩٨٤ : ١٠١ « القارىء في النص : نظرية التاثير والاستقبال : نبيلة ابراهيم »
٣٨ ـ الامتاع .. ٢ / ١٣١
٣٩ ـ الامتاع .. ٢ / ١٣٩ ـ ١٤٠
٤٠ ـ الامتاع .. ٢ / ١٤٢
٤١ ـ الامتاع .. ١ / ٨٠
٤٢ ـ الامتاع .. ١ / ٧٣
٤٣ ـ الامتاع .. ١ / ٧٤
٤٤ ـ نقلا عن : النثر الفني في القرن الرابع : ٣٤٨
٤٥ ـ ابو حيان التوحيدي : ١٤
٤٦ ـ المصدر نفسه : ٥٧

المصادر والمراجع

١ ـ ابو حيان التوحيدي : د . احسان عباس : دار بيروت : ١٩٦٥
٢ ـ الادب والغرابة : عبد الفتاح كيليطو : دار الطليعة : بيروت : ط١ : ١٩٨٥
٣ ـ الامتاع والمؤانسة : تحقيق احمد امين واحمد الزين : المكتبة العصرية بيروت ـ د . ت
٤ ـ الحكاية والتاويل : عبد الفتاح كيليطو : دارتوبقال ـ المغرب ط١ : ١٩٨٨
٥ ـ حول مفهوم النثر الفني : البشير المجذوب : دار الكتاب ـ تونس : ١٩٨٢
٦ ـ الخطيئة والتكفير من البنيوية الى التشريحية : د . محمد الغذامي : النادي الادبي جده / ١٩٨٥
٧ ـ ضحى الاسلام : احمد امين ـ دار الكتاب العربي ـ د . ت ج١
٨ ـ العمدة في محاسن الشعر وادبه ونقده : تحقيق محيي الدين عبد الحميد : مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٦٥
٩ ـ الفهرست لابن النديم
١٠ ـ في الكتابة والتجربة : عبد الكبير الخطيبي : ترجمة د . محمد برادة : دار العودة : ط١ : ١٩٨٠
١١ ـ معجم مصطلحات الادب : مجدي وهبة : مكتبة لبنان : ١٩٧٤
١٢ ـ مفاهيم نقدية : رينيه ويليك : ترجمة عصفور : الكويت : ١٩٨٧
١٣ ـ النثر الفني في القرن الرابع : د . زكي مبارك : المكتبة العصرية : د . ت

دراسة

رحلات الأطباء من الاندلس وإليها(*)

الدكتور : محمود الحاج قاسم محمد

طبيب اطفال - الموصل

المقدمة

كان العلم اللاتيني في اوربا لحظة وصول العرب المسلمين الى اسبانيا في القرن الثامن الميلادي ، ومن ثم الى صقلية وجنوب ايطاليا وجنوب فرنسا ، قد اصابه البوار والركود العلمي ، ويرقد في ما شاعت تسميته (ظلام القرون الوسطى) . فكان وصول العرب المسلمين بمثابة عاصفة هزت البنى الراقدة ، وبعثت الحياة في تلك السبات واحدثت تغيراً نوعياً ؟ في اتجاهات الفكر الاوربي ومدت امامه افاقاً جديدة على طريق التطور والابداع .

ففي فترة قصيرة من عمر الزمن اصبحت الاندلس بمدنها الاسلامية مركزاً نيراً لمختلف العلوم وصنوف الثقافة وتوافدت اليها بعثات اوربية ورشفت من هذا المنهل العذب اسس علومها .

ومما لاشك فيه « بان الطب في الاندلس كان امتداداً للنهضة العلمية الشاملة التي شهدها العالم الاسلامي وظهرت بوادرها منذ القرن الثالث الهجري . تلك ان صلة الاندلسيين بحواضر الشرق الاسلامي ببغداد ، ودمشق ، والمدينة المنورة ، والقاهرة ، والقيروان لم تنقطع ابداً »[1] بل كانت الصلات الفكرية والعلمية مستمرة بين مختلف اقطار العالم الاسلامي بتنقل بين ربوعها العلماء والطلاب والمؤلفات والمذاهب الفكرية .

ولما كان تعداد وذكر جميع من رحل من الاندلس واليها من الاطباء امراً تصعب الاحاطة به وتتبع دقائقه لذا فاننا جعلنا البحث منصباً بالدرجة الاولى على الدراسة الموضوعية لابرز الاطباء الذين قاموا برحلات من الاندلس واليها طلباً للعلم او القيام بالتدريس او سعياً وراء الكسب بممارسة المهنة لدى الخلفاء والامراء وعامة الناس .

ولاجل الاحاطة بهؤلاء جميعاً رأينا تقسيم البحث الى قسمين اساسيين .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

القسم الاول

رحلات الاطباء من الاندلس

١ - رحلات الاطباء من الاندلس الى المغرب العربي

ذكرنا فيما سبق بان صلة الاطباء الاندلسيين بحواضر العالم الاسلامي كانت متصلة بشكل علم الا انها مع حواضر بلاد المغرب العربي كانت متصلة بشكل خاص واوثق وذلك لارتباط هذه البلاد مع الاندلس ارتباطاً سياسياً في فترات مختلفة من الزمان . الامر الذي دفع بالعديد من اطباء الاندلس الى القيام برحلات اما مؤقتة او دائمية الى تلك البلاد .

نذكر فيما يلي تراجم موجزة للاطباء والصيادلة والعشابين الاندلسيين الذين قاموا برحلات الى بلاد المغرب العربي وحسب ترتيبهم الزمني :

١ - عمر بن جعفر بن بويق ، ابو حفص :

كان طبيباً نبيلاً ، قارئاً للقرآن ... وكانت له رحلة الى القيروان الى ابي جعفر بن الجزار ، لزمه ستة اشهر ، وهو الذي ادخل الاندلس كتابه (زاد المسافر) ... وخدم بالطب الخليفة عبد الرحمن الناصر ... ولم يطل عمره .[2]

٢ - عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الايادي الاشبيلي ابو مروان توفي (٤٧١ هـ - ١٠٧٨ م)

كان فاضلاً في صناعة الطب ، خبيراً باعمالها ... رحل الى المشرق ودخل القيروان ومصر وتطبب هناك زمناً طويلاً ، ثم رجع الى الاندلس وقصد مدينة دانية ... واشتهر فيها بالتقدم في صناعة الطب ، وطار ذكره فيها الى اقطار الاندلس . وله في الطب آراء شاذة منها منعه من الحمام .[3]

٣ - ابراهيم بن ابي الفضل بن صواب المجري (٥٠٦ هـ - ١١١٢ م) .

من اهل شاطبة الذي اقام في طنجة وفاس الى ان مات .[4]

* قدم هذا البحث في ندوة تراث الاندلس - مركز احياء التراث العلمي العربي - جامعة بغداد ١٩٩٦/٤/١٣ .

٤ ـ عبد العزيز بن علي بن عبد العزيز ، ابو الاصبغ (٥٢٢ هـ ـ ١١٢٨ م)

من اهل طرطوشة ، كان فقيهاً اديباً ـ مشاركاً في علم الطب ، توجه رسولاً من اهل بلده الى مراكش لملاقاة امير المسلمين ابن تاشفين واستدعائه ، توفي بغرناطة .

٥ ـ زهر بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الايادي ابو العلاء (٥٣٦ هـ ـ ١١٣١ م) .

اخذ الطب عن ابيه ، وكان دقيقاً في تشخيص الامراض ، خدم امير اشبيلية المعتمد بن عباد . ثم خدم امير المسلمين يوسف بن تاشفين وابنه علي بن يوسف الذي استوزره . واقام في مراكش .

ولابي العلاء بن زهر من الكتب (كتاب الخواص ، كتاب الادوية المفردة ، كتاب الايضاح بشواهد الافتضاح في الرد على ابن رضوان ، كتاب حل شكوك الرازي على كتب جالينوس مجربات ، مقالة في الرد على ابي علي بن سينا في مواضع من كتابه الادوية المفردة ، كتاب النكت الطبية).[٥]

٦ ـ علي بن عبد الرحمن بن جودي السعدي ، ابو الحسن (بعد ٥٣٠ هـ ـ ١١٣٥ م) .

اصل سلفه من البيرة ، تجول ببلاد المغرب والاندلس وسكن غرناطة تفنن في النحو والادب والطب ، وشهر بالعلوم النظرية ، اخذ الطب عن ابي العلاء بن زهر ، ثم تابع قراءة الطب في غرناطة فاحكم قوانينه واقام به معيشه بقية عمره .[٦]

٧ ـ عبد الله بن علي بن غلندو الاموي ، ابو الحكم (٥٨١ هـ ـ ١١٨٥ م) .

طبيب من اهل سرقسطة ونشأ في اشبيلية ، قرأ الطب على ابي مروان عبد الملك بن زهر في سجن مراكش ، قرأ عليه كتاب « الاقتصاد في صلاح الانفس والاجساد » وهو من مؤلفات ابي مروان . وكان ابن غلندة طبيباً ماهراً وشاعراً اديباً ، خرج من سرقسطة مع والده وجده لما تغلب عليها النصارى عام ٥١٢ هـ ، فسكن قرطبة ثم رحل الى اشبيلية ، وترك تآليف عديدة . وتوفي في مراكش التي استوطنها في عهد الخليفة يعقوب المنصور الموحدي .[٧]

٨ ـ محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي ، أبو بكر .

ولد في برشانة قرب غرناطة في اوائل القرن الثاني عشر الميلادي وتوفي في مراكش سنة (٥٨١ هـ ـ ١١٨٥ م) . رحل الى غرناطة ثم الى قرطبة واشبيلية ثم انتقل الى مراكش ، كان عالماً فلكياً ورياضياً وطبيباً وفيلسوفاً واديباً من الطراز الاول ، ترك آثاراً خالدة منها قصة (حي بن يقظان) التي تشتمل على فلسفته ونظرياته ، اضافة لاحتوائها على معلومات في علم التشريح . وله ارجوزة في الطب العلاجي بـ (٧٥٠٠ بيت) .[٨]

٩ ـ احمد بن علي بن مواطير (كان حياً عام ٥٨٣ هـ ـ ١١٨٧ م) .

من اهل بلنسية ، واستوطن مراكش ، وكان طبيباً ماهراً في التعاليم حسن القيام عليها .[٩]

١٠ ـ علي بن اسدون الشهير بالمصدوم ، ابو الحسن (٥٨٨ هـ ـ ١١٩٢ م) .

تلميذ ابي مروان عبد الملك بن زهر ، من اهل اشبيلية ، كان طبيباً واديباً وشاعراً من اهل الدين . كثير الخير ، وكان الخليفة الموحدي المنصور يطلبه للحضور الى مراكش كلما احتاج اليه لمداواته ، وتوفي باشبيلية .[١٠]

١١ ـ محمد بن احمد بن رشد ، ابو الوليد .

ولد في قرطبة سنة (٥٢٠ هـ ـ ١١٢٦ م وتوفي سنة ٥٩٥ هـ ـ ١١٩٨ م) في مراكش ، رشحه استاذه ابن طفيل الى وظيفة القضاء في اشبيلية .

من فلاسفة الاسلام الكبار ، مؤسس الفكر الحر ، جريء ومنطقي وكانت له افكار متطرفة ، اتهمه البعض بالزندقة . اغلب كتبه في الطب تعليقات وتلخيصات لكتب جالينوس الا ان اهمها كتاب الكليات . حيث أبدى في هذا الكتاب رأياً مخالفاً لاقاويل الاغريق في كثير من المسائل الطبية .[١١]

١٢ ـ احمد بن عبد الله بن موسى القيسي الاشبيلي . سكن مدينة فاس وتوفي بها عام (٥٧١ هـ ـ ١١٧٥ م) وهو تلميذ ابي بكر بن العربي .[١٢]

١٣ ـ محمد بن ابي مروان بن ابي العلاء بن زهر ابو بكر (الحفيد) (٥٩٦ هـ ـ ١١٩٨ م) .

ولد في اشبيلية . اخذ الصناعة عن ابيه ، خلف رسالة في طب العيون ، وكان ماهراً فيه حاذقاً في العلاج ، وشاعراً مجيداً ومال الى عمل الموشحات ، خدم بالطب الخليفة الموحدي يعقوب في مراكش ، وقيل انه مات مسموماً في هذه المدينة .[١٣]

١٤ ـ علي بن موسى بن شلوط البلنسي ، ابو الحسن (٦١٤ هـ ـ ١٢١٧ م) .

استوطن تلمسان واحترف الطب .[١٤]

١٥ ـ هاني بن الحسن بن هانيء (اللخمي ، ابو يحيى) (٦١٤ هـ ـ ١٢١٧ م) .

من اهل غرناطة من بيت جلالة وعلم ، وكان مشاركاً في الطب ، ذا معرفة بالفقه والادب والحديث ، ولي القضاء بوادي آش ، ورحل الى فاس واخذ من علمائها .[١٥]

http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٦ ـ احمد بن عتيق بن تنزال الاموي (٦٢٧ هـ ـ ١٢٢٩ م) .

من اهل مالقة واصله من سرقسطة ، كان من جلة اهل العلم معروفاً بحسن التصرف في الطب والاعتناء بعلوم الاوائل ، ولي القضاء بشويش وكان ذا حظوة عند الخليفة المأمون ادريس بن يعقوب المنصور ، صحبه الى المغرب .[١٦]

١٧ ـ احمد بن محمد بن عبد الملك الجذامي ، ابو العباس (٦٥٠ هـ ـ ١٢٥٢ م) .

اصله من قرطبة ، وسكن سبتة وبها نشأ ثم اقام باشبيلية وقتاً ، كان مع مهارته في الطب عارفاً بالحديث ، مشاركاً في الادب . توفي بمراكش .[١٧]

١٨ ـ محمد بن احمد بن محمد الاموي المعروف بابن اندراس ، أبو القاسم (٦٧٤ هـ ـ ١٣٧٢ م) .

طبيب من اهل مرسيه ، واستوطن بجاية وخدم ولاتها بالطب ثم انتقل الى تونس بطلب من المستنصر ، وانتظم في سلك اطبائه .[١٨]

١٩ ـ ابراهيم الداني ، ابو اسحق .

كان بارعاً في صناعة الطب ، واستوطن بجاية ثم انتقل الى مراكش حيث ولي امانة البيمارستان فيها وتوفي فيها .[١٩]

٢٠ ـ ابو يحيى بن قاسم الاشبيلي .

كان فاضلاً في صناعة الطب خبيراً بقوى الادوية المفردة والمركبة ، وكان صاحب خزانة الاشربة التي يأخذها الخليفة المنصور من عنده ، وتوفي في مراكش في دولة المستنصر .[٢٠]

٢١ ـ احمد بن محمد الكنيذارى ، ابو العباس .

من اهل اشبيلية ، احد العارفين بصناعة الطب المبرزين فيها ، قرأ الطب على عبد العزيز بن مسلمة الباجي وابي الحجاج يوسف بن موراطير في مراكش ، وخدم ابا النجاء بن هود واخاه ابا عبد الله بن هود .[٢١]

٢٢ ـ عبد العزيز بن مسلمة الباجي .

اصله من باجة المغرب ، وكان من اعيان اهل الاندلس واجلائها ويعرف بابن الحفيد . وكان فاضلاً في صناعة الطب متميزاً في الادب ، وله شعر جيد وكان تلميذ المصدوم ، وخدم بالطب المستنصر وتوفي في دولته في مراكش .[٢٢]

٢٣ ـ يوسف بن موراطير ، ابو الحجاج .

ينتسب الى موراطير ، قرية قريبة من بلنسية ، كان فاضلاً في صناعة الطب خبيراً بهما ، مزاولاً لاعمالها ، عالماً بالامور الشرعية ، وكان شاعراً محباً للمجون ، وخدم بالطب المنصور ابا يوسف يعقوب ثم ولده الناصر ومن بعده المستنصر بن الناصر . وعمر طويلاً وتوفي في مراكش .[٢٣]

٢٤ ـ يوسف بن محمد بن احمد القرشي الاموي الطرسوسي ، ابن يعقوب الشهير ابن اندراس (٧٢٩ هـ ـ ١٣٢٨ م) .

اصله من مرسيه وقطن تونس ، وكان طبيباً رياضياً فلكياً ، توفي بتونس .[٢٤]

٢٥ ـ محمد بن ابراهيم بن رويبل الانصاري المعروف بابن السراج ، ابو عبد الله (٧٣٠ هـ ـ ١٣٣٠ م) .

من اهل غرناطة ، كانت له معرفة بالعشب والنبات ، عين ما يستفيده في الطب صدقة على المساكين والمحتاجين . قرأ الطب على ابي جعفر الكرني وابي عبد الله الرقوطي المرسي . وقد ابتلى بعد وفاة السلطان الذي كان في خدمته فسجن واجلي الى العدوة المغربية حيث استقر بفاس ثم عاد الى غرناطة .[٢٥]

٢٦ ـ احمد بن علي بن محمد بن عبد البر الخولاني (٧٥٠ هـ ـ ١٣٤٩ م) .

من اهل غرناطة ، بقي بالمغرب وافريقيا جماعة من اهل العلم وحمل عنهم وتادب بابي عبد الله الابلي ، ثم احترف الطب وقعد يداوي المرضى .[٢٦]

٢٧ ـ ابراهيم بن يحيى الانصاري الغرناطي ، ابو إسحق (٧٥١ هـ ـ ١٣٥٠ م) .

غرناطي الاصل ، كانت له مشاركة في علم الطب ، وولي القضاء ببعض جهات المغرب .[٢٧]

٢٨ ـ يحيى بن احمد بن هذيل التجيبي ، ابو زكريا (٧٥٣ هـ ـ ١٣٥٢ م) .

كان من اطباء الدار السلطانية ، وقعد بالمدرسة بغرناطة يقرأ الاصول والفرائض والطب ، قرأ الطب على ابي عبد الله الاركشي وابي زكريا القصري وجملة من الاسلاميين بالمغرب . من مؤلفاته « الاختيار والاعتبار في الطب » وكتاب « التذكرة في الطب » .[٢٨]

٢٩ ـ محمد بن قاسم بن ابي بكر القرشي المالقي (٧٥٧ هـ ـ ١٣٥٦ م) .

كان طبيباً وشاعراً ، سكن غرناطة ثم انتقل الى فاس عام ٧٥٤ هـ حيث ارتسم طبيباً وتولى النظر على المارستان بها .[٢٩]

٣٠ ـ ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الشهير بابن الخطيب وبذي الوزارتين والملقب عند المشارقة بلسان الدين (٧٧٦ هـ ـ ١٣٧٤ م) .

من اعلام الفكر والادب واقطاب السياسة والدولة في الاندلس الاسلامية . اخذ الطب والتعاليم على الامام ابي زكريا ابن هذيل التجيبي . لم يتفرغ الى ممارسة الطب تفرغاً كاملاً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لانشغاله بامور الدولة [٣٠].

لقب بذي الوزارتين لتوليه الوزارة لدى سلطان المغرب ابي سالم المريني وسلطان مملكة غرناطة أبي عبد الله النصري. الف ثمانية كتب في الطب اشهرها (رسالة الطاعون سماها مقنعة السائل عن المرض الهائل ، عمل من طب لمن حب ، كتاب الوصول لحفظ الصحة في الفصول).

٣١ ـ محمد بن قاسم الانصاري الجياني المالقي ، ابو عبد الله . ويعرف بالشديد.

كان طبيباً حاذقاً ، اخذ العلم في الاندلس وفي المغرب.

٣٢ ـ محمد بن محمد بن علي بن سودة المرى ، أبو القاسم ، سكن سلفه جنوب غرناطة . تصدر للعلاج ، قرأ الطب على طبيب الدار السلطانية ابراهيم بن زرزار اليهودي . رحل الى المغرب فقرأ على ابي عبد الله العنيبي في فاس [٣١].

ب ـ رحلات الاطباء الاندلسيين الى المشرق العربي والاسلامي.

كان لرحلات الاطباء الاندلسيين الى المشرق العربي والاسلامي حوافز عديدة ، اهمها حرص كثير منهم على تلقي العلوم ونقل الكتب اعتقاداً منهم بعلو اهل المشرق ، فقد كان العالم والطبيب في الاندلس لا يجد له منزلة بين قومه حسب ما جاء في كتب التراث الاندلسي ما لم يكن قد زار حواضر المشرق العربي والاسلامي عن طريق الرحلة والدراسة والتحصيل في معاهدها المتميزة الابواب امام القاصدين اليها ، وكان يصحب الرحلة الى اداء فريضة الحج نقل الافكار والآثار العلمية لان العالم والطبيب كان انذاك يعمل بطلب العلم نفسه فيستفيد ويفيد ويحمل معه كل ما هو جديد.

وكان البعض الاخر من الاطباء يقصدون الكسب من وراء تلك الرحلات فمنهم من يأتي للعمل لدى الخلفاء والأمراء ومنهم يقوم بمعالجة المرضى في المستشفيات.

وقد فاضت كتب التراث الاندلسي باسماء الاطباء الاندلسيين الوافدين الى بلاد المشرق العربي والاسلامي ، نستعرض فيما يلي من استطعنا جمعهم من تلك الكتب وحسب تسلسلهم التاريخي :

١ ـ عبد الملك بن حبيب السلمي الالبيري ، ابي مروان.

من رجال القرن الثالث الهجري . وهو من البيرة خارج غرناطة سكن قرطبة ، اصل اسرته من طليطلة ، تلقى العلم بالاندلس ثم رحل الى المشرق سنة ٢٠٧ هـ فحل بمصر وبالمدينة المنورة ولقي عدداً من اصحاب مالك بن انس . رجع الى وطنه عام ٢١٠ هـ . وسرعان ما ذاعت شهرته العلمية ، فامر الأمير عبد الرحمن بن الحكم بنقله الى قرطبة حيث رتبه في طبقة المفتين . الف كتباً تجاوزت الالف وتناولت علوماً مختلفة كالفقه والحديث والسير والتاريخ والطب.

من مؤلفاته الطبية التي وصلت كتاب مختصر في الطب ، وكتاب طب العرب ولهذا الكتاب اهمية مؤكدة في دراسة تاريخ العلوم عند العرب والكشف عن بداياته وعن مدى تاثر الطب العربي في صدر الاسلام بغيره ، وتتجلى اهمية هذا الكتاب ايضاً في كونه اول تاليف اندلسي في الطب يصل الينا [٣٢].

٢ ـ يحيى بن مالك العابدي.

هو ابو زكريا يحيى بن مالك بن عابد بن كيسان ويعرف العابدي . ولد بطرطوشة بالاندلس سنة ٣٠٠ هـ ـ ٩١٢ م ، ورحل الى المشرق سنة ٣٤٣ هـ ـ ٩٧٩ م (حاشية طبقات ابن جلجل ص١٠٦).

٣ ـ يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة (٣١٥ هـ ـ ٩٢٧ م).

طبيب قرطبي كان بصيراً بالحساب والفلك متفننا في الآداب مشاركاً في الفقه والرواية ، رحل الى المشرق ثم عاد الى الاندلس [٣٣].

٤ ، ٥ ـ أحمد بن يونس الجذامي الحراني هو واخوه عمر.

رحلا الى المشرق سنة ٣٣٠هـ ـ ٩٤١م في خلافة عبد الرحمن الناصر ودخلا بغداد ، ودرسا الطب فيها (كتب جالينوس على ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة ، وعلل العين على ابن وصيف) . وعادا الى الاندلس عام ٣٥١ هـ في دولة المستنصر فالحقهما لخدمته ، ومات عمر ، وبقي احمد من المقربين الى الخليفة المؤتمنين عنده في ماكله ومشربه ، وسكن في قصره في مدينة الزهراء ، وتولى اقامة خزانة بالقصر للطب لم يكن قط مثلها ، ورتب لها اثني عشر صبياً من الصقالبة لصنع الادوية التي كانت توزع مجاناً على من يحتاج اليها من المرضى [٣٤].

٦ ـ محمد بن يحيى الازدي الرياحي (٣٢٨ هـ ـ ٩٦٨ م).

اصله من جيان وانتقل ابوه الى قلعة رباح ، كانت له معرفة بعلم الطب وكان عالماً بالعربية . رحل الى المشرق ولقي ابا جعفر النحاس فحمل عنه كتاب سيبويه ثم عاد الى قرطبة حيث تصدر للتعليم [٣٥].

٧ ـ اسد بن خيرون الجذامي ، ابو القاسم (٣٦٠ هـ ـ ٩٧٠ م).

من اهل استجة ، قرأ بقرطبة ورحل الى المشرق ، وكان له بصر بالطب [٣٦].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٨ ـ محمد بن عبدون الجبلي الشهير بالعددي (٣٦١ هـ ـ ٩٧١ م) .

اشتغل في اوائل حياته بتعليم الحساب ، ثم رحل الى المشرق عام ٣٤٧ هـ ، ودخل البصرة واتى مدينة فسطاط مصر ودبر مارستانها ، وكان طبيباً حاذقاً حسن الدربة لا يجارى في عصره ، خدم عند عودته الى الاندلس سنة ٣٦٠ هـ الحكم المستنصر وهشام المؤيد بالله .(٣٧)

٩ ـ سعيد بن دعامة القيسي ، ابو عثمان (٣٦٥ هـ ـ ٩٧٥ م) قرأ بقرطبة ، ورحل الى المشرق ، كان له حظ من العربية وغلب عليه الانتحاب الى الطب .(٣٨)

١٠ ـ عمر بن عبد الرحمن الكرماني ، ابو الحكم (٤٥٨ هـ ـ ١٠٦٥ م) .

طبيب جراح قرطبي ، احد الراسخين في علم العدد والهندسة رحل الى ديار الشرق وانتهى منها الى حران من بلاد الجزيرة وعني هناك بطلب الهندسة والطب ، ثم رجع الى الاندلس واستوطن مدينة سرقسطة ، وجلب معه رسائل اخوان الصفا وهو اول من ادخلها الى الاندلس ، وكان له نفوذ مشهور في الكي والقطع والشق والبط وغير ذلك من اعمال الصناعة الطبية .(٣٩)

١١ ـ عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الايادي الاشبيلي ، ابو مروان (٤٧٠ هـ ـ ١٠٧٧ م) . كان فاضلاً في صناعة الطب خبيراً باعمالها . رحل الى المشرق ودخل القيروان ومصر وتطبب هناك زمناً طويلاً . ثم رجع الى الاندلس واستوطن مدينة دانية واشتهر فيها بالتقدم في صناعة الطب . ثم انتقل الى اشبيلية ولم يزل بها الى ان توفي .(٤٠)

١٢ ـ يوسف بن احمد بن حداى (توفي بعد ٥٢٢ هـ ـ ١١٢٨ م) .

من الفضلاء في صناعة الطب . سافر من الاندلس الى الديار المصرية ، واشتهر ذكره بها ايام الامر باحكام الله الفاطمي . واختص بشرح بعض كتب ابقراط . من مؤلفاته (شرح المقالة الاولى من كتاب الفصول لابقراط) . وكان بينه وبين ابي بكر بن يحيى المعروف بابن باجه مراسلات .(٤١)

١٣ ـ امية بن عبد العزيز بن ابي الصلت (٥٢٩ هـ ـ ١١٣٤ م) .

من دانية في الاندلس ، بلغ في صناعة الطب مبلغاً لم يصل اليه غيره من اهل زمانه وكان ذا معرفة في الادب والرياضيات والفلك والموسيقى ، جيد اللعب بالعود ، وشاعراً مجيداً . اتى القاهرة واقام بها مدة . من مؤلفاته كتاب الادوية المفردة وكتاب الانتصار لحنين بن اسحق علي بن رضوان في تتبعه لمسائل فدية .(٤٢)

١٤ ـ عبيد الله بن المظفر الباهلي الاندلسي (٥٤٩ هـ ـ ١١٥٤ م) .

خدم السلطان محمد بن ملكشاه (من السلاطين السلاجقة) وانشا له مرستاناً يحمل على الجمال في الاسفار ، وكان شاعراً خليعاً وعاش في دمشق ، وكان يجلس على دكان بجيرون للطب .(٤٣)

١٥ ـ السموأل بن يهودا المغربي (حوالي ٥٧٠ هـ ـ ١١٧٤ م) .

اندلسي ولد في فاس ، ثم رحل مع ابيه الى المشرق واقام بالشام . وارتحل الى اذربيجان وخدم بيت البهلوان وامراء دولتهم واقام بمدينة المراغة وولد اولاداً هناك سلكوا طريقته في الطب ، واسلم وحسن اسلامه وصنف كتاباً في اظهار معايب اليهود . ومات بالمراغة .(٤٤)

١٦ ـ ابو الحكم المغربي الاندلسي المرسي .

من اهل مرسية ، رحل الى العراق ثم الى دمشق ، كان بصيراً بالرياضيات وزاول مهنة الطب .(٤٥)

١٧ ـ عبد الودود الاندلسي الطبيب .

اصله من بلنسية ، وهاجر الى العراق ثم ارتحل الى خراسان ، حيث انتظم في خدمة السلطان محمد بن ملكشاه .(٤٦)

١٨ ـ علي بن يقظان السبتي .

طبيب وشاعر ، اصله من مدينة سبتة ارتحل الى مصر سنة ٥٤٤ هـ ثم انتقل الى اليمن وزار العراق .

١٩ ـ محمد بن عمر الجلياني ، ابو الفضل (٥٣١ هـ ـ ٦٠٢ هـ/١١٣٦ م ـ ١٢٠٥ م) .

طبيب اديب ، رحالة سائح ، مؤلف ، شاعر ، اصله من وادي آش قرب غرناطة ، وصل في رحلته الى القاهرة ، ودمشق ، ودخل بغداد سنة ٦٠١ هـ ولقب بـ(حكيم الزمان) . وحضر مجلس السلطان (صلاح الدين الايوبي) .(٤٧)

٢٠ ـ موسى بن ميمون ، ابو عمران (٦٠٥ هـ ـ ١٢١٨ م) .

من اهل قرطبة ، يهودي ، كان رئيس اليهود في الديار المصرية ، وهو اوحد زمانه في صناعة الطب ، متفنن في العلوم ، وله معرفة جيدة في الفلسفة . وكان يطب لصلاح الدين يوسف الايوبي وولده الملك الافضل علي . وقيل انه تظاهر بالاسلام في المغرب ثم ارتد في مصر الى يهوديته .

من مؤلفاته اختصار الكتب الستة عشر لجالينوس ، مقالة في البواسير وعلاجها ، مقالة في تدبير الصحة ، مقالة في السموم

والتحرز من الادوية القتالة ، كتاب شرح العقار ، كتاب كبير على مذهب اليهود.[٤٨]

٢١ - يوسف بن يحيى بن اسحق السبتي (٦٢٣ هـ - ١٢٢٦ م).

طبيب ، رياضي ، يهودي النحلة ، سكن فاس ورحل الى مصر حيث اجتمع بموسى بن ميمون القرطبي وقرأ عليه ، ثم رحل الى الشام واقام بحلب وقدم الدولة الظاهرية.[٤٩]

٢٢ - احمد بن محمد بن مفرج النباتي المعروف بابن الرومية ، ابو العباس (٦٣٧ هـ - ١٢٣٩ م).

من اهل اشبيلية ، كانت له معرفة بالنبات وتمييز العشب ، فاق في ذلك اهل عصره . رحل لطلب العلم ومعرفة النبات في منابتها ، والف في علم الاعشاب كتاب « الرحلة » الذي كان من اهم مصادر ابن البيطار ، كما الف « شرح حشائش دياسقوريدس وادوية جالينوس » زار بغداد والموصل ودمشق وسمع من علمائها.[٥٠]

٢٣ - عبد الله بن احمد بن حفص الانصاري ، ابو محمد (٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م).

من اهل دانية وسكن شاطبة ، تلقى العلم ببلده وباشبيلية واخذ عن كبار علماء وقته اللغة والآداب والفقه ، ثم رحل الى المشرق فسمع بالاسكندرية ودمشق والموصل ، ومال الى علم الطب وعني به وتوفي بالقاهرة.[٥١]

٢٤ - عبد الله بن احمد المالقي المعروف بابن البيطار ، ابو محمد (٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م).

اصله من مالقة ، تعلم بالاندلس ثم قام برحلة لبلاد الاغارقة والروم ولقي جماعة يعانون هذا الفن ، واخذ عنهم معرفة نبات كثير وعاينه في مواضعه . واجتمع في المغرب وغيره بكثير من الفضلاء في علم النبات ، وعاين منابته ، وتحقق ماهيته . واتقن دراية كتاب ديوسقوريدس اتقاناً بالغاً . خدم الملك الكامل محمد الايوبي الذي عينه رئيساً للعشابين في الديار المصرية . ثم خدم الملك الصالح نجم الدين ايوب . وتوفي ابن البيطار في دمشق.[٥٢]

من مؤلفاته (الجامع لمفردات الادوية والاغذية) وهو اشهر كتبه . وكتاب (المغني في الادوية المفردة) . وكتاب الابانة والاعلام بما في (المنهاج من الخلل والاوهام) ينقد فيه (منهاج البيان) لابن جزلة .

٢٥ - احمد بن المغربي الاشبيلي (٧١٨ هـ - ١٣١٨ م).

كان بارعاً في الفلسفة والنجوم والطب ، ولي رئاسة الطب بديار مصر وكان يهودياً فاسلم في ايام الملك الاشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٠ هـ.[٥٣]

٢٦ - حسن بن يوسف الانصاري (كان حياً عام ٨٩٦ هـ - ١٤٩٠ م).

اصله من المرية ، رحل الى المشرق واشتغل بالطب والهيئة . اقام بالقاهرة وزار دمشق وحج.[٥٤]

٢٧ - عبد الله بن قاسم اللخمي الاشبيلي الحريري البغدادي ، ابو محمد (٥٩٠ هـ - ٦٤٦ هـ / ١١٩٣ م - ١٢٤٨ م).

ولد بجزيرة شقر القريبة من ساحل الاندلس موطن اسلافه . انتقلت عائلته الى مدينة اشبيلية وهو في سن عشر سنوات . فيها شب ودرس مختلف العلوم . قام برحلة الى المشرق فزار العراق وفارس ثم بلاد الشام ومصر وشمال افريقيا ، وقضى في بغداد معظم وقت رحلته منه لذا لقبه اهله بالبغدادي . ولما عاد واستقر في اشبيلية عكف على التدوين وتبويب ما جمعه من هذه الصناعة (الكحالة) مضيفاً الى ذلك خلاصة تجاربه في كتاب اسماه (نهاية الافكار ونزهة الابصار) والذي يمكن عده اكمل واحسن ما كتب في طب العيون عند العرب والمسلمين.[٥٥]

٢٨ - احمد بن حسان الغرناطي ، ابو جعفر .

مولده ونشاته بغرناطة واشتغل بصناعة الطب ، واجاد في علمها وعملها ، وخدم المنصور بالطب . وحج مع ابن جبير الغرناطي (صاحب كتاب الرحلة) . وتوفي ابو جعفر بن حسان بمدينة فاس . وله من الكتب كتاب تدبير الصحة الفه للمنصور.[٥٦]

٢٩ - غالب بن علي بن محمد اللخمي الشقوري ، ابو تمام (٧٤٧ هـ - ١٣٤٠ م).

من اهل غرناطة ومن بيت طب وخبرة . رحل الى المشرق في شبيبته فحج ، وقرأ علم الطب بالمارستان المنصوري في القاهرة ، وحذق العلاج على طريقة المشارقة ، وانتصب للمداواة ببجاية ثم عاد الى بلده ، فذبه قدره ، وخدم الدار السلطانية ، ثم رحل الى فاس . وله تآليف طبية ، وتوفي في سبتة.[٥٧]

٣٠ - محمد بن محمد بن احمد الانصاري المعروف بالسواس (كان حياً ٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م).

من اهل غرناطة ، طبيب وسع معارفه المبدئية اثناء رحلته الى المشرق للحج وعاد لبلده وتصدر للطب ، ثم رحل الى بلاد المشرق ثانية حيث عظم صيته ، وعين اميناً على احباس المسجد النبوي بالمدينة المنورة.[٥٨]

ج - رحلات الاطباء من الاندلس الى بقية اوربا .

على الرغم من عدم ورود ذكر لاطباء كثيرين قاموا برحلات الى بقية اوربا الا ان مجرد العثور على ذكر بعض الاطباء والمترجمين من العربية الى اللاتينية ممن قاموا برحلات من

الاندلس الى انحاء مختلفة من اوربا يشير الى مسار مهم من مسارات انتقال الطب العربي الاسلامي الى الغرب .

وكان ابرز هؤلاء :

١ - بيتر الفونسي :

اليهودي المتنصر الذي هاجر الى انكلترا وصار طبيب ملكها هنري الاول (١٠٦٨ - ١١٣٣)م . وهو من أوائل الذين ادخلوا العلوم العربية الى انكلترا .(٥٩)

٢ - ابراهيم بن عزرا :

من مدينة طوليدو (طليطلة) . عالم فيلسوف يهودي . زار لندن في سنة (١١٥٨ و ١١٥٩)م . ودرس هناك حقبة من الزمن .(٦٠)

٣ - محمد بن محمد الشريف الادريسي الحسني ، ابو عبد الله ، (٤٩٣ - ٥٦٠ هـ/١٠٩٩ - ١١٦٤ م) .

من اهل سبتة ودرس في قرطبة وعاش في صقلية ، وهو جغرافي عالمي ذائع الصيت ، كانت له معرفة واسعة باعيان الاعشاب ، والف في ذلك كتاباً اسمه (الجامع لشتات النبات) اعتمد عليه ابن البيطار من ضمن ما اعتمده من مصادر في تاليف كتابه (الجامع لمفردات الادوية والاغذية) .

زار مراكش والبرتغال واسبانيا وجنوب فرنسا وايطاليا وبلاد اليونان وآسيا الصغرى ويقال انه زار انجلترا ايضاً حسب احدى الروايات غير انه استقر في صقلية ومات فيها .(٦١)

٤ - اسرة بن طبون .

ولد يهودا بن سول بن طبون في غرناطة سنة ١١٢٠ م ، فلما بلغ ثلاثين او اربعين سنة اقام في لانجدول وتوفي في لونيل سنة ١١٩٠ م ، وقد انجز عملاً ضخماً في الترجمة من العربية الى العبرية . ودرس على هذا العمل ابنه صموئيل بن يهودا بن طبون الذي ولد سنة ١١٥٠ م في لونيل وعاش مدة طويلة في الاندلس ، وتوفي في مارسيليا حوالي سنة ١٢٣٠ م وكان ابن هذا الاخير موسى بن صموئيل بن طبون الذي نبغ في المدة ١٢٤٠ - ١٢٨٣ م من اخصب من ترجموا من العربية الى العبرية .(٦٢)

القسم الثاني / رحلات الاطباء الى الاندلس

أ - رحلات الاطباء المشرقيين الى الاندلس .

قلنا فيما سبق بأن الصلة بين الاندلس وبقية مراكز العلم في المشرق والمغرب كانت دائمة فكما حفظت لنا كتب التراجم ذكراً للعديد من العلماء والاطباء الذين قاموا برحلات الى الشرق كذلك زخرت بآخرين كانوا يفدون الى الاندلس للاخذ من علمائها واللقاء بشيوخها في مختلف فروع المعرفة فيما عدا الطب حيث لم نعثر على اي طبيب قام برحلة طلباً للعلم او السماع من احد . وكل ما وجدناه كان ذكراً لطبيبين عالجا وساهما في ادخال المعرفة الطبية اليها وهما :

١ - الوليد المذحجي :

دخل الاندلس مع عبد الرحمن بن معاوية وكان طبيبه ، اخذ عنه ابنه ابراهيم .(٦٣)

٢ - يونس الحراني :

ورد من المشرق الى الاندلس في ايام الامير محمد بن عبد الرحمن . وكانت عنده مجربات حسان في الطب ، فاشتهر بقرطبة وحاز الذكر فيها . وادخل الاندلس معجوناً ، كان يبيع السقية منه بخمسين ديناراً لاوجاع الجوف ، فكسب به مالاً .(٦٤)

ب - رحلات الاطباء المغاربة الى الاندلس .

ان الارتباط السياسي بين المغرب العربي والاندلس لفترات طويلة من التاريخ كما ذكرنا جعل تواصلاً علمياً بينها فارتحل عدد من الاطباء المغاربة الى الاندلس حيث استقر بعضهم لوجد متسعاً وتشجيعاً لمواصلة التاليف وممارسة الطب . وكان ابرزهم :

١ - ابو عبد الله الصقلي :

يبدو أن هجرته الى الاندلس كانت في الفترة (٣٣٧ - ٣٤٠ هـ/٩٤٨ - ٩٥١ م) واستمر بقاؤه في بلاط عبد الرحمن الناصر وخليفته الحكم الثاني المستنصر .

وقد تعاون ابو عبد الله مع غيره من الاطباء في ترجمة كتاب الحشائش لديسقوريدس . وكان هذا الطبيب الصقلي يحسن الطب والصيدلة .(٦٥)

٢ - عبد الله بن محمد الثقفي السوسي ابو محمد (٤٠٣ هـ - ١٠١٢ م) .

طبيب دخل الاندلس وسكن قرطبة ، ولم يذكر احد من مترجميه مسقط رأسه . كان بارعاً في صناعة الطب بصيراً بالحكمة ماهراً في العلاج . وكان معاصراً للزهراوي ، قتل في الفتنة الحادثة بقرطبة عام ٤٠٣ هـ وكان عمره سبعين سنة او نحوها .(٦٦)

٣ - عبد الله بن يوسف بن طلحة الوهراني ، ابو محمد (كان على قيد الحياة عام ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م) ، قدم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاندلس تاجراً ، وكان من الثقات له رواية عن شيوخ افريقيا ، وكان نافذاً في الطب والحساب.[٦٧]

٤ - احمد بن علي المليـاني ، ابو العبـاس (٧١٥ هـ - ١٣١٥ م) .

من اهل مراكش ، صاحب العلامة بفاس ، اخذ بحظ من الطب ، وكان اديباً شاعراً ثائراً ، اقام بتلمسان ثم رحل الى الاندلس وبها توفي.[٦٨]

٥ - محمـد بن يحيى العزفي ، ابو القاسم (٧٦٨ هـ - ١٣٦٦ م) .

من بيت حسب ورئاسة في مدينة سبتة كان رئيساً بها وخلع فانتقل الى غرناطة ثم الى فاس ، وهو اديب شاعر اشتغل بالطب والف فيه (كتاب الاكتفاء في طلب الشفاء) .[٦٩]

ج - رحلات الاطباء الاوربيين الى الاندلس .

لقد استمر تواجد المسلمين في الاندلس ثمانية قرون (٩٣ - ٨٩٧ هـ/٧١١ - ١٤٩٢ م) . وفي عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢ - ١٨٢ هـ/٧٨٨ - ٧٩٨ م) جعلت العربية لغة التدريس في جميع المعاهد .

وفي زمـن عبـد الـرحمـن النـاصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ/٩١٢ - ٩٦١ م) اصبحت قرطبة عاصمة العلم في اوربا والغرب الاسلامي وقد نالت مختلف العلوم نصيبها الوافر من اهتمام الناصر وابنه الحكم الثاني المستنصر بالله (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ/٩٦١ - ٩٧٦ م) الذي اسس في قرطبة مكتبة علمية حوت ما يقرب من اربعمائة الف كتاب ، وسهر الحكم بنفسه على حسن الاستفادة من هذه الكتب وعلى توفير البيئة للدرس والبحث والتاليف وكان ذلك من بين الاسباب العديدة التي مهدت السبيل للازدهار العلمي الذي عرفته الاندلس منذ القرن الرابع الهجري واستمر بعد ذلك قروناً عديدة .

ان الطفرة التي شهدتها الاندلس في مختلف ميادين العلم لم تؤثر فيها الانقسامات السياسية فيما بعد لان الامراء تنافسوا في تنشيط الحركة العلمية وسموا في جلب العلماء والاطباء وشجعوهم على الاقامة في الحواضر التي يحكمونها . وكان الطب والصيدلة وعلم الادوية والاغذية والنبات من العلوم التي شملتها رعاية الامراء بشكل خاص وحظي اصحابها بالتشجيع واتيح لهم الجو الملائم لمواصلة نشاطهم بالبحث والتاليف والتعليم .

وهكذا اصبحت للحضارة العربية الاسلامية في الاندلس بريق خلب الباب جيرانهم من الامم اللاتينية الذين لم تمنعهم عداوتهم للمسلمين من القيام برحلات الى الاندلس لتلقي العلوم والطب من علمائها « فصارت قرطبة ، وطليطلة واشبيلية هدفاً للاوربيين ياتونها من ساليرنو ومونبلييه ، والمانيا ، وسويسرا ، وانكلترا ليطلعوا على ما فيها من روائع الحضارة ويتعلموا فيها ، ويحملوا منها ما كان يمكن حمله الى بلادهم التي كانت يومئذ تفتقر الى كل انواع المعرفة » .[٧٠]

نذكر فيما يلي الشخصيات العلمية الاوربية التي شدت الرحال الى الاندلس ونهلت من ذلك المعين العلمي الثر وحملت معها عوامل النهضة العلمية بشكل عام والطبية بشكل خاص :

١ - جربرت الاوريالكي Gerbert .

المولود في اوفرني حوالي ٩٣٠ م ، والذي تقلد البابوية باسم سلفستر الثاني ، وتوفي سنة ١٠٠٣ م ، لقد كان من الاوائل بين اشهر الشخصيات التي قامت برحلة الى الاندلس - وينبغي الاعتراف بان التاثير الذي تلقاه من العلم العربي كان عميقاً ، على الاخص فيما يتعلق بالرياضيات ، والراجح ايضاً انه اول عالم مسيحي عرف اوربة بالارقام العربية .[٧١]

ويقول عنه رينو « كان احد الوافدين الى قرطبة ودرس في جامعاتها واهتم بدراسة العلوم الطبيعية والرياضية وبرع بها حتى خيل لعامة فرنسة اذ ذاك انه ساحر » .[٧٢]

٢ - ادلارد من مدينة باث[٧٣] Adelard of Bath

لا نعرف تاريخ ولادته وربما كان سنة ١٠٧٠ م . وكان انكليزياً بحسب الاصل واقام عهداً في شبابه في نورماندياج . ولما شرع في الرحلة في المدة ١١٠٤ - ١١٠٧ م مرض ساليرنو واقام مدة في صقلية ثم رحل الى المشرق . فنجده في طرسوس على مقربة من انطاكية حيث كان يتنافس في التشريح الفني ، وفي مانستير ، واقام بعد ذلك في بيت المقدس . وبعد سبع سنين دخل مدينة ليون Leon الفرنسية . ثم اشتغل معلماً للامير هنري الذي اصبح فيما بعد الملك هنري الثاني ملك انكلترا .

اهم مؤلفاته كتاب المسائل الطبيعية الذي يبدو عليه التاثير العربي وترجم عدداً من المؤلفات العربية في علم الفلك والعلوم الرياضية وبذلك وسع نمو هذه العلوم في اوربا .

٣ - روبرت الكيتوني Robert of Ketton

وكان انكليزياً ومن بين المترجمين في معهد طليطلة .[٧٤]

٤ - روبرت اوف تشستر Robert of Chester

كان من المترجمين الاوربيين الى اللاتينية حوالي منتصف القرن الحادي عشر .

٥ - هرمن دالماتس Hermanus Dalmats[٧٥] .

من المترجمين الاوربيين الى اللاتينية في القرن الثاني عشر .

٦ - دانييل اوف مورلي[٧٦] Daniel of Morley

من الانكليز القائمين على الترجمة الى اللاتينية في القرن الثاني عشر. ذهب الى الاندلس وعاد بمجموعة كبيرة من الكتب.

٧ ـ جيراردو دي كريمونا[٧٧]

المولود في ايطاليا (كريمونا) حوالي ١١١٤ م والمتوفى في طليطلة سنة ١١٨٧ م . كان خصب الانتاج وهو يعد بحق اشهر المترجمين من العربية . قصد مركز الترجمة في طليطلة وفيها تعلم العربية على نصراني عربي من مواطني المدينة اسمه ابن غالب . ترجم المجسطي من صيغته العربية الى اللاتينية وكان عمره يناهز الستين . ومع ذلك استمر يترجم بلا كلل حتى آخر عمره ، فكانت حصيلة اعماله تربو على الثمانين كتاباً مترجماً التي لولا بعضها لاختفت معارف عربية كثيرة ومهمة بسبب ضياع اصولها الاولى بعد انسحاب العرب من اسبانيا . فيما يلي بعض ما ترجمه جيراردو من الكتب العربية :

١ ـ اكثر كتب ابقراط وجالينوس بترجمة حنين بن اسحق وتلاميذه .

٢ ـ اكثر كتب اسحق بن سليمان الاسرائيلي وعريب بن سعد .

٣ ـ الاجزاء الجراحية من كتاب المنصوري للرازي .

٤ ـ الثلاثة اجزاء الجراحية من كتاب التصريف للزهراوي .

٥ ـ الفصلين الرابع والخامس من الكتاب الرابع من قانون ابن سينا .

٦ ـ كتاب معرفة قوى الادوية المركبة للكندي .

٧ ـ كتاب يوحنا بن ماسويه .

٨ ـ الادوية المفردة لابن وافد الاندلسي .

٩ ـ شروح ابن رضوان المصري على جالينوس .

١٠ ـ بعضاً من كتب الفارابي ، وثابت بن قرة ، وابن الهيثم .

١١ ـ كتاب يوحنا بن سرافيون .

٨ ـ رايمون ريفونا

ايطالي الاصل استوطن مرسيه ، ثم انتقل الى طليطلة .

وفي هذه المدينة ترجم كتاب مسائل حنين بن اسحق بعنوان مسائل طبية .

٩ ـ ميخائيل سكوت Michael Scot

الانكليزي كان في اول امره في الاندلس (كان في طليطلة ١٢١٧ م) وترجم تاريخ الحيوان من العربية في عشرة اجزاء وكتباً كثيرة اخرى في الفلك والفلسفة وفي سنة ١٢٢٠ م كان في بولونيا ، توفي في صقلية بعد سنة ١٢٣٦ م ، ويشتمل عمره الحافل على تراجم ومؤلفات اصيلة في الحيوان والتنجيم والكتاب الطبي الفريد له كان كتاب في البول .

١٠ ـ هرمان الالماني Hermannus Alemannus

الذي كان في طليطلة سنة ١٢٤٠ م وتوفي في سنة ١٢٧٢ م في استورجه وترك ترجمات لابن رشد والفارابي .[٧٨]

١١ ـ ارنولد فلانوفا Arnald of Villanova

(١٢٣٥ م ـ ١٣١١ م) .

اسباني الاصل من فالانسيا من الاساتذة الذين خدموا في جامعة مونبلييه . وقد سافر طلباً لتعليم العربية وعاصر اواخر عمره فرج بن سالم وزامله في بلاط باليرمو في صقلية . ويعد اخصب المؤلفين انتاجاً بالنسبة لزمانه واكثرهم تأثراً بالاراء الطبية العربية . ويعد شرحه « النظام الصحي الساليرني » Regimen Sanitatis احسن شرح لتلك القصيدة .

كان يعرف العبرية والعربية واليونانية واللاتينية ، من ترجماته اقسام من كتب ابن سينا والكندي وابن زهر .[٧٩]

١٢ ـ سانجة Sancha .

ملك ليون واستور الملقب بالسمين ، يقال انه تعلم الطب على علماء قرطبة .[٨٠]

وبذلك آتي على نهاية البحث الذي ارجو ان اكون قد وفقت فيه في تقديم صورة واضحة عن رحلات الاطباء من الاندلس واليها التي كان لها اثر بارز في انتقال الطب العربي الى المغرب وبعث النهضة الطبية الحديثة فيها .

المصـــــــادر

١ ـ الخطابي / محمد العربي ـ الطب والاطباء في الاندلس الاسلامية ـ دار الغرب الاسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الاولى ١٩٨٨ ، ج١ ، ص٣٢ ، ١٥ .

٢ ـ ابن جلجل / ابو داود سليمان بن حسان الاندلسي ـ طبقات الاطباء والحكماء ـ تحقيق فؤاد سيد ـ القاهرة ١٩٥٥ ص١٠٧ .

٣ ـ ابن ابي اصيبعة / موفق الدين ابي العباس احمد بن القاسم بن خليفة ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء ـ اصدار دار الفكر ـ بيروت ١٩٥٦ ، ج٢ ، ص١٠٥ .

٤ ـ السامرائي / د . خليل ابراهيم ـ علاقات المرابطين بالممالك الاسبانية بالاندلس وبالدول الاسلامية ـ دائرة الشؤون الثقافية والنشر ـ بغداد ١٩٨٥ ص٣٥٨ ، بالاصل نقلاً عن ابن الابار ، التكملة ، ص١٧٢ .

٥ ـ ابن ابي اصيبعة ج٣ ، ص١٠٦ .

٦ - ابن الابار/ ابو علي حسين بن محمد / المعجم في اصحاب القاضي الصدفي - تحقيق ابراهيم الابياري - دار الكتاب المصري - القاهرة - ١٩٨٩ ص ٢٨٤ .

٧ - الخطابي / محمد العربي - الطب والاطباء في الاندلس الاسلامية ، مصدر سابق ص ٦٠ . بالاصل نقلاً عن التكملة ٩٣٧/٢ - ٩٣٨ .

٨ - محمد / الدكتور محمود الحاج قاسم - الطب عند العرب تاريخ ومساهمات - الدار السعودية للنشر ، جدة ١٩٨٧ ، ط١ ، ص٨٣ - ٨٤ .

٩ - الخطابي / المصدر السابق ص ٦١ . بالاصل نقلاً عن الذيل والتكملة ١٤١/١ .

١٠ - ابن ابي اصيبعة ، ج٦ ، ص١٢٩ .

١١ - يبين الاستاذ العربي الخطابي آراءه المخالفة لمن سبقه في كتابه الطب والاطباء في الاندلس الاسلامية ، ص٣٢٠ - ٤٠٩ .

١٢ - بن عبد الله / عبد العزيز - الطب والاطباء بالمغرب - ١٩٦٠ - ص٣٧ .

١٣ - ابن ابي اصيبعة ، ج٣ ، ص١٠٩ .

١٤ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٦٧ ، بالاصل نقلاً عن تاريخ الاسلام للذهبي حوادث) (٦٠٦ - ٦٢٠ هـ) .

١٥ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٦٧ ، نقلاً عن جذوة الاقتباس ٥٦٢/٢ - ٥٣٣ .

١٦ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٦٨ ، نقلاً عن الذيل والتكملة ٢٨٢/١ .

١٧ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٠ ، التكملة ١٢٠/١ - ق .

١٨ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٠ ، نقلاً عن عنوان الدراية ٧٦ .

١٩ - ابن ابي اصيبعة ، ج٢ ، ص١٢٨ .

٢٠ - ابن ابي اصيبعة ، ج٢ ، ص١٢٨ .

٢١ - ابن ابي اصيبعة / عيون الانباء ، ج٣ ، ص١٣٣ .

٢٢ - ابن ابي اصيبعة / عيون الانباء ، ج٣ ، ص١٣٠ .

٢٣ - ابن ابي اصيبعة / عيون الانباء ، ج٣ ، ص١٢٧ .

٢٤ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٤ ، نقلاً عن الديباج المذهب ٣٧٢/٢ .

٢٥ - السلماني / ابن الخطيب - الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٧٧ ، ص١٦٠ - ١٦٢ .

٢٦ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٥ ، نقلاً عن الدرر الكامنة ٢٢٣/١ .

٢٧ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٦ ، نقلاً عن ذيل تاريخ الاسلام للذهبي حوادث سنة ٧٥١ .

٢٨ - السلماني / ابن الخطيب - الاحاطة ، ٣٩٠/٤ .

٢٩ - السلماني / ابن الخطيب - الاحاطة ، ٥١٥ - ٥١٦ .

٣٠ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص١٩١ .

٣١ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٨٠ .

٣٢ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٨٥ - ٨٨ .

٣٣ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٤١ ، نقلاً عن طبقات الامم ١٦١ - ١٦٢ .

٣٤ - ابن جلجل / طبقات الاطباء والحكماء ، ص١١٢ - ١١٤ .

٣٥ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٣ ، نقلاً عن البغية الرواة ١٧٧/٢ .

٣٦ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٣ ، نقلاً عن ابن الفرضي ١٠٠/١ .

٣٧ - ابن جلجل / طبقات الاطباء والحكماء ، ص١١٥ ، ابن ابي اصيبعة - عيون الانباء ، ج٣ ، ص٧٤ .

٣٨ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٤ ، نقلاً عن ابن الفرضي ٦٠٣/١ .

٣٩ - ابن ابي اصيبعة / عيون الانباء ، ج٢ ، ص٦٤ .

٤٠ - ابن ابي اصيبعة / عيون الانباء ، ج٣ ، ص١٠٣ - ١٠٤ .

٤١ - ابن ابي اصيبعة / عيون الانباء ، ج٣ ، ص٨٢ - ٨٣ .

٤٢ - ابن ابي اصيبعة / عيون الانباء ، ج٣ ، ص٨٦ ، ١٠٠ .

٤٣ - الحنبلي / ابو الفلاح عبد الحي ابن العماد - دار الكتب العلمية ، ج٤ ، ص١٥٣ .

٤٤ - القفطي / تاريخ الحكماء ، ص٢٠٩ .

٤٥ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٦٦ ، بالاصل نقلاً عن ابن العبري ٢١١ .

٤٦ - القفطي / تاريخ الحكماء ، ص٢١٨ .

٤٧ - جمال الدين / د . محسن - اعلام من الاندلس في بغداد - مجلة المورد ، العدد ٤ - المجلد ٨ ، ١٩٧٩ ، ص٤٠ ، نقلاً عن نفح الطيب ، ص٦٣٥ .

٤٨ - ابن ابي اصيبعة / ج٣ ، ص١٤٤ - ١٤٥ .

٤٩ - الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٦٨ ، نقلاً عن تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص٢٤٢ .

٥٠ - الخطابي / المصدر السابق ، ج٢ ، ص٦٩ ، نقلاً عن عيون الانباء ١٣٣/٢ ، التكملة ١٢١/١ ، الاحاطة ٢٠٧/١ - ٢١٤ .

٥١ - الخطابي / المصدر السابق ، ج٢ ، ص٦٩ ، نقلاً عن التكملة ٩٠٣/٢ - ٩٠٥ .

٥٢ - ابن ابي اصيبعة / عيون الانباء ، ج٣ ، ص٢٢٠ - ٢٢٢ .

٥٣ - الخطابي / المصدر السابق ، ج٦ ، ص٧٤ ، نقلاً عن السلوك للمقريزي ١٦١/٢ .

٥٤ - الخطابي / المصدر السابق ، ج٢ ، ص٨١ ، نقلاً عن الضوء اللامع ١٢١/٣ .

٥٥ - محمد / الدكتور محمود الحاج قاسم - الطب عند العرب تاريخ ومساهمات - الدار السعودية للنشر ، جدة ١٩٨٧ ، ص٨٧ .

٥٦ - ابن ابي اصيبعة / عيون الانباء ، ج٣ ، ص١٢٩ .

٥٧ - الخطابي / المصدر السابق ، ج٢ ، ص٧٥ ، نقلاً عن الاحاطة ٢٤٠/٤ - ٢٤١ .

٥٨ - الخطابي / المصدر السابق ، ج٢ ، ص٧٥ ، نقلاً عن الاحاطة ٢٣٣/٣ - ٢٣٤ .

٥٩ - السامرائي/ د . كمال - مختصر تاريخ الطب - دائرة الشؤون الثقافية - بغداد ١٩٨٤ ج٢ ، ص٢٢٦ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٦٠ ـ لويس / برنارد ـ تاريخ اهتمام الانكليز بالعلوم العربية (مقالات نشرت لاول مرة في المستمع العربي) ـ ط٢ ، بدون تاريخ ، ص٤ .

٦١ ـ الخطابي / المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٩ ، نقلاً عن دائرة المعارف الاسلامية ١/٥٤٧ ـ ٥٤٩ .

٦٢ ـ الدوميلي / العلم عند العرب ، ص٤٦٥ .

٦٣ ـ بن عبد الله / الطب والاطباء بالمغرب ، ص١٠ .

٦٤ ـ ابن جلجل / طبقات الاطباء والحكماء ، ص٩٤ ، ابن ابي اصيبعة ـ عيون الانباء ، ج٣ ، ص٦٦ ـ ٦٧ .

٦٥ ـ الدوري / د . تقي الدين عارف ـ صقلية علاقتها بدول البحر المتوسط الاسلامية ـ دار الرشيد للنشر ـ بغداد ١٩٨٠ ، ص٢٢٩ .

٦٦ ـ الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٨ ـ ٤٩ نقلاً عن التكملة لابن الابار٢/٩١٢ .

٦٧ ـ الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٩ ، نقلاً عن الصلة ١/٢٩٨ .

٦٨ ـ الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٧١ ، نقلاً عن الاحاطة ١/٢٨٤ ـ ٢٨٦ .

٦٩ ـ الخطابي / المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٧ ، نقلاً عن الاحاطة ٣/١١ ـ ١٧ .

٧٠ ـ السامرائي / مختصر تاريخ الطب ، ج٢ ، ص٢٠٢ نقلاً عن

٧١ ـ الدوميلي / العلم عند العرب واثره في تطوير العلم العالمي ـ نقله الى العربية د . عبد الحليم النجار ، د . محمد يوسف موسى ـ دار القلم ـ ط١ ، ١٩٦٢ ، ص٤٥٤ ـ ٤٥٥ .

٧٢ ـ رينو / جوزيف ، تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرة وايطاليا وجزائر البحر المتوسط ـ ترجمة شكيب ارسلان ـ بيروت ١٩٦٦ ، ص٢٩٦ .

٧٣ ـ اقرأ عنه الدوميلي ـ ص٤٣٨ ـ ٤٤٠ ، برنارد لويس ، ص٤ ـ ٥ .

٧٤ ـ يونغ / لويس ـ العرب واوربا ، ترجمة ميشيل ازرق ـ دار الطليعة للنشر ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٧٦ ، ص١٢٠ .

٧٥ ـ الدوميلي ، ص٤٥٧ .

٧٦ ـ الدوميلي ، ص٤٥٧ .

٧٧ ـ اقرأ عنه الدوميلي ص ٤٥٨ ، السامرائي / مختصر تاريخ الطب ، ج٢ ، ص٢٢٩ .

٧٨ ـ الدوميلي ص ٤٥٠ .

٧٩ ـ السامرائي / مختصر تاريخ الطب ، ج٢ ، ص٢١٣ .

٨٠ ـ كرد علي / محمد ـ اثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية . مقال ، مجلة المجمع العلمي العربي ـ دمشق ، ج١٠ ، ص٧ ، ١٩٢٧ .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر ابن هذيل القرطبي
(ـ ٣٨٩ هـ)

صنعهُ وحقّقهُ

د . احمد حاجم الربيعي

كلية التربية ـ الجامعة المستنصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه اجمعين . وبعد : قد يجد الباحث عند دراسة الادب في عصر ما تبايناً في تطوره بين فترة واخرى ، وهذا التباين لا يمكن معرفة اسبابه الا بالتامل والتدقيق في نتاج ابنائه ، وعندما تتكشف تلك الاسباب ، سيجد ان هناك حلقة مفقودة في تاريخ هذا الادب ، أو نجماً حجبته ـ دون قصد ـ سحب النسيان ، وهذه الحلقة المفقودة التي تصل بين الشاعرين ابن عبد ربه والرمادي تتمثل في ابن هذيل الشاعر الذي انتقل من خلال الموروث الشعري الى معاصره الرمادي وتلميذه في صنعة الشعر ، فمن هو ابن هذيل ؟

اسمه ونسبه :

يحيى بن هذيل بن عبد الملك بن هذيل بن اسماعيل بن نويرة بن اسماعيل بن نويرة بن مالك التميمي ، من اهل قرطبة ، يكنّى ابا بكر ، وأملى على ابن الفرضي نسبه هذا[١]وذكر الثعالبي : ان اسم ابيه هو عبد الملك بن هذيل[٢]واضاف الحموي : ان اسم جده هو الحكم بن عبد الملك بن اسماعيل التميمي[٣] . ويعرف بابن هذيل القرطبي[٤]أو ابن هذيل الكفيف[٥]أو الاعمى[٦]وفي هدية العارفين : الشهير بابن قويرة[٧] ولم اجد هذه الشهرة في المصادر المتقدمة ، ولعلها جاءت من قورة أو قورية ، فالاولى : قرية من قرى اشبيلية ، والثانية : مدينة من نواحي ماردة[٨] فهل كانت احداهما موطن آبائه واجداده ؟

ولادته ونشأته :

ذكر ابن الفرضي : ان يحيى بن هذيل قد اخبره انه ولد سنة خمس وثلاث مئة[٩]ولم تذكر لنا المصادر شيئاً عن طفولته المبكرة ، ومن الممكن ان نتصور ان ابن هذيل قد التحق للدراسة بالمساجد ، فقرأ القرآن الكريم ، وتعلّم شيئاً من الحديث النبوي الشريف ، والفقه الاسلامي ، وقواعد اللغة العربية .

وقال ابن خلدون : « اما اهل الاندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو ، وهذا الذي يراعونه في التعليم إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسسه ، ومنبع الدين والعلوم ، جعلوه أصلًا في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل ، واخذهم بقوانين العربية وحفظها ، وتجويد الخط والكتاب .... الى ان يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة ، وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما ، ويرز في الخط والكتاب ، وتعلّق باذيال العلم على الجملة . »[١٠]

شيوخه وتلامذته :

اقبل ابن هذيل في مبتدأ عمره على دراسة الفقه والحديث ، فسمع مع أخيه عبد الملك من احمد بن خالد المعروف بابن الجبّاب (ـ ٣٢٢ هـ) وكان « امام وقته ـ غير مدافع ـ في الفقه والحديث والعبادة »[١١] وسمع من محمد بن عبد الملك بن ايمن (ـ ٣٣٠ هـ) وكان « فقيهاً عالماً حافظاً للمسائل والاقضية نبيلًا في الرأي ، مشاوراً في الاحكام ، صدراً فيما يستفتى »[١٢]وسمع ايضاً من قاسم بن اصبغ المعروف بالبياني (ـ ٣٤٠ هـ) وكان « بصيراً بالحديث والرجال ، نبيلًا في النحو والغريب والشعر »[١٣] .

وكانت لهذين الاخيرين معاً رحلة الى المشرق سنة ٢٧٤ هـ ، فدخلا العراق ، وسمعا ببغداد من اسماعيل بن ابي اسحق قاضي القضاة ، واحمد بن زهير بن ابي خيثمة ، ومحمد بن اسماعيل الترمذي ، وعبد الله بن احمد بن حنبل ، والحارث بن اسامة التميمي ، ومضر بن محمد الاسدي ، وعبد الله بن مسلم بن قتيبة ، ومحمد بن يزيد المبرد ، واحمد بن يحيى

ثعلب ، وآخرين من ائمة المسلمين ومشاهير الرواة .[١٤]

وكانت له ـ بعد ذلك ـ علاقة طيبة باستاذه محمد بن عمر بن القوطية ، وقد ذهب يوماً الى زيارته في ضيعة له بسفح جبل قرطبة ، وكان منفرداً فيها عن الناس ، فالفاه خارجاً منها ، فاستبشر بلقائه ، فبادره ببيت حضره على البديهة . فقال :

من اين اقبلت يا من لا شبيه له ومَنْ هُو الشمسُ والدُّنيا لهُ فَلَكُ .

فتبسم وأجاب مسرعاً :

مِنْ منزلٍ يُعجبُ النُسّاك خلوتهُ وفيه سترٌ على الفتّاكِ إنْ فتكوا

قال ابن هذيل : فما تمالكت ان قبّلت يده ، إذ كان شيخي واستاذي .[١٥]

ولكن ابن هذيل في عام ٣٢٨ هـ ـ وعمره ثلاثة وعشرون عاماً ـ يتعرض الى حادث مثير يغير وجهته من دراسة الفقه الى صناعة الشعر ، وقد نقل الينا ابن حزم هذا الحادث رواية عن خلف بن عثمان المعروف بابن اللجّام . قال : « حدثني يحيى بن هذيل : ان أول تعرضه للشعر انما كان لانه حضر جنازة احمد بن محمد بن عبد ربه ، قال : وانا يومئذ في اوان الشبيبة ، قال : فرأيت من الجمع العظيم ، وتكاثر الناس شيئاً راعني ، فقلت لمن هذه الجنازة ؟ فقيل لي : شاعر البلد ، فوقع في نفسي الرغبة في الشعر ، واشتغل فكري بذلك ، وانصرفت الى منزلي ، فلما اخذت مضجعي من الليل أريت كاني على باب دار ، فيقال لي : هذه دار الحسن بن هاني ، فكنت اقرع الباب ، فيخرج اليّ الحسن ، فيفتح الباب وينظرني بعين حولاء ثم ينصرف ، قال : فاستيقظت من ساعتي ، وقمت سحراً الى المفسّر فقصصتها عليه ، فقال : سيكون محلك من قول الشعر بمقدار ما كان يتحوّل إليك من عين الحسن . »[١٦]

وتحقق لابن هذيل ما اراد ، فقد توجّه الى صناعة الشعر ، ووجد في نفسه رغبة في نظمه ، وصقل موهبته الشعرية ، وقد ترك استاذه ابن اصبغ ـ احد رواة كتب ابن قتيبة في الاندلس ـ لمسة ادبية على موهبته ، اضاف اليها شيئاً من مطالعاته في دواوين الشعراء الذين سبقوه . ولم تذكر المصادر تلك الدواوين ، الّا انني استشف من خلال شعره انه قد تاثر بشعر الغزال وابن عبد ربه وبشار والمتنبي ، واصبح ابن هذيل شاعر وقته غير مدافع .

اما عن تلامذته فقد روى عنه احمد بن عبد الله بن بدر مولى المستنصر بالله (*) وذكر ابن سعيد : « ان الرمادي اكتسب صناعة الادب من شيخه ابي يحيى بن هذيل عالم ادباء الاندلس »[١٧] وذكر الصفدي : ان ابن هذيل كان شيخ الرمادي .[١٨] ونقل لنا إبن بسام خبراً بنصه عن معارضته الرمادي لاستاذه حكاية عن نفسه ، قال : « بكّرتُ الى ابي المطرف بن مثنى فالفيتُ قد بكّر قبلي يحيى بن هذيل ، فقال لي : ما عندك ؟ فقلت : ليس عندي كبير معنى ، ولكن ما عندك انت ؟ فاخرج من كُمّه قصيدته التي يقول فيها في صفة الحمامة :

ومُرِنَّةٍ والدُّجْنُ ينشُج فوقها بَـرِنَيْنِ من طلٍّ ونـوءٍ بـاكِ

.... الابيات

فانشدنيها وانا اعد محاسنه فيها ، فلما اكملها قال لي : انصرف الى المكتب وتادب حتى تحكم مثل هذا ، فكانه حركني ، واتفق انه لم يخرج الينا ابو المطرف ذلك اليوم ، فبكرت من الغد اليه ، وانشدته قصيدتي التي اقول فيها في وصف الحمامة :

أحمامة فوق الاراكة تنثني بحياةِ مَنْ أبكاكِ ما أبكاكِ؟
أمّا انا فبكيتُ من خرق الهوى وفراقِ من أهوى أأنتِ كذاكِ؟

قال : فلما سمعها ابن هذيل : قال : عارضتني ؟ قلت : لا والله الّا ناقضتك ، فقال : اذهب فقد اخرجتك من المكتب . »[١٩]

وقد استوقف هذا الخبر ماهر زهير جرار جامع شعر الرمادي ، فبيّن ان اوّل تعرض ابن هذيل للشعر كان في اوان الشبيبة يوم وفاة ابن عبد ربه سنة ٣٢٨ هـ ، وبهذا يرى ابن هذيل كان من عمر الرمادي ، فلا يعقل ان يكون شيخه ، وفي هذا الوقت كان الرمادي قد بلغ شاواً بعيداً في الشعر ، فكيف يقول له ابن هذيل : انصرف الى المكتب وتادّب حتى تحسن مثله ؟ وعلى هذا يعتقد ان ابن هذيل لم يكن شيخ الرمادي ، بل كانت تجمع بينهما زمالة وصداقة ، وقوله للرمادي ما هو الاعلى سبيل المداعبة .[٢٠]

ان ما ذكرته بعض المصادر عن كون ابن هذيل شيخاً للرمادي لا يعني ان الرمادي قد جلس اليه وتتلمذ عليه ، وانما تاثر بشعره وصنعته الشعرية ، أو طريقته في نظم الشعر ، وما فيها من توليد في المعنى واغراب في التصوير ، فاخذها وتقدم بها خطوات ، وبهذا يمكن أن يقال عنه بانه كان استاذه أو شيخه في الصنعة ، وإن كانا متقاربين في العمر ، فلا ضير في ذلك ، وهذا ما يحدث بين شاعرين او اكثر وفي كل عصر .

صنعته الشعرية :

الصنعة الشعرية : هي العمل الفني الذي يبذل الشاعر فيه جهداً كبيراً لاستخراج المعاني النادرة والغريبة بطريقة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الصقل والنحت الذهني والاحاسيس المرهفة ليستولي بها على اذهان الناس وعقولهم . وقد نال ابن هذيل بمقدرته على توليد معاني الشعر، وحسن الاختراع استحسان كبار الشعراء والنقاد . فقد روي : « ان ابا الطيب المتنبي على قلة رضاه عن شعر احد فانه على ما ذكر عنه انشد لجملة من شعراء الاندلس حتى انشد قول ابن هذيل :

اذا حسستُ على قلبي يدي بيدي   صحتْ في الليلة الظلماء واكبدي
ضدتْ كواكبُ ليلي في مطالعها   وذابت الصخرةُ الصماءُ من جلدي

فقال ابو الطيب : هذا اشعر اهل المغرب »[٢١] وقيل : هذا اشعر القوم[٢٢] ويراه ابن بسام قد عاقد بين قوله (يدي بيدي) و (ذابت الصماء من جلدي) . وسمى هذا الفن بالمعاقدة[٢٣]

وقد شغف الشاعر الشريف الطليق بطريقته في التشبيه[٢٤] وكان ابن حزم يحفظ كثيراً من شعره وينشده ايضاً .[٢٥] واختار له ابن سعيد هذين البيتين في كتابه (المرقصات والمطربات) لما يتمتعان به من حسن الاختراع والتوليد . [٢٦] وقد علق ابن بسام على قصيدته في وصف الحمامة :

بحرية والدجن ينسج فوقها   بـبـردين من خالي ونسوه باتث

بقوله : « وانا اقول : وإن كان كلام الرمادي من الحلو المطبوع ، فلا نسبة بينه وبين كلام ابن هذيل ، وقد انفرد في صفتها انفراد سهيل »[٢٧] وقد عارضوا عدد من الشعراء منهم : يوسف بن هارون الرمادي[٢٨] وسعيد بن عثمان المعروف بالبلينة[٢٩] وابو اسحاق الالبيري[٣٠] وناهض بن محمد الوادي آشي[٣١] ومحمد بن شبيه الملقب بالمتحرب[٣٢]

ولعل من ابرز سمات صنعته الشعرية الغرابة في التصوير ، هذه الغرابة تستدعي مخيلة واسعة . ليست بالضرورة ان تكون بصرية ، وانما قد تكون سمعية أو نفسية - مثل مخيلة ابن هذيل - فترسم هذه المخيلة صورة طبيعية ، وتضع عليها لمسات غير واقعية ولنتأمل صورة الوداع عنده :

وضعنا على جمر الفراقِ خدودَنا   فعادتْ سماءُ الكبر من ثُلِّنا أرْضا
وقفنا وقوفَ الدمع من بهتةِ النوى   فلم نستطعْ ركضاً ولم نستطعْ نهضا[٣٣]

فوضع الخد على جمرة الفراق ، والوقوف وقفة الدمع ، وتحوّل سماء الكبر ارضاً كلها تدل على الغرابة في هذه الصنعة .

ومن سمات هذه الصنعة التكلف والاغراق حتى حدود الاحالة ، مثل قوله :

شاهدتُهم وأنا اخاف عناقهم   شُحّاً على اجسامهم أنْ تُحرقا[٣٤]

وقوله ايضاً :

يكادُ يضيقُ الجوُ من عظم زفرتي   وتهفُو نُجومُ اللّيلِ من فَرطِ إعوالي[٣٥]

ومن سماتها ايضاً بناء الصورة على نوع من الوهم ، فيتصور ان جميع الاشياء التي يتفاعل معها تنازعه احاسيسه ، وتنافسه فيها . فهذه الدموع مثلًا تحسده ، وقد غطّت على عينيه لئلا يرى حبيبته فيودعها يوم فراقها :

وبيني وبين المستقلّةِ بالنّوى   دُموعي ونورٌ ساطعٌ تحتَ بُرقعِ
كأنّ دموعي حاسدتني فلم تدعْ   لواحظَ عيني أنْ تودّعها معي[٣٦]

واذا كان شعر ابن هذيل يحمل طابع الجهد والتروّي ، فانه لا يخلو احياناً من الخفة والارتجال ، فقد وجدت له مقطوعة اعتمد فيها على اجتلاب خاطره ، وسرعة بديهته وقد نقل الينا المقري رواية عن الحميدي : انه « انشد بحضرة ملوك الاندلس قطعة لبعض اهل المشرق ، وهي :

وبانا عليهم لو أجابوا فسلّموا   وقد علموا أنّي المشوقُ المتيّمُ

... الابيات

فافرط بعض الحاضرين في استحسانها . وقال : هذا ما لا يقدر اندلسي على مثله ، وبالحضرة ابو بكر يحيى بن هذيل ، فقال بديهاً :

عرفتُ بعرف الريح اين تيمموا   واين استقل الظاعنون وخيّموا

.... الابيات »[٣٧]

هذه هي طريقة ابن هذيل ، وهذه صنعته التي لم نجد مثلها عند الشعراء الذين سبقوه . فالغزال كان شعره اقرب الى الطبع وابعد عن التكلف ، وابن عبد ربه حاول أن يولد معاني جديدة في شعره ، ولكنه لم يستطع أن يفارق معاني الاقدمين ، اما ابن هذيل فقد خطا في ذلك خطوة ، وتبعه معاصره الرمادي فقطع في هذه الصنعة خطوات بعيدة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفاته :

توفي ابن هذيل ليلة الاربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ٣٨٩ هـ ودفن يوم الاربعاء بعد صلاة العصر في مقبرة متعة[٣٨] وفي رواية اخرى: توفي سنة ٣٨٥ أو ٣٨٦ هـ[٣٩] والرواية الاولى اصوب لان راويها قد حضر جنازته .

شعره :

ذكر ابن الفرضي (ـ ٤٠٣ هـ) : أن ابن هذيل « كان شاعر وقته غير مدافع ، وطال عمره فسمع منه بعض الناس ، وقرىء عليه على سبيل الرواية ، وقد كتبت عنه من حديثه وشعره ، وأجاز لي روايته وديوان شعره . »[٤٠] ويعني هذا ان شعره كان مدوناً[٤١] وذكر ابن خير الاشبيلي (ـ ٥٧٥ هـ) : « ان شعر ابن هذيل قد حدثني به أبو عبد الله محمد بن معمر ، عن أبي بكر محمد بن هشام المصحفي ، عن ابيه قراءة عليه ، عن ابن هذيل نفسه . »[٤٢] وهذا يعني ان شعره كان متداولا في القرن السادس الهجري وربما تعدى الى ابعد من ذلك ، ولكن هذا الديوان لم يصل الينا فقد ضاع مع الدواوين الاخرى ، وقد احتفظت بعض المصادر ببعض المقطوعات من شعره .

ومن خلال الاطلاع على شعره ـ وتغلب عليه سمة المقطوعات ـ وجدته يربو على اربعمائة وثمانين بيتاً ، وعلى مائة وثلاث وثلاثين مقطوعة . واغلب ما جمعته له كان في الوصف ، ولعل ذلك يعود الى ان ابن الكتاني في كتابه التشبيهات قد اختار من قصائده بعض المقطوعات التي تتلاءم وموضوع الكتاب ، وقد وجدت في هذه المقطوعات بعض ما يدل على انها كانت جزءاً من قصائد المديح أو الغزل .

ويمكن ترتيب شعره حسب الاغراض الشعرية الاتية :

١ ــ المديح :

عاصر ابن هذيل ثلاثة خلفاء امويين وهم : عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) والحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) وهشام المؤيد (٣٦٦ ـ ٤٠٦ هـ) الذي لم يبلغ الحلم فتولى عنه حكم البلاد حاجبه المنصور بن ابي عامر ، وكانت صلته بهم تتحدد بما نجده في مديح احدهم ، ولكن ابن هذيل فيما يبدو لم يقبل على المديح من اجل النوال ، ولعل حياءه يمنعه من ذلك ، فلا يريد ان يكون متذللاً مثل غيره من الشعراء ، ولا يسأل الحاجة الا وحياؤه حسام مسلط على رأسه يمنعه من ذلك :

وليس انبساطي في عُلاك متذللاً كثيري ولكن فيك جوهر منطقي

فما أسألُ الحاجات الا كأنما حيائي على وجهي حُسامٌ بمفرقي[٤٣]

ولعله بعد ان تقدم به العمر ، وكف بصره ـ وعلى الارجح في زمن الحاجب المنصور ـ اضطر الى ان ينال حاجته على الرغم من هيبة ممدوحه ، مثله مثل الارض تنال حاجتها من الحيا والرعد مطبق عليها :

ونائلهُ منهُ جُبنهُ تحت هيبةٍ هي المُزنُ يسقي الارض والرعدُ مُطبقُ[٤٤]

وفيما عدا ذلك نجده في قصيدة يهنىء الخليفة الحكم المستنصر عام ٣٦٤ هـ بابلاله وشفائه من مرضه « وفي يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الاول طاف على الخليفة الحكم طائف الم به منعه من الظهور لاهل مملكته ، واشفقت الرعية لما عراه ، وارتمضت واعلنت الادعية الى الله تعالى في تعجيل فرجه ، واحتجب امير المؤمنين عن جميع اهل مملكته متدعاً في علته من يوم الاحد المؤرخ الى ان تخفف من وصبه ، وغازلته عافيته ، وظهر لخاصته اول ظهوره ، وذلك يوم الجمعة الثلاثة بقيت من ربيع الاخر بعده . »[٤٥] فقال ابن هذيل :

يا فُرجة للحادث المتكشف ويداً يُفيقُ بها الزمانُ ويشتفي

عمّ السرورُ فكلُّ نفسٍ حالُها في حالِ يعقوبٍ ببُردة يوسف[٤٦]

اما مقطوعاته التي تدل على انها كانت جزءاً من قصائد المديح فمن الممكن وضعها في جانبين : الجانب الاول : ويتضمن الاشادة بانتصارات عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والحاجب المنصور في غزواتهم مع النصارى أو الثائرين على مدى قرن من الزمان ، ويدخل في هذا المديح وصف آلات الحرب وادوات القتال ، كالسيوف والرماح والقسي والنبال ، والخيل والسفن ، ووصف الاسرى والمصلوبين .

ففي احدى مقطوعاته يصف ابن هذيل المأسورين والمسوقين منهم الى الخليفة وقد عرضوا امامه ، ويصور مدى ظغينتهم عليه ، فهم يضمرون الحقد اكثر مما يظهرون الرضا ، فلو شق قلوبهم ونظر ما فيها لتغير رأيه فيهم ، ويلجأ احدهم الى التعبير عن رضاه فتمنعه ظغينته من ذلك ، فكانها حجر بين فكيه :

سيقوا إليك فلو شُقّت قُلوبُهمُ لا سَودُ ظنُّك من إفراطِ ما ستروا

يرومُ اخطبهم تأليفَ واحدةٍ كانما بين فكّيْ نُطقه حجرُ[٤٧]

والبيتان فيهما تعريض بهؤلاء المسوقين وتحريض عليهم . واذا استعرضنا تلك الاحداث والفتن في عهد الناصر

فإن [illegible] يكون ابن هذيل شاعراً ، وفي [illegible] الحكم المستنصر [illegible] حسن بن قنون في المغرب [illegible] في الاندلس ، فوجه اليه الحكم جيشاً [illegible] اليه عدداً من اسرائهم . وقد [illegible] في هجاء ذلك الثائر [illegible] قد انشدت في هذه [illegible]

وفي [illegible] ابن هذيل ممدوحه ، ويشيد [illegible] الذين لم يبق منهم الآن فرّ من [illegible] عن الممدوح وقوة [illegible] يبالغ في مدحته ، وكأن خوفه [illegible]

[illegible] بذكرك وكأنْ
[illegible] كما نغب الاديم المحصف[illegible]

ولعل [illegible] الحكم المستنصر الذي [illegible] ٣٥٠ [illegible] حتى نكث [illegible] بعض الحصون اليه . ولما [illegible] ملوك النصارى الاخرين [illegible] وأمير برشلونة [illegible] عام ٣٦٢ هـ [illegible] التصدي له [illegible] .

وفي عام ٣٦٦ [illegible] الحكم المستنصر ، وخلف ابنه هشام [illegible] فتولى الحاجب المنصور [illegible] سلسلة رائعة من [illegible] بنفسه حتى بلغت اكثر من خمسين غزوة .

وفي ربيع سنة ٣٧٨ هـ خرج المنصور في جيش ضخم ، وعبر نهر دويرة ، واخترق اراضي بليون ، ورابط برمودو في معظم قواته بمدينة سمورة اعتقاداً منه ان المنصور سيبدأ بمهاجمتها ولكن المنصور اقتحم مدينة ليون بعد قتال رائع ودخلها بقواته ، ثم سار بعد ذلك الى مدينة سمورة فضرب الحصار حولها ، فاضطر برمودو الى الفرار سراً بنفسه ، وترك المدينة ، فاضطر اهلها الى التسليم[٣٠] ولعل في ذلك يقول ابن هذيل :

إن الحتي [illegible] بنفسه للخوف منكشف بلا سربال
تحدى به [illegible] من [illegible] معقولة بعقال[٣١]

ومن الايام المشهودة في عهد الحاجب المنصور مقدم شانجة ملك نبرة عليه ، طالباً الصلح معتذراً اليه ، لائذاً بعفوه ، فوصل الى قرطبة في الثالث من رجب سنة ٣٨٢ هـ ـ وكان شانجة صهراً له ، زوجه ابنته تقرباً اليه ، فاعتنقت الاسلام ، وسميت باسم (عبدة) ورزقت منه بولده عبد الرحمن الذي لقب بشنجول نسبة الى جده ـ فسر المنصور بمقدمه ، واستقبله بموكب فخم على رأسه حفيده شنجول ، ووقف الجند في صفوف زاهية ، حتى وصل الى مجلس المنصور[٣١] ولعل في ذلك اليوم المشهود يقول ابن هذيل :

وانظُرْ الى ملكِ النصارى كلُّها كيف استقادَ إليكَ وهو مُبادرُ
والخوفُ يدفعهُ إليكَ كأنهُ كرةٌ لها في الصَّولجانِ مكاسرُ[٣٢]

وينتقل ابن هذيل الى وصف آلات الحرب وادوات القتال ، فالرماح بيد الممدوح شهب مطلعها يديه ، طالبة من يسترق السمع من شياطين الاعداء لتهوي على كتيته فتفرعها :

ومُرهفاتٍ كأنهاشهبٌ طوالعٌ في يديكَ مطلعها
كأنها طالباتُ مُسترقٍ مفزعها في الكُلى ومشرعها[٣٤]

الجانب الثاني : ويتضمن الاهتمام بالعمران وبناء المدن مثل مدينتي الزهراء والزاهرة ، ووصف مبانيهما ونوافيرهما والرياض المحيطة بهما .

بدأ الخليفة عبد الرحمن الناصر ببناء مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ هـ على سفح جبل العروس في شمال غربي قرطبة ، وقد جلب اليها الرخام من قرطاجنة وتونس ، وعدداً كبيراً من السواري من افريقيا وبلاد الروم . وكان المتولي لهذا البناء ابنه الحكم ، فقسّم الناصر الجباية على ثلاثة اثلث ، ثلث للجند ، وثلث لبناء المدينة ، وثلث مدخر[٣٥] فاصبحت من اجمل المدن واعظمها ، فانتقل اليها الناصر واستوطنها ثم من بعده ابنه الحكم ، ثم حفيده هشام .

وصف ابن هذيل هذه المدينة في قصيدة مدح فيها الخليفة الناصر ، ولم يبق منها سوى هذا الوصف فيها :

كان حناياها جناحا مُصفّقٍ إذا الهبتْهُ الشمسُ ارخاهُما نشرا
كان سواريها شكتْ فترة الضنى فباتتْ مُضيماتِ الحشا نُحّلا صفرا[٣٦]

وفي سنة ٣٦٨ هـ امر الحاجب المنصور ببناء مدينة الزاهرة على نهر قرطبة بطرفها ، وحشد إليها الصنّاع وجلب اليها الالات وتوسع في اختطاطها وانتشارها في البسيطة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبالغ في رفع اسوارها ، فاتسعت هذه المدينة ، واتصلت ارباضها بقرطبة ، وانجزت في عامين ، وانتقل اليها المنصور وجعلها دار حكمه[٤٧] .

وصف ابن هذيل هذه المدينة ايضاً في قصيدة مدح فيها المنصور ، ووصف قصورها وتماثيلها ، وبساتينها ونواويرها ، فقال مخاطباً اياه :

كأنّ الصهاريجَ التي من أمامها بحارٌ ولكنْ جودُ كفيكَ أوسعُ
كأنّ الاسودَ العامريةَ فوقها تهمُّ بمكروهٍ إليكَ فتفزعُ
فلمّا نشا النُوّارُ فيها ظننتُها قبابكَ يا منصورُ حين ترفّعُ[٤٨]

وفي مقطوعة اخرى يصف مجلس المنصور بين حدائق الزاهرة :

متألّقٌ وكأنّهُ متعلقٌ بالنجمِ دونَ قوائمٍ وخوافِ
وكأنّ صفَّ وصائفٍ برزتْ الى الـ منصورِ عَن كللٍ من الصُفصافِ[٤٩]

وقد يصف الناعورتين المنصوبتين على النهر بين حدائق الزاهرة ، فقال مخاطباً المنصور :

وانتَ ابتدعتَ لناعورتين بدائعَ أعيتْ فما توصفُ
هما ضرّتانِ كمثلِ يديكَ إذا جارتا والحيا مُنصفُ[٥٠]

لقد استطاع ابن هذيل في مدائحه ان يمثل صورة الحياة في قرطبة بوجهيها ؛ وجه الانتصارات المتلاحقة ضد الممالك النصرانية ، وما يمثله ذلك من زحف الجيوش ، وحركة الالات الحربية ، وصهيل الخيول ، وصليل السيوف ، ونصب الاعمدة للمصلوبين من الثائرين ، وجلب الاسرى ، ومجيء السفراء والوفود لعقد الصلح . ووجه العمران وبناء القصور ، وصنع التماثيل ، ونصب النوافير ، والاكثار من الرياض ، وعقد مجالس الادب ، وشراء الكتب ، وتوسيع المكتبات . لقد كان عصر ابن هذيل من ازهى العصور في الاندلس .

٢ ـ الغزل :

كان الشعراء الاندلسيون في القرن الرابع الهجري يعدون الشعر المحدث هو المثال الذي يستوحونه في اشعارهم ، ولا يعني هذا انهم لم يعرفوا شعر العرب الاوائل ، وطريقتهم في الابتداء بالغزل أو النسيب . وازاء ذلك نجد مقطوعة واحدة لابن هذيل في الوقوف على الديار ، والبكاء عليها ، مثل قوله :

لا تُعنّني على البكاءِ بدارٍ أهلُها صيّروا السَقامَ ضجيعي
جعلوا لي إلى الوصالِ سبيلاً ثم سدّوا عليّ بابَ الرجوعِ[٥١]

وهناك مقطوعات تبدأ بالنسيب ، ورحيل الغواني عن ديارهن في وقت السحر ، فيصف الشاعر مشيتهن وحركاتهن بفتور ، وبروز اطراف روادفهن ونهودهن ، وتناثر قطرات الندى على هوادجهن ، ثم يصف حاله عند وداعهن من البكاء والاسى وحرارة القلب والسهد .[٥٢]

من ذلك قوله في وداع احبابه :

شاهدتُهم وأنا اخافُ عناقهم شُحّاً على اجسامِهم أنْ تُحرقا
فتركتُ حظّي من تَنْؤي منهُمُ ومن الوفاء بانْ تُحبَّ فتَشفُقا
وأقلُّ فعلي يوم بانوا انني قبّلتُ آثارَ المطيّ تشوّقا[٥٣]

وهناك مقطوعات اخرى نظمت في الغزل من اجل الغزل ، ولا يمكن الجزم بانها جزء من قصيدة ، وإنما وضعت ابياتها القليلة ليتمتع فيها الشاعر بحرية التعبير والانفكاك من اسر النظم ، وكانها لقطة جميلة من منظر عام ، يصف الشاعر فيها مفاتن الجسد ، وحركة القد في مشيته ، وفتور العيون ، وكبر الروادف ، وبروز النهود ، واحمرار الخدود[٥٤]

من ذلك قوله في وصف العيون :

كانَ عيونهن عيونُ عينٍ فواترُ قد سكرنَ بغيرِ راحِ
يموتُ العقلُ في اهلِ التصابي بهنّ فما لاهلِ العشقِ لاحي[٥٥]

٣ ـ الوصف :

يحتل الوصف حيزاً كبيراً من شعر ابن هذيل ، ولعل ذلك يعود الى أمرين ، الامر الاول : ان الوصف اصل الشعر ، وان جميع اغراض الشعر تقوم على الوصف . والامر الثاني : ان مقطوعات شعر ابن هذيل قد اختيرت في الوصف ، لان اغلب ماوصل الينا قد اختاره ابن الكتاني ليناسب كتابه التشبيهات[٥٦] وترك غير ذلك .

ومن خلال التامل في شعره نجد الوصف يشتمل على وصف الطبيعة بنوعيها : الحية والصامتة ، ووصف ادوات الحياة اليومية . فالطبيعة الحية تشتمل على وصف الحيوان ، ووصف النبات ، وهذا الاخير يطلق عليه اسم (الروضيات) . ومن الحيوانات التي وصفها ابن هذيل : الحمامة ، والجواد ، والباز ، والشاف ، والشيهم ، والكلب .

والحمامة طير وادع ، وهو من اشد الطيور ذكاء ، يهتدي الى مواطنه من مسافات بعيدة ، ويحيط بعنقه طوق ذو حمرة مشوبة بخضرة ... وهو عند جميع الشعراء طير مغرد يشاركهم افراحهم واحزانهم ، ويهيج فيهم الوجد والحنين ، وقد اكثروا من سؤالهم الحمامة عن علة ترجيعها الحنين ، فلم يقفوا منها على جواب ، فاتهموها بادعاء البكاء على هديل لم تصبه

النوى ، واتشاحها برداء زور من الشوق والحنين[٦٧] فقال ابن هذيل في ذلك :

قل لهذا الحمامِ إن جهلَ الحبَّ   انـا واقـفٌ على عـرفـانـهْ
لم تُصبْهُ النوى بفقدانِ خلٍّ   فيُرى باكياً على فقدانهْ[٦٨]

ومن النباتات التي وصفها : العنب ، والخوخ ، والسوسن ، والرياض ، وقد عمد ابن هذيل الى تعميق الامتزاج بها وتشخيصها ، ولم تعد في نظره مجرد اشكال والوان ، بل اخذت بعداً انسانياً يتشكل حسب مزاجه وذوقه ، ويحاكي فرحه وحزنه . فهذه قضبان الرياض اذاهبّت عليها ريح الصبا تمايلت وتعانقت ، واذا هزتها والتقت خدوداً بخدود ذكرته بمحبوبته :

هَبتْ لنا ريحُ الصَبا فتعانقتْ   فذكرتُ جيدكِ في العناقِ وجيدي
واذا تألّف في اعاليها النّدى   مـالتْ بـاعنـاقٍ ولطفِ قـدودِ
واذا التقتْ بالرّيح لم تُبصرْ بها   الّا خُـدوداً تلتقي بخـدودِ[٦٩]

ولابن هذيل مقطوعتان في البديع يشبه السوسن بالوشي والاحجار الكريمة ، وقد استحسنها الحميري واستملحها[٧٠] وهي تشبيهات جامدة تدل على ان الشعر لم يتخلص بعد من التقليد .

اما الطبيعة الصامته (الجامدة) فانها تشتمل على بعض الظواهر السماوية كالليل ، والنجوم ، والقمر ، والريح ، والسحاب ، والبرق ، وقد استاثر الليل عنده بجانب كبير من شعره ، ولعل ذلك يعود الى ان ابن هذيل كان كفيف البصر ، يتساوى لديه الليل والنهار ، ولكن قدرته على ابراز معالم الصورة تجعله اقرب الى المبصرين . فالليل عنده شريك يناصفه كل ما يختص به دون الاخرين :

كـان ليلي في اعلاهُ أنجُمـهُ   لما تاوّهتُ في ظلمائهِ شـابا
كـانّ ليلي شريكي في الهـوى   فاذا فكرتُ فكرُ والبلوى لمن خابا[٧١]

وتشتمل هذه الطبيعة ايضاً على بعض المظاهر الارضية كالانهار ، والبحر ، والسراب ، والجبل ، وقد وصف ابن هذيل الانهار والغدران ، وجريان الماء الصافي مثل البلور ، ليملأ المرتفعات ، وينزل منه كانه الافاعي الهائجة التي تريد ان تهاجم ضحيتها :

والمـاءُ تـدفعُـهُ اليكَ مشاعبٌ   شتّى من الميثـاء والجلمـودِ
صافٍ على صفةِ المها ومذاقُهُ   شَهْـدٌ فخُـذْ من طيّبٍ وبَـرودِ
مـلأ التّـلاعَ فـاقبلتْ وكـانّهـا   هجماتُ حيّاتٍ ذواتِ حُقـودِ[٧٢]

ووصف ابن هذيل ادوات الحياة اليومية مثل : الدواة والقلم ، والمروحة والمذبة والشمعة ، والسكين والجلم ، والرحى والناعورة ، والعود والرباب والمزهر ، والنار ، والطيلسان . وقد القى اليها نفحة من روحه ، وجعلها تتحرر من جمودها ، فتبدو كائناً ينبض بالحياة . ومن هذه الأدوات المذبّة التي يراها راقصة اسبلت لمتها الفاحمة ، وقد تأنّقت في قصّها ، فاذا تحركت تغنّى الذباب على رقصها :

وراقصةٍ اسبلـتْ لمّـةً عليهـا تُـؤنّـق فـي قصّهـا
إذا حـرّكتـهـا لـذبٌ يـذ تغنّى الـذُبابُ على رقصهـا[٧٣]

وهكذا نجد الوصف عند ابن هذيل صوراً دقيقة ، يرسمها شخص اعمى ، يتنقل برفق بين اجزاء الصورة الواحدة ، ويستخدم اداة التشبيه لتقريب صورة الى الاذهان ، حتى ليجعلنا نظن انه ابصر من المبصرين ، وهذا ما يجعلنا نظن ايضاً انه قد عمي على كبر سنه ، وانه قد اختزن في ذهنه جميع الصور التي التقطها من قبل ، وحاول اعادتها لنا ولكن بترتيبه الخاص ، وهو ترتيب فني لا يخلو من لمسات ذاتية .

٤ ـ الهجاء :

يتمتع الاندلسيون بالدعابة في محاوراتهم ، والظرف في احاديثهم ، « وتشير النوادر الاندلسية الى الحدة وشيء من البذاءة اللفظية ، وكثير منها يعتمد على اساس حركي لا لفظي ، وهي تبلغ في حدتها منطقة الهجاء نفسه »[٧٤] من ذلك ما قاله ابن هذيل في ابن قزمان[٧٥]وما قاله ايضاً في هجاء احدب :

شكـا فـي ظهـرهِ حـدبـهْ   فقلـتُ : دعـوهُ يـا كُـذُبـهْ
جـرابٌ بيـنَ فخـذيـهِ   تـعلّـق ضَيّـثُ الجُلْبـهْ
فـالقـاهُ علـى كتفيْـ   ـهِ فهـوَ عليهِ كـالعقْبـهْ[٧٦]

هكذا كان تصويره للحدبة ، جراب تدلى بين فخذيه عاقه عن السير ، فالقاه على ظهره ، وهو تصوير بسيط لكنه يمتلئ سخرية واستهزاء من صاحبها .

٥ ـ الشكوى :

يرسم ابن هذيل لشكواه من ظهور الشيب في مفرقه صورة طريفة وساخرة ، فالشعرات السود المتبقية تفرقت في مفرقه وصارت غريبة في منبتها ، فهي كالطير حين فاجاتها هجمة من الصقر فرّت هرباً الى حميع الجهات :

وأرى بقيّةَ مفرقي قد فُرّقتْ   ليُرى بها ريشُ الغرابِ غريبـا
كـالطيْرِ لما فاجـأتْها هجمةٌ   للصّقرِ فرّتْ في الجهاتِ هروبا[٧٧]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي مقطوعات اخرى يرتدي شعره ثياب الحداد، وهي ثياب بيض، لأنها لباس الحداد في الاندلس. او ان شبه قد عاهد شبابه ان يستخلفه بعد انتهاء مدته[78].

وهكذا فان ابن هذيل قد مثّل في شعره صورة عصره، ذلك العصر الذي تميز بالرقي والازدهار، فاختلطت فيه اصوات زحف الجيوش وحركة الاتهم بمطارق البنائين والنجارين في مدينتي الزهراء والزاهرة، وصليل السيوف والرماح بمحاضرات الدرس في حلقات جامعي قرطبة والزهراء. وفي الوقت الذي اخذ الشعر مداه نحو الاستقرار، دفع به ابن هذيل خطوة اخرى في طريق التوليد والاغراب.

ـ النص ـ
ـ شعر ابن هذيل ـ
حرف الهمزة

(١)

وقال ابن هذيل في ساف: (١) [رجز]

١ ـ رُبَّ صغيرِ الخلقِ ذي دهاء — يستنزلُ الطَّيرَ من السَّماء
٢ ـ داني المدى لغايةِ التّنائي — كأنَّهُ ضربٌ من القضاء
٣ ـ إذا هوى من خافقِ الهواء — ساقٌ كمثلِ السَّيفِ في المضاء

حرف الباء

(٢)

وقال في الليل: [بسيط]

١ ـ كأنَّ ليلي وفي اعلاهُ انجُمهُ — لمّا تأوهتُ في ظلمائه شابا
٢ ـ كأنَّ ليلي شريكي في الهوى فإذا — فكّرتُ فكّر والبلوى لمن خابا
٣ ـ كأنَّ ليلي وصبحي فيه محتجبٌ — غيرانُ سدَّ على معشوقتي بابا

(٣)

وقال ابن هذيل في احدب: [مجزوء الوافر]

١ ـ شكا في ظهرِهِ خدْبَهْ — فقلتُ: دعوةْ يا كذْبَهْ
٢ ـ جرابٌ بينَ فخذَيهِ — تعلّقَ ضيّث الخلْبه
٣ ـ فالقاهُ على كتفَيْـ — ـهِ فهوَ عليه كالعقْبهْ

(٤)

وقال ابن هذيل: [بسيط]

١ ـ كأنَّ ليليَ مما طالَ جانبُهُ — أخافُ صُبحيَ حتى ضلَّ أو هَرَبا
٢ ـ كأنَّ صُبحيَ يخشى أنْ يُؤنِّبَهُ — أهلُ الهوى فاختفى بالليلِ وانتقبا

التخريج: الابيات في: ابن الكتاني: التشبيهات ٣٨٥

(١) الساف: نوع من طيور الصيد.

التخريج: البيتان في: ابن الكتاني: التشبيهات ٣٢٢

التخريج: الابيات في: ابن الكتاني: التشبيهات ٣٢٦

التخريج: الابيات في: ابن الكتاني: التشبيهات ٥٦٥

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٥)

وقال ابن هذيل في الشيب : [كامل]

١ - وأرى بقيّةَ مفرقـي قـد فُـرِّقتْ ⠀⠀ ليُرى بهـا ريشُ الـغُـرابِ غـريبـا
٢ - كـالطيـرِ لمـا فـاجـأتُهـا هجمـةً ⠀⠀ للصُقـرِ فـرّتْ فـي الجِـهـاتِ هـروبـا
٣ - أو كـافتـراقِ السفـرِ في ديمـومـةٍ ⠀⠀ لـم يخـرجـوا من قفْـرهـا تـأويبـا[1]

(٦)

وقوله في الخضاب : [كامل]

١ - لمّـا رأت شـعـري تـغيّـر لـونُـهُ ⠀⠀ ورأتـهُ مُختَجِبـاً وراءَ حجـابِ
٢ - قـالت : خضبْتَ ، فقلتُ : شيبي إنمـا ⠀⠀ لبسَ الحِـدادَ علـى ذهـابِ شبـابـي

(٧)

وقال ابن هذيل : [خفيف]

١ - ولّـيَ الشيـبُ بـعـد عـزلِ الشبـاب ⠀⠀ كُـلُّ مـا كـان حُكمُـهُ للـغُـرابِ
٢ - فكـانّ الشبـابَ عـاهـدَ شيبـي ⠀⠀ فـهـو مُستَخلَـفٌ لـهُ فـي التّصـابـي

(٨)

وقال في الشمعة : [طويل]

١ - وقـائمـةٍ تَسبـي العُقـولَ بحسنِهـا ⠀⠀ حكى قدُّهـا فـي شكلِهِ قدَّ كـاعبِ
٢ - بكـتْ بـدمـوعٍ كـالجُمـانِ فـأصبحتْ ⠀⠀ تُديرُ النّدامى عن صبـاحِ الكـواعبِ[1]
٣ - لهـا جَسَدٌ منْ خالصِ التّبرِ جـامـدٌ ⠀⠀ يُنـاطُ الـى رأسٍ مـنَ التّبـرِ ذائـبِ
٤ - تـآلّفَ منهـا الضدُّ بـالضـدِّ فـاغتـدتْ ⠀⠀ لنـاظـرهـا مـنْ مُشكـلاتِ الـعجـائـبِ

(٩)

وقال الهذلي[1] في خفوق القلب : [طويل]

١ - كـأنّ فُـؤادي فـي يـديْ خفقـانـهِ ⠀⠀ فـريسـةُ ليثٍ قـد تـلاشتْ من النّهبِ
٢ - كـأنّ سـرابـاً في ضلـوعي وجـاحمـاً ⠀⠀ فـهـذا حكى شـوقـي وهـذا حكى قلبي

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥٩٧

(١) السفر : جماعة السفر او المسافرون . تاويبا : من آب يؤوب اوبة أو تاويباً . عودة أو رجوعاً

التخريج : البيتان في : الثعالبي : يتيمة الدهر ٢ /١٥

لتخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥٩٩

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥٢٥

(١) لعلها (عن ضياء الكواكب) كما يراها الدكتور احسان عباس ، وهو على صواب .

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٢١٠

(١) يدعوه ابن الكتاني احياناً بالهذلي كما يدعى ابن خفاجة بالخفاجي .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١٠)

وقال يحيى بن هذيل في الرّوض : [كامل]

١ ـ بمحلّةٍ خضراءَ أفرغَ حليَهاالـ ـذهبيَّ صاغةُ قَطرها المسكُوبِ
٢ ـ بَسقتْ على شَرفِ البلادِ كأنَّما قامتْ إلى ما تحتَها بخطيبِ
٣ ـ والروضُ قد ألفِ النّدى فكأنّهُ عينٌ توقّفَ دمعُها لرقيبِ
٤ ـ مُتخالفُ الألوانِ يجمعُ شَغلَهُ ريحانُ ريحُ صَباً وريحُ جَنوبِ
٥ ـ فكأنّما الصّفراءُ إذْ تُومي الى الـ بيضاءِ صبٌّ جانحٌ لحبيبِ

(١١)

وقال في الحمام : [كامل]

١ ـ وقَفتْ على الغُصنِ الجديدِ كأنّما تلهُو بهِ في الغَيمِ أو يلهُو بِها
٢ ـ وتستّرتْ في سروةٍ مُلتفّةٍ حجبتْ عنِ الأبصارِ شخصَ رقيبِها[1]
٣ ـ فكأنّما ريحُ الجنوبِ تغايرتْ ألّا تُرى، إلّا لوقتِ هُبوبِها
٤ ـ باتتْ تُغازلُها فلمّا أصبحتْ برزتْ لنا كالشمسِ قبلَ غُروبِها

(١٢)

وقال ايضاً يصف الشّيهم : (١) [سريع]

١ ـ أُنظر إلى الشّيهمِ كيفَ انزوى كأنّهُ جُولقةٌ في التّرابْ[2]
ـ كأنّما شاهدَ حربياً ففي أوصالهِ دسكرةٌ من جرابْ[3]

حرف الحاء

(١٣)

وقال ابن هذيل : [وافر]

١ ـ كأنّ عُيونَهنّ عيونُ عِينٍ فواترُ قد سَكِرنَ بغيرِ راحْ
٢ ـ يموتُ العذْلُ في أهلِ التّصابي بهنّ فما لأهلِ العشقِ لاحْ[1]

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٧٤

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٩٧

(١) سروة : شجرة وجمعها سرو ويضرب به المثل في استقامته وقده ، وهو في الصيف والشتاء اخضر .

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٦٤٩

(١) الشيهم : الدلدل وهوما عظم شوكه من ذكور القنافذ ، وجمعه شياهم .
(٢) الجولقة : الحنظلة .
(٣) الدسكرة : القرية أو الصومعة وجمعها دساكر .

التخريج :
البيتان في : ابن الكتاني . التشبيهات ٢٥٣
(١) اللاحي : اللائم

حرف الدال

(١٤)

وقال الهذلي في الدواة : [متقارب]

١ - وجاثمة بين أيدي الملو ... ك ليست تقوم ولا تقعُدُ
٢ - إذا عطشت جاءها وِرْدُها ... ولَيست على منهل تُورَدُ
٣ - فإن أخذت ريثها أرضعت ... بنيها بثدي هو الإثمِدُ(١)

(١٥)

وقال ابن هذيل في النار : [طويل]

١ - وقفت على علياء والجُزْعُ بيننا ... لأنظُر من نار على البُعد تُوقَدُ(١)
٢ - تقوم بطول الرمح إن هبّت الصَّبا ... وعند سكون الريح تهدا فتقعدُ
٣ - فشبّهتُها في الصالتين بقارىء ... إذا اعترضته سجدةٌ ظلّ يَسجدُ

(١٦)

وقال ابن هذيل في البنود : [خفيف]

١ - وكأنّ البنود أجنحةُ الطّير ... يُرفرفن إذ خوتها القيُودُ
٢ - وكأنّ المُحْمرّة اللون في الأفق ... خدودٌ يَزينُها التوريدُ
٣ - وكأنّ العُقاب والريح إلفان ... فمن ذا وَصْلٌ ومنْ ذي صدودُ(١)

(١٧)

وقال يحيى بن هذيل في الهلال : [بسيط]

١ - يحكي من الحاجب المقرون شُقرتُه ... فانظر إليه فما أخطا ولا كادا
٢ - لو التقى لحكى حِجْلًا ولو قطعوا ... من دارة الحِجْلِ ما أربى ولا زادا(١)

(١٨)

وقال ابن هذيل في الحرب والطعان والضرب : [بسيط]

١ - كأنّما الخيل أرآمٌ فوارسُها ... أسدٌ وبينهما صُلحٌ قد انعقدا(١)
٢ - كأنّما قمم الفُرسانِ قد تركت ... فيها النعامُ تريكاً عمُّها عددا(٢)
٣ - كأنّها وسيوفُ الهند تقرعُها ... طيرٌ تجاوبُ طيراً صيّتاً غَرِدا

التخريج : الابيات في : ابن الكناني : التشبيهات ٤٩٨

(١) الإثمد : حجر يكتحل به .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٤٩

(١) الجُزْع : منعطف الوادي .

التخريج : الابيات في :ابن الكتاني : التشبيهات ٤٤٢

(١) العقاب :الراية .

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥

(١) الحجل :بفتح الحاء وكسرها ، القيد او الخلخال وجمعها الاحجال .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٥٥

(١) الارام : الظباء .

(٢) التريك : بيض النعام .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١٩)

وقال في النبال: [بسيط]

١ - ومدركاتٍ ولم تطلبْ وليس لها روحٌ وتنصفُ من باغٍ وإنْ بَعُدا
٢ - في كُلّ واجدةٍ صوتٌ إذا لهجَتْ بهِ أصابتْ مُراداً في الذي مَرَدا[1]
٣ - كأنّ أولادها حنٌّ إذا انبعثتْ لم تبرَحْ لا والداً حيّاً ولا وَلَدا[2]

(٢٠)

وقال ابن هذيل في العود: [كامل]

١ - ومؤلّفِ الأوصالِ يختلفُ الصّدى فيهِ فتحسبُ صوتَهُ تغريدا
٢ - رقّتْ معانيهِ برقّةِ أربعٍ صارتْ عليهِ قلائداً وعقودا[1]
٣ - فكأنّ بلبلَ صائفٍ في صدرهِ يصلُ الأغاني مُبدياً ومُعيداً[2]

(٢١)

وقال ابن هذيل في الحمام: [بسيط]

١ - غنّى وفوقَ جناحيهِ سقيطُ ندى والغيمُ يُنجزُ للحوذانِ ما وَعدا[1]
٢ - يهفو بهِ خُوطُ ريحانٍ تُغازلُهُ في الجوّ ريحٌ فتلوي متنَهُ أودا
٣ - إذا استقلّ ومسَّ الأرضَ تحسبُهُ مُصلّياً إنْ تلقّى سجدةً سجدا[2]
٤ - لهُ ثلاثةُ ألوانٍ تخالُ بها زُمرُّدا وعقيقاً جاوروا بُزدا

(٢٢)

وقال ابن هذيل في الجواد: [وافر]

١ - محمدُ هل جوادُكَ في الجيادِ إذا حصّلْتَ إلّا كالفُؤادِ[1]
٢ - كأنّ ضلوعَهُ ممّا تعرّتْ قِسيٌّ وُتّرتْ يومَ الجلادِ

التخريج: الابيات في: ابن الكتاني: التشبيهات ٤٢٢
(١) مرد: طغى وتجبر.
(٢) الحن والجن سواء.

التخريج: الابيات في: ابن الكتاني: التشبيهات ١٩٣
(١) اربع: ويعني بها الاوتار الاربعة.
(٢) صائف: الصيف وهو توكيد له كما يقال ليل لائل.

التخريج: الابيات في: ابن الكتاني: التشبيهات ٩٣
(١) الحوذان: نوع من الزهر.
(٢) استقلّ الطائر: ارتفع.

التخريج: البيتان في: ابن الكتاني: التشبيهات ٦٤٧
(١) لعله يخاطب الحاجب محمد بن ابي عامر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٢٣)

ومن مليح هذا لبعض اهل افقنا قول يحيى بن هذيل القرطبي : [بسيط]

١ ـ لمـا وضعتُ على قلبي يـدي بيـدي ... وصحتُ في الليلةِ الظلماء واكبدي
٢ ـ ضجّتْ كـواكبُ ليلي في مطالعها ... وذابت الصخرةُ الصّماءُ من كمدي
٣ ـ وليس لي جَلَدُ في الحُبّ ينصُرُني ... فكيف أبقى بلا قلب بلا جلد
٤ ـ وكيف اشرحُ ما ذاب الجمادُ نهُ ... لمن غدا خائفاً إشارتي بيدي
٥ ـ لمّا رآني مُشيراً للسّلام بها ... ألقى على خدّه مضاعف الزّرد

(٢٤)

وقال في مذبّه : [طويل]

١ ـ ومضمومةٍ في الخيزرانِ كأنّها ... على يدهِ منْ شعرهِ الفاحمِ الجعْدِ
٢ ـ تنيفُ عليهِ قدُّها فكأنّها ... قضيبٌ تعالى عن قضيبٍ على بُعْدِ
٣ ـ وقد خُنِقَتْ بالتِّبرِ حتّى كأنّما ... تهمُّ بأن تشكو لهُ ضائق العَقْدِ

(٢٥)

وقال ايضاً في شمعة : [طويل]

١ ـ وناحلةٍ صفراءَ منْ غير علّةٍ ... لها لمّةٌ حمراءُ ذاتُ توقُّدِ
٢ ـ تلوحُ عليها صُفرةٌ عسْجديّةٌ ... بها تتحلى بُؤساً كلّ مَشْهَدِ
٣ ـ بكتْ لؤلؤاً ينهلُّ منْ كُلّ مَدْفَعٍ ... فعاد عليها كالجُمانِ المُنضَّدِ
٤ ـ تموتُ وتحيا تارةً بعد تارةٍ ... فما تأمُلُن منْ غيرها في تجدُّدِ

(٢٦)

وقال ايضاً في العود : [وافر]

١ ـ على جيدِ الغزالةِ خلقُ جيدي ... وأطرافُ الكواعب منْ عُقُودي
٢ ـ يَزيدُ الحنْوَ في نفسي ونفسي ... يُقالُ لها بحقّ اللّهِ زيدي[١]
٣ ـ إذا هبّتْ أهازيجي صَبتْ لي ... قلوبٌ لشنٍ من قلبِ العميدِ[٢]
٤ ـ ولِلأوتارِ في صدري حنينٌ ... يهيجُ الشّوقَ في نفسِ العميدِ[٣]

التخريج : الابيات في : ابن سعيد : المرقصات والمطربات ٧٥ والبيتان (١ ، ٢) في ابن بسام : الذخيرة ق ٢ م ٢ ص ٥١٤ وق ٣ م ١ ص ٣٤٧ وابن فضل الله العمري : مسالك الابصار ١١ / ١٧٤ . البيت الاول في الذخيرة ـ ق ٣ م ١ ص ٣٤٧ (اذا حبست على قلبي) .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥٢١

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥٢٤

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٢٠٠

(١) الحنو : الانحناء والميل .
(٢) العميد : المعمود الذي اضربه الحب .
(٣) العميد : رئيس القوم .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٢٧)

وقال ابن هذيل في مشي النساء : [وافر]

١ - مَشَيْنَ إلى الرِّكابِ وقد أُنيختْ — كما يمشي الأسارى في القُيُودِ
٢ - تُغازِلُنا مُلاءُ الخزِّ غمداً — بأطرافِ الروادفِ والنُّهودِ(١)

(٢٨)

قال ابوبكر بن هذيل في قضبان الرياض وهبوب الرياح عليها : [كامل]

١ - هبَّتْ لنا ريحُ الصَّبا فتعانَقتْ — فذكرتُ جيدَكِ في العناقِ وجيدي
٢ - وإذا تألّف في أعاليها النّدى — مالتْ بأعناقٍ ولطفِ قدودِ
٣ - وإذا التقتْ بالرّيحِ لم تُبصِرْ بها — إلّا خدوداً تلتقي بخدودِ
٤ - فكأنَّ عُذرةَ بينها تحكي لنا — صفةَ الخضوعِ وحالةَ المعمودِ(١)
٥ - تيجانُها طلٌّ وفي اعناقِها — منهُ نظامُ قلائدٍ وعقودِ
٦ - فترشُّني منهُ الصَّبا فكأنّهُ — من ماءِ وردٍ ليس للتُّصعيدِ
٧ - فكأنّما فيها لطيمةُ عاطرٍ — فتثيرُ ناراً في مجامرِ عودِ(٢)
٨ - شُغلتْ بها الأنداءُ حتّى خِلتُها — يَنبُطنَ أنديةً بها للصيدِ(٣)
٩ - وتجلببتْ زهراً فخِلتُ بأنّها — فوقي نثائرُ نائفٍ مجهُودِ
١٠ - وتمتعتْ بذبابها فرياضُها — لبستْ كمثلِ المرتجِ المورودِ
١١ - غنّى فاسمعَني وغابَ فلم تَقعْ — عيني عليهِ في الكلا المنضُودِ
١٢ - فكأنَّ وترَ الموصليِّ ومَعْبدٍ — بيديهِ فهو يصوغُ كُلَّ نشيدِ(٤)
١٣ - يرقصنَ الى وَرَقِ الكلا وكأنّما — حيزومُهُ من لمّةِ المولودِ
١٤ - فكأنّهُ متشهّدٌ أو حاسبٌ — فذلكَ بعقْدِ حسابهِ المكدودِ(٥)

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٢٧٦

(١) ملاء : جمع ملاءة وهو الريطة ذات لفقتين . الخز : الحرير .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٦٥

(١) عذرة : قبيلة عربية ينسب اليها الحب العذري أو العفيف . المعمود : الذي اصابه الحب فاضناه .

(٢) اللطيمة : العطر .

(٣) الصيد : جمع اصيد وهو التيّاه ، والاصل فيه لن عنقه مائلة من التبختر .

(٤) الموصلي : اسحاق بن ابراهيم من اشهر ندماء الخلفاء العباسيين ، وكان عالماً باللغة والموسيقى والكلام ، راوياً للشعر حافظاً للاخبار ، وقد تفرد بصناعة الغناء . توفي ببغداد سنة ٢٣٥ هـ . ينظر : ابن خلكان : وفيات الاعيان ١ / ٦٥ ط الدار .

معبد : معبد بن وهب المدني

مولى لبني مخزوم وكان اديباً وفصيحاً وقد نبغ في الغناء في العصر الاموي توفي سنة ١٢٦ هـ ينظر الاصفهاني : الاغاني ١ / ٣٦ ط الدار

(٥) الفنك : اللجوج الذي يمضي في امره ولا يتوقف عنه .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٢٩)

وقال ابن هذيل في الانهار والجداول : [كامل]

١ ـ والارضُ عاطرةُ النواحي غضةٌ ... خضراءُ في ثوبٍ أغرَّ جديدِ
٢ ـ والماءُ تدفعُهُ إليكَ مثاعبٌ ... شتّى من الميثاءِ والجُلمُودِ[1]
٣ ـ صافٍ على صفةِ المها وسذاقُهُ ... شهْدٌ فخُذْ منْ طيِّبٍ وبَرودِ[2]
٤ ـ ملأ التلاعَ فاقبلتْ وكأنها ... هجماتُ حيّاتٍ ذوات حقُودِ[3]
٥ ـ تنحو الى حال الغطيطِ ورُبّما ... زأرتْ فتسمعها زئيرَ أسودِ
٦ ـ وتُثيرُ طافيةَ الحصى فكأنها ... ولتْ على الساعاتِ فَهْمَ بليدِ

(٣٠)

وقال ابن هذيل في القلم : [كامل]

١ ـ ويُعيرك القلمُ المُعلّى واعياً ... أذْنَ المُحبِّ الى الحبيبِ الأغيدِ
٢ ـ لبسَ السّقامَ ولم يُكابدْ في الهوى ... عِشقاً ولم يشهدْ بوالي ثهْمَدِ[1]
٣ ـ وكأنّما كتمَ الهوى فاختالَ في ... دمعٍ خلافَ الدمعِ داجٍ أسوَدِ

حرف الراء

(٣١)

وقال في البرق : [كامل]

١ ـ كلّفتُها طولَ السُّهادِ فراقبتْ ... برقاً يلوحُ وتارةً يتستُّرُ
٢ ـ وكأنّ ليلي فارسٌ في كفِّهِ ... رُمحٌ يقلّبُهُ عليهِ مِغْفَرُ[1]
٣ ـ تبدو لهُ شُعَبٌ تطيرُ أمامها ... شُعَلٌ تطيرُ لها القلوبُ وتُذعَرُ
٤ ـ ويروغُ عنْ قبضِ السّحابِ وميضُهُ ... فكأنّهُ فرسٌ مُعارٌ أشقرُ

(٣٢)

وقال أيضاً : [كامل]

١ ـ وانظُر الى ملكِ النّصارى كُلّها ... كيفَ استقادَ إليكَ وَهْوَ مُبادرُ
٢ ـ والخوفُ يَقذفُهُ إليك كأنّهُ ... كرةٌ لها في الصّولجانِ مكاسرُ[1]

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٠٦

(١) المثاعب : الغدران . والميثاء : القلعة وتكون مثل نصف الوادي أو ثلثيه .

(٢) المها : البلور

(٣) التلاع : المرتفعات . واحدتها تلعة .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥٠٥

(١) البوالي : الاطلال البالية . ثهمد : اسم موضع في ديار بني عامر . ذكره طرفة في معلقته

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٢

(١) المغفر : زرد ينسج على قدر الرأس ، يلبس تحت القلنسوة .

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٧٩

(١) الصولجان : العصا المعقوفة الرأس وتضرب بها الكرة ، وجمعه صوالجة .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٣٣)

وقال في مصلوب : [بسيط]

١ ـ ومدّ ضَبْعَيه في أعلى مزاحمة ... للنجم ما كان عنها النجمُ ينحدرُ[1]
١ ـ كأنما هُوَ فيها شخص مُشْتَرِق ... مُوقَّفٍ لبني الدنيا ليعتبروا

(٣٤)

وقال ايضاً : [بسبط]

١ ـ سيقوا إليكَ فلو شُقّت قلوبُهُمُ ... لا سودَ ظنُّك من إفراطِ ما ستروا
٢ ـ يرومُ اخطبهُم تأليف واحدةٌ ... كأنما بين ذكّي نُطقِهِ حجرُ

(٣٥)

وقال ني النار : [طويل]

١ ـ ومحجوبة في كُلِّ وقتٍ ظهورُها ... نخافُ عوادي غدرها . فنديرُها
٢ ـ لعزّتْ فلم يشتَغنِ عنها ابنُ آدمٍ ... وهانتْ عليهِ فهْوَ لا يستعيرُها
٣ ـ كأنّ الذي يحتالُ في ردِّ روحها ... مُناجٍ لها أو صاحبٌ يَستشيرها
٤ ـ كأنّ ركاماً فوقها وَهْيَ تحته ... عجاجٌ وطرفٌ اشقرُ يَسْتثيرُها

(٣٦)

وقال ابن هذيل في الجبل : [طويل]

١ ـ ومطّرِدِ الأعلامِ خالٍ سرابُهُ ... على الأمعزِ العاري برودٌ تُنَشَّرُ[1]
٢ ـ كأنّ روابيهِ إذا اتّزرتْ بهِ ... رجالٌ ببيضِ الرّيطِ ظهراً تأزّروا[2]

(٣٧)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقال ايضاً في الليل : [طويل]

١ ـ أكابدُ ليلًا لا يزالُ كأنّهُ ... لإكبابِهِ فوقي شجيٌ مُفكّرُ
٢ ـ واسألُهُ أنْ ينجلي فكأنّهُ ... رثى لي ففيما نابني يتفكّرُ

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٦٣

(١) الضبع : العضد

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٨١

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٥٠

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٧٢

(١) الامعز : المكان الغليظ الصلب ، كثير الحصى .

(٢) الريط : ومفردها ريطة وهي الملاءة .

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٢٤

(٣٨)

وقال ابن هذيل : [طويل]

١ ـ كأنّي منْ فرطِ الصّبابةِ عاشقٌ يخاف عليه كاشحاً فهو مُضْمَرُ
٢ ـ إذا عادني منْ لستُ أنساهُ لم يجدْ سوى أدمُعٍ لم يدرِ منْ حيثُ تقطرُ[1]
٣ ـ ويعلمُ أنّي قائمُ الشّخصِ كُلمَّا أحنُّ إلى ذكرِ الحبيبِ وأزفرُ
٤ ـ كما الرّيحُ إنْ هبّتْ سمعتَ هبوبها وليس يراها ناظرٌ حين تخطرُ

(٣٩)

وقال في الكلب : [طويل]

١ ـ وأغضَفَ يلغي انفَهُ فكأنّما يقُود به نورٌ من الوحي نيِّرُ[1]
٢ ـ إذا ألهَبتْهُ شهوةُ الصّيدِ طامعاً رأيتَ عقيمَ الرّيحِ عنهُ تُقصّرُ

(٤٠)

وقال في الدروع : [كامل]

١ ـ منْ كُلِّ ضافيةِ الغديرِ ترى لها طُرُقاً تصيُر على المتُونِ غدائرا[1]
٢ ـ قد سُمّيت أمُّ الزمانِ فأرضعتْ اولادها تديَ الرّماحِ أصاغرا
٣ ـ فكأنّهم يتطافرون لريبةٍ أو رَوعةٍ لو أنَّ فيهم طافراً
٤ ـ وكأنّهم مما تدانو والتقوْا طيرٌ رأتْ في الجُو صقراً كاسرا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التخريج :
الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٣٥
(١) اخذه من قول المتنبي :
كفى بجسمي نحولاً أنني رجلٌ لولا مخاطبتي اياك لم ترني

ينظر : عبد الرحمن البرقوقي : شرح ديوان المتنبي ٤ / ٣١٩ ط دار الكتاب العربي ، بيروت .

التخريج :
البيتان في : في ابن الكتاني : التشبيهات ٣٨٨
(١) الاغضف : المسترخي الاذن من كلاب الصيد . وجمعها الغُضْف .

التخريج :
الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٣٤
(١) ضافية : سابغة من ضفا يضفو .

(٤١)

وقال أيضاً في الزهراء : [طويل]

١ ـ كأنّ حنايـاها جناحا مُصفّقٍ إذا الهبتُهُ الشّمسُ أرخاهما نَشرا
٢ ـ كأنّ سواريها شكتْ فترة الضنى فباتتْ هُضيماتِ الحشا نُحلاً صُفرا
٣ ـ كأنّ الذي زانَ البياض نحورَها يُعذّبها هجراً ويقطعها كِبرا
٤ ـ كأنّ النخيلَ الباسقاتِ الى العُلا عذارى حجال رجّلت لمماً شُقرا
٥ ـ كأنّ غصونَ الآس والريح بينها متونُ نشاوى كُلّما اضطربتْ سُكرا
٦ ـ حديقةُ نفسٍ تملأ النفسَ بهجةً وتُثني عيونُ الناظرين بها حسرى
٧ ـ كأنّ جنى الجلّنار وورْدَها عشيقانِ لما استجمعها أظهرا خَفْرا
٨ ـ كأنّ جنى سوسانها في سنا الضحى كؤوس من البلّور قد خُشيتْ تبْرا
٩ ـ كأنّ عيونَ النرجس الغضّ بالنّدى عيونٌ تداري الدّمعَ خيفةَ أنْ يُدرى
١٠ ـ كأنّ جنى الخيري في غبش الدُّجى نسيمُ حبيبٍ زار عاشقَهُ سِرّا
١١ ـ كأنّ ينابيعَ المياهِ مراجلٌ تفورُ وقد أذكت لهنّ الحصى جمرا[٢]

(٤٢)

وقال ايضاً في الحمام : (١) [طويل]

١ ـ ترى قطراتِ الطلّ كالدرّ فوقها إذا انتفضتْ في الايكِ تنثرُهُ نثرا
٢ ـ إذا فرّقتْهُ ألّفَ الغيمُ غيرَهُ عليها نقذ شبّهتُها قينةً سكرى
٣ ـ تزاحمُ اخرى مثلها بعقودها ولم ترضَ باسترجاعِ منثورِها كِبرا

(٤٣)

وقال في الرّباب : [منسرح]

١ ـ يُخالفُ العهدَ في تصرُّفِهِ وَهْوَ على خَلْقِهِ وإنْ صَغُرا
٢ ـ وإنّما يحتذي على نَغَمٍ منْ حِكَمِ الفُرْسِ كُلّما حَضَرا
٣ ـ كأنّه في يَدٍ يمحركهُ ينشُرُ قلبي بهِ وما شَعَرا
٤ ـ كأنّه داودَ حينَ يُوقِظُه يقرأ فيهِ الزّبورَ والسُّورا[١]

التخرج : الابيات (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ،) في ابن الكتاني : التشبيهات ١٢٥ والابيات (٦ ـ ١١) في ابي الوليد الحميري : البديع في وصف الربيع ٣٥

(١) الحنايا : الاقواس ، ومفردها الحنية .

(٢) المراجل : القدور ومفردها المرجل .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٩٦

(١) لعل هذه المقطوعة جزء من المقطوعة السابقة لمطابقتها في المعنى والوزن والقافية . ولكني آثرت ابقاءها منفردة لعدم وجود قرينة على ذلك .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٩٧

(١) اشارة الى قوله تعالى : « وسخرنا مع داود الجبال يسبّحن والطير وكنّا فاعلين » سورة الانبياء : الاية ٧٩

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٤٤)

وحكى احمد بن افلح ابو عمر لابن بشكوال انه حين سماعه من وهب بن مسّرة في المسجد الجامع وقع لغط وكلام في المجلس بين اصحابه ، وارتفع الصوت بينهم ، وكان احدهم يعرف بالبترلي ، فانكر عليهم ذلك بعض القومة حتى اخذ اليهم الدّرة ، وكان ابو بكر بن هذيل الشاعر الاديب بالحضرة ، فقال ذلك على البديهة : [مجزوء الرمل]

إن وَهب بن مسرّة ... بين أهلِ العلمِ دُرّة
كان في مجلسهِ اليو ... مَ على العلمِ معرّة
إذْ علا القيّمُ رأ ... سَ البتْرِ ليّ بدُرّة

(٤٥)

وقال ابن هذيل في العنب : [خفيف]

١ - وبِسَلٍ فيه من العِنَبِ الغضْ ... شبيهُ العُنّابِ في الاحمرارِ[1]
٢ - رقّ منهُ أديمهُ فهْوَ كاليا ... قوتِ يُسْتامُ بين أيدي التُّجارِ[2]
٣ - وغذَتْهُ الأيامُ فهْوَ أنابيـ ... ب طوالٌ على جفانٍ قِصارِ[3]

(٤٦)

وكتب ابن هذيل الى بعض اخوانه ببعثه مصطاراً حلواً[1] : [خفيف] :

١ - منْ بناتِ الكروم ليس لها خَنْـ ... ـسٌ ليالٍ بكرٌ من الابكارِ
٢ - يتغنّى نشيشُها في الزّواقيـ ... ـبِ فتُنسيكَ نغمةَ الأوتارِ[2]
٣ - واستهلّتْ رفْقاً كما يقعُ الطـ ... ـلُّ على الوردِ في دُجى الاسحارِ
٤ - تتبدّى من خُبِّها وهي صفراً ... كبدوِّ الخيريّ في الاصفرارِ[3]
٥ - ثمَّ سَلْسَلْتُها الى جسدٍ مَيْـ ... ـتٍ فأحييْتهُ ، فاعتبرْ باعتباري
٦ - بات بعد الخشوع مُستندَ الظّهـ ... ـرِ حطيناً الى أساسِ الجدارِ[4]
٧ - نو عكاكينَ رُكبَتْ كعكاكيـ ... ـنِ بطونِ الأوانسِ الأحرارِ[5]
٨ - وشددنا خِناقَهُ فهْوَ كالمِغْـ ... ـصَمِ ريّانُ في شدادِ السّوارِ

التخريج : الابيات في : ابن بشكوال : الصلة ١ / ٢٢

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٣٧

(١) العُنّاب : من التمر معروف ، واحدته العُنابه وهو العبيراء

(٢) يستام : يطلب تمامه واكماله .

(٣) الجِفان : القصع واحدتها الجفنة .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٦٣

(١) المصطار : الخمر التي اعتصرت حديثاً .

(٢) النشيش : صوت الغليان .

(٣) الخب : الخابية أو الدن .

(٤) حطيناً : صريعاً .

(٥) العكاكين : الثنيات .

(٤٧)

وانشد له ابو محمد علي بن حزم : [طويل]

١ ـ أساء إلى جفني فؤادي بناره ودمعي إلى خدّي بطُولِ انحداره
٢ ـ أيأخذُ دمعي حُرُّ خدّي بما جنى فؤادي لقد أخطا مكانَ انتصاره

(٤٨)

وقال ايضاً في الريح : [كامل]

١ ـ ومُرِنّةٍ بعد الرّواحِ كأنّما في نحرِها صوتُ القريعِ الهادرِ[١]
٢ ـ قربُتْ منَ الاسماع وَهْيَ بعيدةٌ منها وغابتْ في الهبوبِ الحاضر
٣ ـ فإذا التقى جمهورها في لوحةٍ فكأنَّ فيها كُلُّ ليثٍ هاصرِ
٤ ـ وإذا استقلَّ قتامُها فكأنّما فيهِ التفافُ عساكرٍ بعساكرِ[٢]

(٤٩)

وقال ايضاً في الحرب : [بسيط]

١ ـ وتُشفِقُ الدِّرعُ أنْ تنسابَ خائفةً منهُ عليهِ فقد حارتْ منَ الحذرِ
٢ ـ كأنّما نارُ ابراهيم باقيةٌ فيها فإن صالَ لم تحرِقْ ولم تَضِرِ[١]
٣ ـ كأنّما السيفُ يقضي فوق ساعدهِ فرضاً فيركعُ فوقَ الهامِ والقَصَرِ[٢]

(٥٠)

وقال ايضاً في المروحة : [طويل]

١ ـ إذا نُشِرتْ كانت على دارةِ البدرِ وإن طُويتْ كانتْ كتاباً بلا نَشْرِ
٢ ـ جوانُحها بيتُ الرّياحِ ورجلُها على يدِ مشغولٍ بها فارغِ الفكرِ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التخريج : البيتان في : الحميدي : جذوة المقتبس ٣٥٩ والضبي : بغية الملتمس ٤٩٥

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣١

(١) القريع : الفحل من الابل ، والقريع ايضاً سيد القوم .
(٢) القتام : الغبار

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٥٣

(١) اشارة الى قوله تعالى : « قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم » سورة الانبياء : الاية ٦٩
(٢) القصر : الرقاب .

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥١٩

(٥١)

وقال ابن هذيل : [كامل]

١ - يرنو وقد ألِفَ الكرى فكأنّما يرنو إليكَ بمقلتَيْ يعفُورِ[1]
٢ - وانساب في الخدِّ الأسيلِ عِذارُهُ فكأنّه مسكٌ على كافُورِ

حرف السين

(٥٢)

وقال ابن هذيل : [رمل]

١ - طَيْلَساني طائرٌ من نَفَسي هو فوقي غَبَشٌ في غَلَسِ
٢ - والذي ألفهُ ألفهُ من هواءٍ فارغٍ أو نَفَسِ

(٥٣)

وقال ايضاً في المروحة : [خفيف]

١ - أنا في الصَّيفِ راحةٌ للنفوسِ وشفاءٌ من حرِّ داء الرَّسيسِ[1]
٢ - أنا زَيْنٌ في الكفِّ ساعةَ أَجْلى ليس مثلي يحلُّ كفَّ الرئيسِ[2]
٣ - جلَّ شكلي عن أنْ أُنافَسَ فيه وجمالي يُزري بكُلِّ نفيسِ
٤ - غُرّتي البدرُ حين أبدو وجسمي فضّةٌ رُكّبتْ على أبَنُوسِ

حرف الصاد

(٥٤)

وقال في المذبة [متقارب]

١ - وراقصةٍ أسبلتْ لِمّةً عليها تُونّقُ في قصّها
٢ - إذا حرّكتها لذبٍّ يدٌ تُفنّي الذباب على رقصها
٣ - فإن رُمتَ تُحصي خصالاً لها لدى ذلك الرقصِ لم تُحصها

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٢٤١

(١) اليعفور : الخشف أو الظبي .

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥٧٩

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني :التشبيهات ٥٢٢

(١) الرسيس : الحب الدخيل .

(٢) لعل هذه الابيات كتبت على احدى مراوح الرؤساء والاشراف مثل رئيس الشرطة وغيره بقصد الزينة .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥٢٣

حرف الضاد

(٥٥)

وقال في الوداع : [طويل]

١ ـ وَضعنـا على جمرِ الفـراقِ خـدودَنـا فعـادتْ سمـاءُ الكِبـر منْ ذُلِّنـا أرضـا
٢ ـ وَقفنا وَتوفُ الدّمعِ منْ بهْتةِ النّوى فلم نستطـعْ ركعـاً ولم نستطـعْ نَهضـا

حرف الغين

(٥٦)

وقال ابن هذيل في مباني الزاهرة وبساتينها : [طويل]

١ ـ قصورٌ إذا قـامتْ تـرى كُـلَّ قـائم على الارضِ يَشتخـذي لهـا ثم يَخشـعُ[1]
٢ ـ كـأنّ خطيبـاً مُشـرفـاً من سمـوكهـا وشـمُ الـرُبـى مـن تحتـهـا تتسمّـعُ[2]
٣ ـ تـرى نـورهـا من كُلّ بـابٍ كـأنّمـا سنـا الشمس مـن أبـوابـهـا يتقطـعُ
٤ ـ ومـنْ وأقفـاتٍ فـوقـهـنَّ أهلّـةٌ حنـايـا هـيِ التّيجـانُ أوهـيَ أبـدعُ
٥ ـ على عمـدٍ يدعـوكَ مـاءُ صفـانهـا إليـهِ فلـولا جمـدُهـا كُنـتَ تكـرعُ
٦ ـ تبـوحُ بـاسـرار الحـديـثِ كـأنّـهـا وشـاةٌ بتنقيـلِ الاحـاديـث تُـولـعُ
٧ ـ كـأنّ الـدكـاكـينَ التي اتصّلـتْ بهـا صفـائـحُ كـافـورٍ تضـيءُ وتَسطَـعُ
٨ ـ كـأنّ الصُهـاريـجَ التي منْ أمـامِهـا بحـارٌ ولكـنْ جـودُ كفيـكَ أوسـعُ
٩ ـ كـأنّ الأسـودَ الـعـامـريـةَ فَـوقهـا تـهـمُّ بمكـروهٍ إليـكَ فتنفـزعُ
١٠ ـ كـأنّ خـريـز المـاء منْ لهـواتهـا تُبـدِدُ دُرٌّ ذابَ لـو يتجمّـعُ
١١ ـ أعـدّتْ لإحيـاء البسـاتيـن كلّمـا شقّتْ مـوضعـاً منهـا تـاكـد مـوضـعُ
١٢ ـ دَعتهـابصـوْبِ المـاء فـانتبهتْ لـهُ عيـونٌ كـأمثـال الـدّنـانيـرِ تلمـعُ
١٣ ـ فلمـا نشـا النّـوار فيهـا ظَننْتُهـا قبـابـك يـا منصـورُ حيـن تُـرفـعُ
١٤ ـ ولمـا اكتَسـتْ أغصـانُهـا خِلْتُ أنّهـا قيـانٌ بـزيٍّ أخضـرٍ تتقنّـعُ
١٥ ـ ولمـا تنـاهـى طِيبُـهـا وتمـايلـتْ علينـا حسبنـاهـا حبيبـاً يُـودِّعُ

(٥٧)

وقال يحيى بن هذيل في الرماح : [منسرح]

١ ـ ومُـرهفـاتٍ كـأنّـهـا شُـهُـبٌ طـوالـعٌ فـي يـديـكَ مطلـعُـهـا
٢ ـ كـأنّـهـا طـالبـات مُسـترقٍ مَفـزعـهـا فـي الكُلـى ومشـزعُـهـا

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٢٩٩

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٢٤

(١) يستخذي : يخضع وينقاد ، وهو يهمز ولا يهمز من استخذا يستخذىء .
(٢) السموك : السقوف ، ومفردها السَمك .

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : ٤١٢

(٥٨)

وقال ايضاً في الدروع : [منسرح]

١ - وسابغاتٍ كأنّما نُسِجتْ بالآلِ مِمّا صَفا تُلمّعُها[1]
٢ - إن اكتسى فارسٌ بها إنهرقَتْ كأنّهُ في التُرابِ يزرعُها
٣ - كأنّها والاكفُ تلمسها رُقْشُ الافاعي تكادُ تَلسعُها[2]

(٥٩)

وقال ايضاً في السراب : [كامل]

١ - مُتوسّطٌ جَوزَ الفلاةِ كأنّه ثملٌ يميدُ به الطريقُ المَهْيَعُ
٢ - وترى بها جسمَ السَراب كأنّما نَزلتْ به الحُمّى فما إنْ تُقلِعُ

(٦٠)

وقال الهذلي : [طويل]

١ - وبيني وبينَ المُستقلّةِ بالنّوى دمُوعي ونورٌ ساطعٌ تحتَ بُرقُعِ
٢ - كأن دمُوعي حاسدتني فلمْ تَدعْ لواحظَ عَيْني أنْ تُودّعها معي

(٦١)

وقال ايضاً : [طويل]

١ - وَيوماً بداراتِ العقيق لو أنّهُ أُعيدَ لردَّ الشّمس عن كُلّ مطلعِ[1]
٢ - لقينا بهِ فَتْكَ النّوى وقلوبُنا قوائمُ طيرٍ في الحبائلِ وُقّعِ

(٦٢)

وانشد له ابو محمد علي بن حزم : [خفيف]

١ - لا تلُمني على البُكاء بدارٍ أهلُها صيّروا السّقامَ ضَجيعي
٢ - جَعلوا لي إلى الوصالِ سبيلاً ثم سدّوا عليّ بابَ الرجُوعِ

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٣٦

(١) الآل : السراب .

(٢) الرُقش : الافاعي ذات نقط سود وبيض ومفردها رقشاء .

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٧٣

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٠٩

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣١١

(١) العقيق : واد في المدينة فيه عيون ونخل كثيرة .

التخريج : البيتان في : الحميدي : جذوة المقتبس ٣٥٩
والضبي : بغية الملتمس ٤٩٥
والحموي : معجم الادباء ٢٠ / ٤٠
والصفدي : نكت الهميان ٣٠٨
والمقري : نفح الطيب ٤ / ٣٦

البيت الاول : في البغية : على البُكا في المعجم والنكت والنفح : على الوقوف .

البيت الثاني : في البغية : ثم صدّوا . وفي المعجم والنفح : الى هواهم سبيلا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حرف الفاء

(٦٣)

وقال ابن هذيل في مصلوب : [كامل]

١ - لحِق السُّها في جذعهِ فكأنَّهُ   مُتَسمِّعٌ يغشاهُ نجمٌ قائفُ
٢ - أو مُطرقٌ لعظيمةٍ يُثني لها   من نفسهِ العصبانَ ثمّ يُخالفُ

(٦٤)

وقال ايضاً ابن هذيل في الناعورتين بالزاهرة : [متقارب]

١ - وأنتَ ابتدعتَ لناعورتينِ   بدائعَ أعيتْ فما تُوصفُ
٢ - هُما ضرّتانِ كمثلِ يَديكَ   إذا جارتا والحيا مُغدفُ[1]
٣ - كأنّهما طلعتا مُزنتيْنِ   تكدُّهما شَمألٌ حَرجَفُ[2]
٤ - كأنهما منكبا يَذبُلِ   ولكنّ يَذبُلَ لا يدلُفُ[3]
٥ - كأنّهما هيبةً في العُيو   نِ منك فتُغضي ولا تطرُفُ
٦ - كأنهما صاحبا غِلْظةٍ   وبينهما عاشقٌ ملطفُ
٧ - فمنْ هذهِ صولةٌ تُشتَرابُ   ومن هذه يحلُمُ الاحنفُ[4]
٨ - كأنّ الشفانينَ والمفصحات   من الطَّيرِ فوقهما تهتفُ[5]
٩ - وخافتْ على مُحدثاتِ الثّمارِ   إذا النّهرُ عن سقيها يضعفُ
١٠ - فمدّت إلى أرضها ثديَها   مع السدُّ فهوَ الذي يرشفُ
١١ - وبينهُما مجلسٌ للملوكِ   بهِ منْ عزازتهِ يُحلفُ
١٢ - على قاعهِ لُجّةٌ منْ رخامٍ   يُغرّقُ فيها ولا يتلفُ
١٣ - يلذّونَ منْ طلّها برشاشٍ   يفيقُ بهِ الهائمُ المدنفُ
١٤ - ويُبطىءُ كالطّائرِ المستديرِ   عليهمْ ولكنّهُ يكنفُ
١٥ - فليسَ يشكّونَ من لينهِ   بأنّ نثائرهُ تنتفُ

(٦٥)

وقال ابن هذيل : [كامل]

١ - مرّوا كما مضتِ السِّهام فلم تَعُجْ   نحوي ركابُهُمُ ولم يتوقّفُوا
٢ - ورأيتُ محبُوبي فمالَ بجيدهِ   نحوي كما مالَ القضيبُ الأهيفُ
٣ - حيرانَ من وَجلِ البُكاءِ كأنّهُ   نشوانُ قد غلبتْ عليهِ القَرقَفُ
٤ - فعصيتُ إقدامي فما ودَّعتُهُ   إلّا مُخالسةً وعيري ترسُفُ[1]

التخريج : البيتان في ابن الكتاني : التشبيهات ٤٦١
(١) السُّها : الكوكب الخفي من بنات نعش
التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٣١
(١) مغدف : مقبل مسترسل .
(٢) حرجف : ريح الباردة .
(٣) يذبل : جبل مشهور بنجد ،وقد ذكره امرؤ القيس في شعره.
(٤) الاحنف بن قيس : احد العظماء الفصحاء الشجعان ويضرب به المثل في الحلم .
(٥) الشفانين : ومفرده الشفنين ، وهو الذي تسميه العامة اليمام وصوته في الترنم كصوت الرباب ، وفيه تحزين .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٢٩٨
(١) ترسُفُ : تمشي مشى المقيدَ ، اذا قاربت بين الخطو واسرعت واسرعت الاجارة فترفع قوائمها وتضمها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٦٦)

وقال ايضاً في الخيل : [كامل]

١ ـ ومُحجَّلٍ حُرٍّ كأنّ أديمهُ ... سَبْجٌ يكادُ يسيلُ مما يلصفُ(١)
٢ ـ يَلقاكَ أوّلُهُ بأصبحِ غُرّةٍ ... مِنْ تحتِ ناصيةٍ عليها تعكفُ
٣ ـ فإذا هَفَتْ مِنْ فوقِها تحكي لنا ... قمراً يُغيَّبُ بالظلامِ ويكسفُ
٤ ـ مَلآنُ مِنْ ريعانِهِ فكأنّهُ ... رَشأٌ لاخفى نباةٍ يتشوّفُ(٢)

(٦٧)

وقال هذيل : [كامل]

١ ـ لم تُبقِ في الكُفّارِ الّا هارباً ... يحكي فخلناهُ بذكركَ يَكلفُ
٢ ـ فكأنّما في قلبهِ مِن ذُعرهِ ... وخزٌ كما نَقبَ الأديمَ المخصفُ(١)

(٦٨)

وقال ابن هذيل : [طويل]

١ ـ تَعلَّقْنَ بالأشفارِ مِنْ كُلِّ مُقلةٍ ... تُنفضُ فحاكينَ الجُمانَ المؤلّفا
٢ ـ وقد جدّ دمعي فوق خدّي فَعَبرةٌ ... تَسيلُ وأُخرى ماؤها ما تنشّفا
٣ ـ إذا اجتمعا نوعين قلتُ شقيقةٌ ... أُضيفَ إليها نرجسٌ فتألّفا(١)

(٦٩)

وقال ابن هذيل في احد قصور الزاهرة : [كامل]

١ ـ مرأىً بديعٌ في مصانعِ مجلسٍ ... ذَلّتْ إليهِ مجالسُ الأشرافِ(١)
٢ ـ متألّقٌ وكأنّه متعلّقٌ ... بالنّجمِ دونَ قوادمٍ وخوافِ(٢)
٣ ـ وكأنّ صفّ وصائفٍ برزتْ الى الـ ... منصورِ عن كَلِلٍ مِنَ الصّفصافِ
٤ ـ قامتْ إليكَ كأنّما أعناقُها ... اعناقُ نافرةٍ مِنَ الاخشافِ(٣)
٥ ـ ريحُ الصَّبا مِنْ زوجها فغصونُها ... حركاتُ أيدٍ بالسّلامِ لطافِ
٦ ـ وتعلّقتْ أوراقها وتدافعتْ ... إنّ السّوالِفَ ملعبُ الأسيافِ
٧ ـ عَرَضتْ عليكَ زُمُرّداً وتحوّلتْ ... فأرتْكَ لوناً كاللُّجينِ الصافي
٨ ـ وكأنّما قد أسبلتْ مِنْ نفسِها ... ستراً على ذي ريبةٍ وخلافِ
٩ ـ وأظنّهُ النّهرَ الذي لم يستطعْ ... يحكيكَ في إرهامكَ الوكّافِ(٤)

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٩٦

(١) سَبج : بردة من صوف فيها سواد وبياض وقيل مدرعة تبتذلها المرأة في بيتها . يلصف : يتلالا ويلمع .

(٢) النباة : الصوت الخفي .

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٧٧

(١) الاديم : الجلد . المخصف : المخرز .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٠٥

(١) شقيقة : وتجمع شقائق وهي شقائق النعمان نوع من الازهار .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ١١٥

(١) المصانع : الابنية .

(٢) القوادم : وهي عشر ريشات في مقدم جناح الطير من كبار الريش ، والخوافي : صغار الريش تحت القوادم .

(٣) الاخشاف : جمع خشف ، وهو ابن الظبية .

(٤) الارهام : المطر . الوكاف : المنسكب .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٧٠)

وقال في الشراب الابيض : [كامل]

١ - لعبثْ بأيامِ الزَّمانِ وطاولتْ مُـدَدَ اللّيالي فَهْيَ جِزمٌ صافِ
٢ - فإذا استقرّتْ في الكؤوس حسبتَها منها لرقّةِ جرمِها المتكافي
٣ - عُصرتْ كأنّ مِنَ اللآلىء نُوّبتْ فشرابُها منْ كُلِّ ضُرٍّ شافِ
٤ - قد أوهمت حكمَ الحدودِ فظنّها ماءً وقد حكمتْ بحكمِ خافِ

(٧١)

وليحيى بن هذيل في ذكر اعتلال الخليفة الحكم سنة ٣٦٤هـ وانجلائه عنه :[كامل]

١ - يا فرجةً للحادث المتكشفِ ويداً يفيقُ بها الزمانُ وَيشتفي
٢ - عمَّ السرورُ فكلُّ نفسٍ حالُها في حالِ يعقوبٍ ببُردةِ يُوسُفِ[1]
٣ - لو كان شخصاً لم يعادلْ حسنَهُ حسنُ الربيعِ بزهرهِ المُتآلفِ
٤ - ولو اللّيالي صورتْ أيامَها منها لما اتّصلتْ بداجٍ مُسرفِ
٥ - فرحٌ فما في العالمين مُولّهٌ منْ حُسنِ موقعهِ اللّطيفِ المُلطفِ[2]
٦ - قد لاحت الشمسُ التي أضواؤها من عبد شمس في المحلِّ الأشرفِ[3]
٧ - وقد استقلّتْ مرّة كانتْ لها عُمُدَ السماء مع الرّواسي تنكفي[4]
٨ - وقد استردّتْ زينَها ريحانةٌ ذبلتْ فأيّةُ بلدةٍ لم ترجفِ
٩ - وقد استقالتْ عثرةً فأقالها ملكٌ إليهِ شفاعةُ المُستضعَفِ[5]
١٠ - وقد استجيبتْ دعوةٌ لو أنّها في العالمين لفضلها لم تخلفِ[6]
١١ - قد كادَ يشمتُ بالسّخاء وبالندى بخلُ الأشحّةِ واللُّهى بالمُعتفي[7]
١٢ - ضحكتْ إلى تلكَ السّلامةِ دولةٌ تركتْ لعضدِ هِشامِها المُتخلّفِ[8]
١٣ - قد كاد يَشمتُ بالمهنّدِ في الوغى سردُ المعافرِ فوقَ كُلِّ مُجفّفِ[9]
١٤ - يابن الخلائفِ منْ لُبابِ أميّةٍ والمُستقِّل بعزّهِ والمكتفي
١٥ - عُوفيتَ منْ كلِّ الأذى ونعمتَ منْ حُسنٍ وصرفُكَ وادعٌ لم يُعنفِ

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٦٦

التخريج : الابيات في : ابن حيان : المقتبس من اخبار بلد الاندلس ٢٠٥ - ٢٠٦

(١) اشارة الى قوله تعالى : « اذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه ابي يات بصيراً واتوني باهلكم اجمعين » سورة يوسف : الاية ٩٣ .

(٢) موله : الذي يذهب عقله ويتحير من شدة الوجد .

(٣) عبد شمس : عبد شمس بن عبد مناف بن قصي من قريش من عدنان . وكان له من الولد : امية ، وحبيب ، وعبد امية ، ونوفل ، وربيعة ، وعبد العزى ، وعبد الله . وهو من اصحاب الايلاف . ينظر : الزركلي : الاعلام ١ / ١٣٢ .

(٤) الرواسي : الجبال التي ثبت اصلها في الارض .

(٥) اقال عثرته : صفح عنه .

(٦) استجبّ : طلب المغالبة . من جبّ يجبّ جباً .

(٧) المعتفي : طالب الفضل أو الرزق .

(٨) وهو هشام بن الخليفة الحكم الذي استخلفه ولم يبلغ الحلم فتولى عنه حاجبه المنصور بن ابي عامر .

(٩) المعافر : كذا وردت ولعلها المغافر وهي نسيج من الزرد تلبس تحت القلنسوة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٧٢)

وقال ابن هذيل في سحابة : [طويل]

١ - وحنّانةٍ في الجوّ كدراء أقلبتْ تبسّمُ عنْ ومضٍ من البرقِ خاطفِ
٢ - تزفّ بها ريحُ الصّبا غير أنّها وتهادي الخودِ بين الوصائفِ

(٧٣)

وقال ايضاً في مذبّة : [كامل]

١ - قامتْ على يدها قيام وصيفِ في فاحمٍ منْ شعرها المحفوفِ
٢ - وثنتْ عليهِ قدّها فكأنّها مالتْ إلى التّعنيقِ والترشيفِ
٣ - بُعثتْ على طيشِ الذّباب فانصفتْ منهُ فمرّ بجانبٍ محذوفِ

حرف القاف

(٧٤)

وقال ابن هذيل : [طويل]

١ - وناخذُ منهُ جودهُ تحتَ هيبةٍ من المُزْنُ يَسقي الارضَ والرّعدُ مُطبقُ

(٧٥)

وقال ايضاً في الليل : [طويل]

١ - وليلٍ كفكرٍ في اقامةِ دُولةٍ فلو كانَ في عِزقٍ لما نبضَ العِرقُ
٢ - كأنّ دراريهِ استرابتْ هُدُوءهُ فاخطتْ مجاريها فليسَ لها طُرُقُ[1]

(٧٦)

وله : [كامل]

١ - شاهدْتهم وأنا أخافُ عناقهم شُحاً على أجسامِهم أنْ تُحرقا
٢ - فتركتُ حظّي منْ دُنوّي منهمُ ومن الوفاء بأنْ تُحبَّ فتَصدُقا
٣ - وأقلّ فعلي يومَ بانوا أنّني قبّلتُ آثارَ المطيّ تشوّقا
٤ - ولَوَ أنّ عُذرةَ شاهدتْ منْ موقفي شيئاً لحذرها بأنْ لا تَعشقا

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥١

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥٢٠

التخريج : البيت في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٨٣

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٢٥

(١) دراريه : نجومه

التخريج : الابيات في : الحميدي : جذوة المقتبس ٣٥٩ والضبي : بغية الملتمس ٤٩٥

البيت الثاني : في البغية : من دنوبي . وقد سقطت (ومن) من البيت .

البيت الثالث : في البغية : وفيه فراغ منقوط بين لفظتي آثار المطي لا مسوّغ له .

البيت الرابع : في البغية : من موقعي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٧٧)

وقال ابن هذيل في القمري : [بسيط]

١ ـ قد اختفى بينَ أغصانٍ وأوراقِ ... وحنَّ حنَّةَ مَشغُوفٍ ومُشتاقِ
٢ ـ كأنّما خافَ عذْلًا فهْوَ مُستتِرٌ ... أو خافَ واشيةً أودَتْ بميثاقِ

(٧٨)

وقال يحيى بن هذيل في الاقداح : [بسيط]

١ ـ عقيقةٌ في مهاةٍ في يَدَيْ ساقي ... أضوا من البدرِ اشراقاً بإشراقِ[1]
٢ ـ إذا تطاطا له الإبريقُ تَحسَبهُ ... مُصلّياً خرّ إعظاماً لخلّاقِ
٣ ـ قد نَفختْ فيهِ روحاً فَهْوَ مُرتحلٌ ... منَ النّدامى إذا أمسكَ السّاقي

(٧٩)

وقال ايضاً : [طويل]

١ ـ كأنّ الدّروعَ البِيْضَ والبيْضُ فوقها ... غمائمُ غُرّ أفرَجَتْ عنْ بَوارقِ

(٨٠)

وقال ايضاً في مروحة : [طويل]

١ ـ ومَصرُوفةٍ عنْ خَلْقِها إنْ صَرفْتَها ... الى طيّ بُرْدٍ أو إلى طيّ مُهْرَقِ[1]
٢ ـ على أنّها شِبْهُ المجنّ ودونَهُ ... فإن كنْتَ ذا فَهْمٍ أبِنْ ليَ واصدقِ[2]
٣ ـ لها لُطفُ أنفاسِ الصّباحِ ورقّةٌ ... تلذُّ بها نفسُ الفتى المُتشوّقِ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٨١)

وقال ايضاً : [طويل]

١ ـ وليس انبساطي في عُلاكَ مُثقلًا ... كغيري ولكنْ فيكَ جوهرُ منطِقي
٢ ـ فما أسألُ الحاجاتِ إلّا كأنّما ... حيائي على وجهي حُسامٌ بمفرقي

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٩٨

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٧٥

(١) المهاة : الكاس من البلور

التخريج : البيت في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٣٧

التخريج : الابياتن في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥١٨

(١) المُهرق : الصحيفة وجمعها مهارق .
(٢) المجن : التُرس وجمعه مَجّان

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٦٤٨

(٨٢)

وقال ايضاً في مصلوب : [كامل]

١ ـ فكأنما فيه بقيّةُ رُوحِهِ ... وكأنما عن ريبةٍ لم يَنْطُقِ
٢ ـ مُتقاصُ الشّفتَيْنِ تَحسَبُ أنّهُ ... في الجذعِ يضحكُ للعُلا إذ يرتقي
٣ ـ أوفى عليهِ في العُلوِّ كأنّهُ ... مُتعلقٌ بالفرقدِ المتعلَّقِ[1]
٤ ـ قد قابلَ الجهةَ التي كانتْ لهُ ... فكأنّه باكٍ وإن لم يشهقِ

(٨٣)

وقال في المزهر : [كامل]

١ ـ صُنعتْ كأجنحةِ الحمائمِ خِفَّةً ... كادتْ تطيرُ مع الرّياحِ الخُفُقِ
٢ ـ وَهفتْ على أيدي القِيانِ كأنّها ... رَخَمٌ تُرفرفُ في السّماءِ وتلتقي[1]
٣ ـ وتكلّمتْ تحتَ القضيبِ كأنّما ... نغماتُها من حنّةِ المُتشوّقِ
٤ ـ يتكسرُ الماشي بها فترى لهُ ... خُيَلاءَ جبّارٍ وخِفّةَ أوْلقِ[2]
٥ ـ ويُؤخّرُ الاقدامَ بعد تقدُّمٍ ... رَقْص الحبابِ على الغديرِ المُتْاقِ[3]

(٨٤)

وقال ايضاً في الخيل : [بسيط]

١ ـ وماجنٍ معشوقٍ إذا اجتمعت ... الحانُهُ وفيَ شتى نَبّهتْ قَلقي[1]
٢ ـ كأنّ نفْسَ عذاريهِ إلى فمهِ ... كأسٌ مُفتّحةٌ من خالِصِ الوَرِقِ[2]
٣ ـ كأنّ عينيهِ من ياقوتتينِ إذا ... ما كانتا في صَفا ماءٍ الى الزُّرَقِ
٤ ـ كأنّما سَرْجُهُ في ظهرِ كاسرةٍ ... أو حاصبٍ يتوقّى برقَ مُنبعقِ[3]
٥ ـ كأنّما هو محمولٌ على أدبٍ ... فليس يُلحقُ في ساقٍ ولا عُنُقِ

(٨٥)

ولابي بكر يحيى بن هذيل في السوسن تشبيه انيق ، وتمثيل دقيق ، وهو : [بسيط]

١ ـ ورُبَّ سوسنةٍ قبّلتُها كَلفاً ... ومالها غيرُ نَشْرِ المِسكِ منْشوقِ
٢ ـ مُصْفرّةِ الوسطِ مُبيَضٍّ جوانبُها ... كأنّها عاشقٌ في حِجْرِ معشُوقِ

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٦٢

(١) المتعلق : كذا وردت ولعلها المتألق .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٩٩

(١) الرخم : مفردها الرخمة ، طائر أبقع يشبه النسر في الخلقة .

(٢) الاولق : الجنون وربما وصف به فكان بمعنى مجنون .

(٣) المتاق : الملآن .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٩٧

(١) وماجن : كذا وردت ، ولعلها (وهاجمني) كما يراها الدكتور احسان عباس .

(٢) الورق : بكسر الراء الفضة .

(٣) المنبعق : المطر المتفجر .

التخريج :

البيتان في : ابي الوليد الحميري : البديع ١٣١

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٨٦)

وقال ابن هذيل في خوخة : [سريع]

١ - في نصفها من خجلها حمرةٌ وبينها طُرقٌ لِطافٌ دِقاقْ
٢ - كأنها في بعضها عاشقٌ زاخفها للثمِ أو للعناقْ

حرف الكاف

(٨٧)

قال ابن هذيل حين الفىٰ ابن القوطية خارجاً من ضيعة له ، فاستبشر بلقائه ، وابتدأه ببيت حضره على البديهية : [بسيط]

١ - منْ اينَ أقبلتَ يا منْ لا شبيهَ لهُ ومنْ هوَ الشّمسُ والدُّنيا لهُ فَلَكْ

فاجابه مسرعاً :

منْ منزلٍ يعجبُ النُّساك خَلوتهُ وفيهِ ستْرٌ على الفُتّاكِ إنْ فتكوا

(٨٨)

ولابي بكر في السوسن قبل ان يتفتح وصف أُستحسن وأُستملح ، وهو : [طويل]

١ - فأوّلُ ما يبدو فَخلْقُ سبيكةٍ مُخلصةٍ بيضاءَ أتقنها السّبكُ
٢ - بَنَتْ نَفسَها فوقَ الزُّمرّدِ واقفاً فلاحتْ كمثلِ الدُّرِ ضمنهُ السُّلكُ
٣ - جنى سُوسَن لولا سنا بشراتهِ لما زيّنَ الافواهَ ثغرٌ ولا ضحكُ

(٨٩)

قال ابن هذيل في صفة الحمامة : [كامل]

١ - ومُرنّةٍ والدُّجْنُ ينسجُ فوقها بُرديْنِ منْ طلٍ ونوءٍ باكِ
٢ - مالتْ على طيِّ الجناحِ وإنما جعلتْ أريكتَها قضيبَ أراكِ
٣ - وترنمتْ لحنينِ قد حلّتهما بغناءِ مُسمِعةٍ وأنّةِ شاكِ
٤ - ففقدْتُ من نَفْسي لفرطِ تلهُّفي نَفس الحياةِ وقلتُ منْ أبكاكِ ؟

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٤١

التخريج : البيتان في : الثعالبي : يتيمة الدهر ٢ / ٧٤
والحموي : معجم الادباء ١٨ / ٢٧٤ - ٢٧٥
والمقري : نفح الطيب ٣ / ٧٤ .
البيت الثاني : في النفح : تُعجبُ .

التخريج : الابيات في : ابي وليد الحميري :البديع ١٣١ - ١٣٢

التخريج : الابيات (١ - ٢) في : الثعالبي : يتيمة الدهر٢ / ١٥
الابيات (١ - ٤) في : ابن بسام : الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤٦ وابن منظور : نثار الازهار ٨٢ والتيفاشي : سرور النفس ١٠٢ .
البيت الاول : في اليتيمة : ومزنة والبرق .... من نوء وطل . وفي النثار : من حلك ونوء .
البيت الثاني : في النثار : كانما جعلت .
البيت الثالث : في النثار : خلتهما .
البيت الرابع : في النثار : لفرط صبابتي .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٩٠)

وقال ابن هذيل في سكين : [كامل]

١ ـ في جانبي نيلٌ وفي الثاني ضُحىً   فانا الزّمان على أنامل مُمسكي
٢ ـ قرْب التي السيفَ لستُ أهابُهُ   وَدَعِ العيونَ فسيفُها هو مُهلكي

(٩١)

وقال ايضاً في الحمامة : [طويل]

١ ـ مُطوّقةٌ يخدو النّدى في جَناحِها   لآلىءُ ليستْ منْ نظامٍ ولا سِلكِ
٢ ـ إذا انتقلتْ عنْ أيكِها فكأنّما   قوادمُها أجفانُ والهةٍ تبكي

حرف اللام

(٩٢)

وقال ابن هذيل : [كامل]

١ ـ وجهٌ أغرُّ كأنّه بدرُ الدُّجى   فعليهِ منْ نورِ السُّعودِ كمالُ
٢ ـ تتزاحمُ الحالاتُ في إشراقهِ   فكأنّه فوقَ العُيونِ هلالُ

(٩٣)

وقال ابن هذيل في السيف : [كامل]

١ ـ قَلِقٌ الفِرندِ مُشطّبٌ فكأنّما   يَعلو ويَهبط في شباهُ مَنْهَلُ[1]
٢ ـ أوحى وأوجزُ منْ إعادةِ نظرةٍ   في وجهِ معشوقٍ يصدُّ ويبخَلُ[2]
٣ ـ ويُريكَ أن على يَدي مُستلّهِ   نسجاً من الآل الذي يُتخيّلُ
٤ ـ لا يستطيع الناظر أن يسرح في نصله   فكأنّما لم ينفصلْ ما يَفصِلُ

(٩٤)

وقال يحيى بن هذيل : [كامل]

١ ـ في خُضرةٍ مُفترّةٍ في غُرّةٍ   كالصُّبحِ كشفَ عنه ليلٌ أليلُ[1]
٢ ـ يمشي العرضنة فهو يحكي بالطّلى   كيف الصُّدود عن الحبيب فيُقبِلُ[2]

التخريج : البيتان في : ابن الختاني : التشبيهات ٥١٤

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٩٤

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٢٤٧

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٠٥

(١) الفرند : المقبض . الشبا : النصل .

(٢) اوحى : اسرع .

التخريج : البيتان في : ابن بسام : الذخيرة ق ٢ م ٢ ص ٤٦٩

(١) اليل : مظلم .

(٢) العرضنة : مشي فيه ميل وبغي من النشاط .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٩٥)

وقال ايضاً : [كامل]

١ ـ إنّ الـذي ولّـى ففـرّ بنفسـه ... للخـوف مكشـوفٌ بـلا سِـربـالِ
٢ ـ تُحـدى بـهِ القـوداءُ وَهْـوَ يَظنُّهـا ... مـن رُعبـهِ مـعقُـولـةً بـعقـالِ[1]
٣ ـ طـارتْ بـه وكـأنّمـا أوصـالُـهـا ... ولّتْ بـمُغنيهـا مِـنَ الإعجـالِ
٤ ـ ركبَ الشمـالَ مـولّيـاً ولقلبِـه ... خفقـانُ هـادلـةٍ بـريـحِ شمـالِ[2]

(٩٦)

وقوله : [طويل]

١ ـ ألا عـودة من طيفـهِ فيـرى حـالي ... ألا يـا لذ كـاري للكـرى لـو اتى تـالي
٢ ـ يكـادُ يضيقُ الجـوُ من عظم زفـرتي ... وتبـقُـو نجـومُ اللّيـلِ من فـرطِ إعـوالي
٣ ـ أبى غيـز تعـذيبي ولـو أمز الـرّدى ... أطـاع ولكـنْ فـعلـهُ هُـوَ أنكـى لـي

(٩٧)

وقال ابن هذيل في الحرب : [بسيط]

١ ـ كـأنّه طبَـق الـدنيـا إذا انبسطت ... فـرسـانـه لمـغـارٍ يـوْمَ إرسـالِ
٢ ـ مُقـاربُ الخَطْـوِ لا تُخطـى بـوادرهُ ... كـالبحـرِ يجـرفُ وشـلًا بـعـد أوشـالِ
٣ ـ إذا انثنى بقفُـولٍ مـاج مـن عِظـمٍ ... دهـراً كـانَ ذويـهِ غيـرُ قُفّـالِ

(٩٨)

وقال ابن هذيل في المصلوبين ايضاً : [كامل]

١ ـ تُشـرى رؤوسـهـمُ عليـكَ كـأنّهـا ... نُـسـرٌ شـواهقـتْ فـوق روسِ تـلالِ[1]
٢ ـ صُفّـتْ بقـارعـةِ الـرّصيـفِ كـأنمـا ... تتقضـي سـلاة الخـوفِ دون كمـالِ
٢ ـ فـاستقبلتْـكَ كـأنّمـا علن تـوبـةٍ ... خشـعـت بنـو ارتفـعـت إلـى الامـهـالِ

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٨٠

(١) القوداء : الناقة السمحة .

(٢) الهادلة : الحمامة . وقد يكون معناها الغصن المتهدلة .

التخريج : الابيات في : الثعالبي : يتيمه الدهر ٢ / ١٤

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٥٢

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٥٩

(١) الذئر : طيور سود

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٩٩)

وقال ابن هذيل في الفراق يوم الطل : [كامل]

١ - لم يـرحلـوا إلّا وفـوق رحـالِهـمْ غيـمٌ حكـى غبشَ الصّبـاح المـعتلـي[1]
٢ - وعلى هـوادجهم مُجاجـاتُ النّـدى فكـأنّـهـا مُطـرتْ بـذُرٌ مُـرسـلِ[2]
٣ - لمّـا تحـرّكـتِ الـرّكـابُ تنـاثـرتْ منْ فـوقهـم فـي الارض بيـنَ الأرحـلِ
٤ - فبكيتُ لـو عـرفـوا دمُـوعي بينـهـا لكنّـهـا اختلطـتْ بشكـلٍ مُشكِـلِ

(١٠٠)

وقال ايضاً في القسي والنبال : [بسيط]

١ - تـعـاورتْـهُـم نبـالٌ عنْ مـعـابلـهـا كـالنّحل أو كشـآبيبِ الحيا الـزّجِـلِ[1]
٢ - فـي كـلِّ واجـدةٍ نـعـيٌ تمـدُّ بـهِ مـنْ رنّـةِ الـوتـرِ يحكي رنّـة الثُّكـلِ

(١٠١)

وقال فيها ايضاً : [طويل]

١ - وحـانيـةٍ منْ غيـر رُحمى على طفلِ يـعيش بـلا أكـل ويبقـى بـلا رسْـلِ[1]
٢ - إذا مـا دنـا منْ حِجـرها نبـذتْ بـهِ وتُـرسلـهُ طفـلًا فيـغـدو على كـهْـلِ
٣ - كـأنّ تـراخيـهـا قـوامٌ لقـوةٍ تميـلُ عليـه تـارةً ثُـمّ تُستـعلـي
٤ - إذا استثقلتْـهُ وهـو قبضـةُ حجـرهـا مضى يضعُ التـاكيـد في فُـرقـةِ الشّمـلِ
٥ - لـهـا رنّـةٌ فـي إثـرهِ بـعـد فقْـدهِ فتحسبـهـا تبكـي عليـهِ مـن الثُّكـلِ

http://Archivebeta.Sakhrit.com

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٠٠
والحميدي : جذوة المقتبس ٣٥٨ - ٣٥٩
والضبي : بغية الملتمس ٤٩٥
البيت الاول : في الجذوة والبغية : غبش الظلام المقبل
البيت الثاني : في الجذوة والبغية : وعلت مطارفهم مجاجات ... فكانما مطرت
البيت الثالث : في الجذوة والبغية : تحركت الحمول ... تحت الأرجُل .
(١) الغبش : البقية من الليل ، وقيل ظلمة اخر الليل .
(٢) مجاجات : ومفردها مجاجة وهو الريق الذي يقذف به الفم . فيقال : المطر مجاج الغيم .

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٢١
(١) المعابل : جمع معبلة ، وهي نصل عريض قصير . الشآبيب : الدفعات من المطر . الحيا : المطر . الزجل : الراعد أو المصوّت .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٢٠
(١) الحانية : التي تحنو وتعطف وهي القوس . والطفل : ويعني السهم . والرسْل : اللبن

(١٠٢)

وقال ابن هذيل في البازي : [طويل]

١ ـ ومُهتبَلٍ بالجوِّ والأرضِ مُسرعٍ … إلى كُلِّ ما استنهضتهُ غيرِ غافلِ[١]

٢ ـ تقاربَ منهُ خَلقُهُ فكأنَّهُ … علاةُ حديدٍ حُذِفتْ بالمعاولِ[٢]

٣ ـ تكفَّرَ في موضونةٍ تحتَ لينِها … خشونةُ ظفرٍ كالرماحِ الذوابلِ[٣]

٤ ـ وفاضتْ فلم يفضُلْ لهُ منْ جميعهِ … بها غيرُ ساقيهِ لعقدِ الجلاجلِ

٥ ـ ولمّا ثنى في الأفقِ صورةَ نفسهِ … على قطواتٍ في الوهادِ عواقلِ[٤]

٦ ـ تجلى عليها مُقبلاً فكأنّما … رماها بضغثٍ أو بنجمِ المُقاتلِ

٧ ـ كأنَّ يديهِ فيهما قوسُ نابلٍ … فتُدني من الأوتارِ ريشَ الحواصلِ

(١٠٣)

وقال ابن هذيل في الريح : [خفيف]

١ ـ ودنتْ في هبُوبِها بمشيةِ النشـ … وانِ خيزانَ بالمدامِ الشمولِ

٢ ـ لصقتْ بالثرى كما يخضعُ العا … شقُ ذُلّاً الى الحبيبِ المطولِ

٣ ـ ولقدْ خلتُ أنَّ بينهما عِشـ … قاً فصارا للضمِّ والتقبيلِ

٤ ـ واختفتْ عنْ فواطنِ الخلقِ حتّى … شبّهوها ضالّةً بنحولِ

(١٠٤)

وقال أيضاً في الخيل : [رمل]

١ ـ وقصيرِ الظَّهرِ مرفوعِ الخطا … تامكِ الحاركِ نهدٍ مُعتدلْ[١]

٢ ـ وهوَ محزومٌ على حيزومهِ … ببياضٍ في أديمٍ قدْ صُقِلْ[٢]

٣ ـ فترى اللّيلَ على مَقدمهِ … شطرهُ فيهِ وشطراً في الكَفَلْ[٣]

٤ ـ أوكأنَّ السَّيفَ في موسطهِ … بينَ قيْنينِ لإصلاحِ الفَلَلْ[٤]

٥ ـ أوكأنَّ البدرَ فيهِ أطبقتْ … فوقهُ مُظلمةٌ ثمَّ أطلْ

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٨٧

(١) المهتبل : المسرع

(٢) العلاة : السندان . حذفت : اخذ من اطرافها

(٣) تكفز : تغطى والموضونة : الدرع المنسوجة

(٤) قطوات : جمع قطاة وهي طيور القطا . وعواقل : لائذات مستنعات .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٢٩

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٩٨

(١) تامك : مرتفع . الحارك : اعلى الكهل . نهد : جسم مرتفع .

(٢) محزوم بمشدود . الحيزوم : وسط الصدر .

(٣) الكَفَل : العجز .

(٤) القينين : تثنية قين وهو الحداد . والفلل : الثلم في السيف .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

حرف الميم

(١٠٥)

وقال ايضاً في الدروع : [كامل]

١ - وكأنَّ درعَكَ أنشئتْ مِنْ مُزنةٍ فيكادُ أنْ يعشى بها المُستلئمُ(١)
٢ - وكأنّهم مما تدانوا والتقوا رفٌ فتحسبُها تهمُّ وتهجمُ(٢)
٣ - وكأنَّ جسمَكَ مِنْ وراءِ حجابِها دينٌ يشحُّ بهِ تقيٌّ مُسلمُ(٣)

(١٠٦)

وقال ابن هذيل في الحديث : [خفيف]

١ - فَصِلَنْ مُمحِضاً تجدْ بينَ فكّيهِ لساناً بهِ يراضُ الكلامُ(١)
٢ - وَحديثاً كأنّهُ قِطَعُ الرّوْضِ إذا ما همى عليهِ الغمامُ(٢)

(١٠٧)

وقال ابن هذيل في البحر والسفن : [طويل]

١ - وتلكَ الاساطيلُ المسخَّرةُ التي تمرُّ بتأييدٍ وتغزو فتَغْنَمُ
٢ - إذا مخرتْ في البحرِ ماجتْ كأنّما تُخاصِمُ أبناءَ الضلالِ فتخصمُ
٣ - وصُفّتْ كأنَّ البحرَ تحتَ صدورِها قد استأسرتْ أمواجهُ فهوَ ابكمُ
٤ - وقامتْ ستاراتٌ على جنباتِها طوالٌ كما امتدَّ السحابُ المركّمُ

(١٠٨)

وقال ايضاً في الناعورة : [كامل]

١ - وثقيلةِ الاوصالِ تَحسَبُ أنّها فلكٌ يُضيءُ بصبرِها خيزومُها
٢ - تجري إلى خلفٍ كأنَّ أمامَها مَلَكٌ يُلازمُ كبحَها ويُسيمُها
٣ - فإذا تدلّتْ خِلْتَ أنّ غمامةً سوداءَ مُقبلةٌ عليكَ غيومُها

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٣٥

(١) المستلئم : الذي لبس اللامة . وهي الدرع

(٢) رفّ : سرب من الطيور .

(٣) يشح به : يحرص عليه .

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٢٨٣

(١) الممحض : الذي يخلص النصح .

(٢) هذا البيت اخذه من قول بشار بن برد :

وحديثٌ كأنّهُ قِطَعُ الرّوْضِ زهتْهُ الصفراءُ والحمراءُ

ينظر : بشار بن برد : ديوانه ١ / ١١٩ نشره محمد الطاهر عاشور ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٠ .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٧٨

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٣٢

(١٠٩)

وقال ايضاً في الرحى : [كامل]

١ - بسخيّةٍ تُعطيكَ أقصى جهدها — ويفعلِ غابدِها الخئونِ تلومُها
٢ - قد أُهملت في حلبةٍ من خلقِها — فإذا جرت رفعَ العجاجَ هشيمُها
٣ - وكأنّما تُعنى ليُدركَ بعضُها — بعضاً فليس يخونها تسويمُها

(١١٠)

وقال ابن هذيل في ابن قزمان :[(1)] [طويل]

١ - فتىً باردُ الاشعار يفظعُ لفظُه — بها وهو منحوسُ الجبين شتيمُ
٢ - يُقرِّبُ وجهاً منكَ في خَلقِ قِرنةٍ — كأنّ انهدالَ الانفِ منهُ قَدومُ[(2)]

(١١١)

قال الحميدي : انشد بحضرة بعض ملوك الاندلس قطعة لبعض اهل المشرق ، وهي :

وماذا عليهم لو أجابوا فسلّموا — وقد علموا أنّي المشوقُ المتيّمُ
سروا ونجومُ الليلِ زُهرٌ طوالعٌ — على أنّهم بالليلِ للناس انجمُ
واخفوا على تلك المطايا مسيرَهم — فنمّ عليها في الظلام التبسّمُ

فافرط بعض الحاضرين في استحسانها ، وقال هذا ما لا يقدر اندلسي على مثله وبالحضرة أبو بكر يحيي بن هذيل ، فقال بديهاً : [طويل]

١ - عرفتُ بعَرفِ الرّيحِ أينَ تيمموا — وأينَ استقلّ الظاعنونَ وَخيّموا
٢ - خَليليّ ردّاني الى جانبِ الحمى — فلستُ إلى غيرِ الحمى أتيممُ
٣ - أبيتُ سميرَ الفرقدينِ كأنّما — وسادي قَتادٌ أو ضجيعيَ أرقمُ
٤ - وأحوزَ وَسنانِ الجفونِ كأنّه — قضيبٌ من الرّيحانِ لدْنٌ مُنعّمُ
٥ - نظرتُ إلى أجفانه وإلى الهوى — فايقنتُ أنّي لستُ منهُنّ أسلمُ
٦ - كما أنّ ابراهيمَ أوّل نظرةٍ — رأى في الدراري انّهُ سوف يَسقمُ[(1)]

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٣٢

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥٧٠

(١) هو غير ابن قزمان الشاعر المشهور صاحب الازجال .
(٢) القرنة : وطب مخروز من جانب واحد . وجمعها قربات وقرب . والقدوم : آله للنحت والنجر وجمعها قُدم .

التخريج : الابيات في : المقري : نفح الطيب ٣ / ١٥٣ - ١٥٤

(١) اشارة الى قوله تعالى : « فنظر نظرة في النجوم . فقال اني سقيم . » سورة الصافات : الايتان ٨٨ ، ٨٩ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١١٢)

وقال ابن هذيل في الحرب : [طويل]

١ - تكاثفَ حتّى الطّيرُ خولهُ مكانَ التقاطِ أو وروداً لحائمِ
٢ - تبيتُ التي لم تجعلِ الطّلحَ وكْرَها طلائحَ ما بينَ العِتاقِ الصوائمِ
٣ - وتلكَ التي أرزاقُها في حمايةٍ مُحلّقةً كالعارضِ المتراكمِ
٤ - إذا عارضتْ شمسَ الضّحى فهي ظُلّةٌ على قممِ الفرسانِ سودِ العمائمِ
٥ - إذا وجدتْ خرقاً من الريش أدخلتْ شعاعاً يسيراً مثلَ قدحِ المناسمِ
٦ - أطّلعتْ من بيتِها فكأنّها تُخالسُ سرَّ الجيشِ قبلَ الملاحمِ
٧ - تكافوْا فاعطوها من اللّحمِ قوتَها وأعطتهمُ ظِلّاً بحرّ السمائمِ

(١١٣)

وقال ابن هذيل في الريح : [خفيف]

١ - للصَّبا منّةٌ على الرّوضِ هادتْـ ـهُ بطيبِ الحبيبِ أيّ ذمامِ[1]
٢ - وَجرتْ بَينَهُ رواحاً لتُريتا خَ وَيبقى على رضًى والتئامِ
٣ - كالشّفيقِ الذي يُؤلّفُ ما بيْـ ـنَ حبيبينِ بعدَ قَطعِ الكلامِ[2]

(١١٤)

وقال ابن هذيل في المذبة : [متقارب]

١ - وقائمةٍ في يديْ قائمٍ تُحرّكُ من شَعرِها الفاحِمِ
٢ - يُميِّلُها نفسُ المُستقلِّ لها عن قضيبٍ لها ناعمِ
٣ - وتحسبُها كجناحِ غُرابٍ على رأسهِ طائرٍ حائمِ

(١١٥)

وقال في الليل : [طويل]

١ - وليلٍ بغى فيهِ الغُرابُ جناحَهُ ولم ينفصلْ عنهُ ولكنّهُ عمي
٢ - دجا فكأنّي من حناياهُ أو أتى جريمةَ سوءٍ في سريرةِ مُجرمِ
٣ - إذا قُلتُ أينَ الصُّبحُ فاضتْ سدولُهُ عليَّ كأنّي مُستغيثٌ بأبكمِ
٤ - وأفزعُ مِنْ إطراقهِ فكأنّهُ يُراصدُ إطلاقي نجيُّ التكتّمِ

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٥٠

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٠

(١) الذمام : الحرمة والامان .

(٢) الشفيق : الحريص على الاصلاح . من الشفقة

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥١٧

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٢٣

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١١٦)

وقال ابن هذيل في الدروع : [طويل]

١ ـ ترى لابسي نسجَ الحديدِ كأنهم وراء الدروع العودِ غُبرُ الضراغِمِ
٢ ـ يُهولُكَ أن تدنو اليها كأنما ترى فُرَصاً منها عيونَ الاراقِمِ(١)

(١١٧)

وقال ابن هذيل في السكين : [كامل]

١ ـ قد أحوجَتْ أيدي الملوكِ الى فمي فأنا على الأيدي شَبيهةُ أرقَمِ
٢ ـ أجني فيُطلَبُ حابسي بجنايتي وأنا قَتَلْتُ وفيَّ آثارُ الدّمِ

(١١٨)

وقال في الطنبور : [بسيط]

١ ـ لـهُ لسانانِ مِنْ قَرْنٍ الى قَدمِ لا ينطُقانِ بغيرِ السّحرِ والحِكَمِ
٢ ـ كأنَّ اولهُ مِنْ حيةٍ سكنَتْ إلى إبانةِ كفٍّ غَضّةِ العَنَمِ(١)

(١١٩)

وقال يحيى بن هذيل في الخيل : [طويل]

١ ـ وذو خُضرةٍ مقسومةٍ شقَّ بينَها بياضٌ كعرضِ السّيفِ لم يتثلّمِ
٢ ـ هُوَ الصُّبحِ إلّا أنَّهُ حانَ ليلُهُ فقسّمهُ شطرينِ في جلدِ أدهمِ
٣ ـ إذا لاحَ في حيزومِهِ فكأنّهُ عليهِ نظامٌ فوقَ جيدٍ ومعصَمِ
٤ ـ إذا مرَّ لم يدخُلْ نمراً كأنما سَقَوهُ مُداماً بالكبيرِ المفدّمِ(١)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٣٣

(١) فرصاً : وتعني فُرَجاً أو شقوقاً ومفردها فرصة أو فرجة .

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥٠٨

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٩٨

(١) العنم : شجر لين الاغصان تشبه به بنان الجواري .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٣٩٥

(١) المفدم : المغطى بالفدام ، وهو ليف يوضع على فم الابريق لتصفية الخمر عند صبها .

(١٢٠)

وقال ايضاً في الجلم : [متقارب]

١ - أخُطّافةٌ في يدي أم جَلَمْ ... أم الزق يُحنى لشقّ القَلمْ[1]
٢ - هُما أخوانِ هُما توأمانِ ... على قَدَرٍ واحدٍ في الشِّيَمْ
٣ - وقد جَعلَ القَيْنُ بينهُما ... صُدوداً ووصلاً لمنْ قد فَهِمْ[2]
٤ - إذا فَغرا حكَيا أيْماً ... منَ الرُّقشِ فاغرةً تلتقِمْ[3]
٥ - مقصٌ كأنَّ سهامَ العيُو ... نِ أطرافُها في يَدَيْ مُخترِمْ[4]
٦ - تُصوِّر لي في يَديْ منْ أحبُّ ... لا ، لا إذا ما سألتُ : نَعمْ

حرف النون

(١٢١)

وقال ابن هذيل في السماء والنجوم : [خفيف]

١ - والثّريا دَنت منَ البدرِ حتّى ... خِلتَها دارعاً يُديرُ مجنّا

(١٢٢)

وقال ايضاً[1] : [خفيف]

١ - وكأنّ المُقاتلَ اغتاظَ حتّى ... أنفذَ الصُّبحَ بالتّقحّم طَعنا[2]
٢ - والسُّهى في بناتِ نعشٍ ضميرٌ ... بينَ أضلاعِها تَبَوأ كِنّا[3]

(١٢٣)

وقال ابن هذيل في المزهر ايضاً : [سريع]

١ - قامَ على اليُسرى خطيباً بها ... ينطقُ عن جُملةِ ألحانِ
٢ - كأنّما يفرقُ من فزعةٍ ... في أوّلِ منْ نقرِه الواني
٣ - كأنّه في فعلِه عاشقاً ... روّعهُ العشقُ بهجرانِ
٤ - كأنّما الأنقارُ في نحرِه ... ميازبُ في طستِ عقيانِ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٥١٥

(١) الخطافة : حديدة معوجة . الرق : الصفحة البيضاء

(٢) القين : الحداد

(٣) الأيم : الافعى

(٤) مخترم : مميت .

التخريج : البيت في : الثعالبي : يتيمة الدهر ٢ / ١٥

(١٢٤)

وقال ابن هذيل في الماكولات : [وافر]

١ - ومما يقطَعُ الحيزومَ عندي | تمرّغي بالقشواء على الشعران(١)
٢ - وتندى بُردتي خَلْفي إذا ما | نظرتُ الى السنبوسق في الجفان
٣ - كأنّ الزيتَ والعسلَ المصفّى | [illegible] في قُطنٍ بنانِ
٤ - وباذنجان مثلِ كُراتِ ضَرْبٍ | [illegible] المقاتل(٢)
٥ - وقد وقفَ الصّيام على فراغٍ | [illegible]

(١٢٥)

وقال ابن هذيل في الشراب : [بسيط]

١ - مالتْ على يدهِ كاسٌ فملتُ لها | سكرى معربدةً في كفِّ سكرانِ
٢ - لها هدير إذا نُصّتْ فتحسبُها | تخاصمُ الشُّربَ عنْ إفطاءِ ريحانِ

(١٢٦)

وقال ابن هذيل(١) : [خفيف]

١ - لا تلُمْ هائماً قد استحسنَ الوجْـ | ـهَ وثنّى أُسَّهُ إلى استحسانِهْ
٢ - فأنا الطائعُ المشوقُ لِمنْ صا | رَ يُريني الهوانَ في عصيانِهْ
٣ - مرّ بي خاطراً يكادُ منَ العُجْـ | ـبِ به أنْ يُراعَ في ريعانِهْ
٤ - في ملاءٍ كأنّهُ وَهْوَ فيها | [illegible] في جفنِ سيسبانِهْ
٥ - يتشكى الفتور. منْ كسلِ المشـ | ـيِ ولا يشتكيهِ منْ أجفانِهْ
٦ - ولقد شفّني وأسهر طَرفي | لمعُ برقٍ يَرِفُّ في لمعانِهْ
٧ - شَمْتُهُ والظلامُ يفترُّ عنهُ | كافترارِ الزنجيّ عن أسنانِهْ

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٦

(١) لعل هذه المقطوعة والتي سبقتها جزآن من قصيدة واحدة لتطابقهما في المعنى والوزن والقافية .

(٢) المقاتل : صفة لنجم ولعله السماك الرامح .

(٣) السُّهى : الكوكب الخفي في بنات نعش .

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٩٦

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٤٤

(١) الحيزوم : الصدر .

(٢) الجلجلان : ثمرة الكزبرة وهو ايضاً السمسم في قشره .

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٦٥

التخريج : الابيات في : الثعالبي : يتيمة الدهر ٢ / ١٤ والبيتان (٦ ، ٧) في ابن الكتاني : التشبيهات ٤١ . والبيت السادس : في التشبيهات : يرف .

(١) لعل هذه المقطوعة والمقطوعتان اللتان تليها اجزاء من قصيدة واحدة لاتفاقها في المعنى والوزن والقافية .

(١٢٧)

وقال ايضاً في الحمام : [خفيف]

١ - قُلْ لهذا الحمامِ إنْ جَهِلَ الحبَّ أنا واقفٌ على عرفانِهْ
٢ - لم تُصبْهُ النّوى بفقدانِ خلٍّ فيُرى باكياً على فقدانِهْ
٣ - فشدا في قضيبِ أيكٍ يُعلّيـ ـهِ ويُدنيهِ أرضَهُ منْ ليانِهْ
٤ - وكأنّ الرذاذَ فوقَ جناحيْـ ـهِ جمانٌ يروقُ عند اقترانِهْ

(١٢٨)

وقال ابن هذيل في الرايات : [خفيف]

١ - وكأنّ الراياتِ وهيَ معَ الرّيـ ـحِ فؤادُ المقصودِ في خَفَقانِهْ[1]
٢ - وكأنّ الرذاذَ فوقَ جناحيْـ ـهِ جمانٌ يروقُ عند اقترانِهْ[2]

(١٢٩)

وقال ايضاً في الانهار : [طويل]

١ - وماءٍ كمثلِ الرّاحِ جارٍ يزيدني نشاطاً فيُجري كلَّ معنى على ذهني
٢ - يمرُّ على حَبّاتِهِ فكأنّهُ صفا الدمعِ في عِقدِ الفتاةِ التي أعني

(١٣٠)

وقال ايضاً : [طويل]

١ - كأنّا منَ الإجلالِ تحتَ عمايةٍ نُطاطي لها بالرُّعبِ كُلَّ الأحايِنِ
٢ - كأنّا قُرِفنا باجترامٍ فما لنا لسانٌ يُقوّينا بعذرٍ مُبايِنِ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التخريج : الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٩٥

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٣٨

(١) المقصود : المعروف في اللغة المقصد . ولعله هنا الموجه اليه بالسهم .
(٢) التجفاف : وجمعها تجافيف ، وهو ما يوضع على الخيل من حديد وغيره في الحرب . وكان اصحاب التجافيف يمثلون وحدة من وحدات الجيش في اوقات العرض واستقبال الوفود .
ينظر : ابن حيان : المقتبس ٤٩

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ١٠٧

التخريج : البيتان في : ابن الكتاني : التشبيهات ٤٧٨

ـ الشعر المنسوب إليه والى غيره ـ

(١٣١)

وقال ابن هذيل في وصف نملة[1] : [سريع]

١ ـ مخزومة في ثبجٍ شَخْتِ ... كأنما استُقْصِيَ بالنّحتِ[2]

٢ ـ كأنّما آخرها نقطةٌ ... ساقطةٌ من قلمِ المُفتي

٣ ـ شدّت على الارضِ على أربعٍ ... تُشبهُ شَعرَ الطفلِ في النبتِ

٤ ـ مكدودةٌ ليس لها راحةٌ ... وتقطعُ الايامَ بالصّمتِ

(١٣٢)

وقال يحيى بن هذيل[1] : [منسرح]

١ ـ روّحني عائلي فقلتُ له : ... مهْ لا تزدْني على الذي أجدُ

٢ ـ أما ترى النّارَ وَهيَ خامدةٌ ... عند هبوبِ الرياحِ تتّقدُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التخريج :
الابيات في : ابن الكتاني : التشبيهات ٦٣٧ ووردت الابيات من (١ ـ ٣) منسوبة الى ابي الحسن علي بن اسماعيل المعروف بالطيطل في : الحميدي : جذوة المقتبس ٢٩٤ والضبي : بغية الملتمس ١٢١٢ والمراكشي : الذيل والتكملة ٥ / ١٩٦

البيت الاول : في الجذوة والبغية والذيل :
وذات كشح اهيف شخت ... كأنما بولغ بالنحت

البيت الثاني : في الجذوة والبغية والذيل : كأنما آخرها قطرة .
البيت الثالث : في الجذوة والبغية والذيل :
تشتد في الارض على ارجل ... كشعرة المخدج في النبت .

(١) ارجح المقطوعة لابن هذيل وذلك لانها وردت منسوبة اليه في اقدم مصدر من المصادر الاخرى ، ولان سمة التدقيق في الوصف من سمات ابن هذيل .
(٢) الثّبج : مابين الكتفين والكاهل . أو وسط الشيء ومعظمه . الشخت : الدقيق الضامر

التخريج :
البيتان في : ابن بسام : الذخيرة ق ٤ م٢ ص ٥٩٥ ووردا منسوبين لجعفر بن عثمان المصحفي في : ابن الكتاني : التشبيهات ٢٤٧ ووردا منسوبين ايضاً لابي جعفر احمد بن ايوب بن اللمائي في : ابن بسام : الذخيرة ق ١ م٢ ص٦٢١ والمراكشي : الذيل والتكملة ١ / ٧٣ ـ ٧٤ وابن الخطيب : الاحاطة ١ / ٢٤٣ والمقري : نفح الطيب ٣ / ٩٥٦
(١) ارجح المقطوعة لابن اللمائي ، وذلك لانها تدل على انها قيلت في مرضه الذي اصيب به وهو داء النسمة أو (ضيق النفس) ، ولانها وردت في عدد من المصادر الاخرى منسوبه اليه .

وقال يحيى بن هذيل بن الحكم(١) : [وافر]

[illegible] أنسلَ الشُّراءِ إذا تُوفُوا ... بَنَوا تلك المراصد بالصُّخُورِ
[illegible] إلا مُباهاةً وفخراً ... على الفُقراءِ حتّى في القُبُورِ
[illegible] إن يكن التصافح في ذُراها ... فإنَّ العَدْلَ فيها في القُعُورِ
[illegible] تسانق في بناء ... أميناً مِنْ تَصاريفِ الدُّهُورِ
[illegible] ... دُهُورٌ من المدائنِ والقُصُورِ
[illegible] نقوصاً ... وصارَ صَغيرُهُمْ أثَرَ الكبيرِ
[illegible] ... لَمَا عَرَفُوا الغنيَّ مِنَ الفقيرِ
[illegible] الموالي ... ولا عَرَفُوا الإناثَ من الذكورِ
[illegible] ... مِنَ البَدَنِ المُباشِرِ للحريرِ
[illegible] هذا وهذا ... فما فَضْلُ الجليلِ على الحقيرِ

[illegible] :

[illegible] ; الحموي : معجم الادباء ٢٠ / ٣٩ ـ ٤٠ ووردت الابيات باستثناء البيت السادس منسوبة ليحيى بن الحكم الجياني [illegible] بالغزال في : المقري : نفح الطيب ٢ / ٢٥٦ ـ ٢٥٧ و د . حكمة علي الاوسي : فصول في الادب الاندلسي ـ مجموع شعر [illegible] ص ٢٢٠ مطبعة بابل ، بغداد ١٩٨٧ .

[illegible] الاول : في النفح : [illegible] ... تلك المكابر .

البيت الثالث : في النفح : فإن يكن التفاضل .

البيت الرابع : في النفح : رضيت بدون تانق ... فبالغ في تصريف الدهور .

البيت الخامس : في النفح : [illegible] ما طريقه .

البيت العاشر : في النفح : فما فضل الكبير .

(١) [illegible] ومرة ليحيى بن الحكم الجياني ، ولتشابه الاسمين حدث هذا الخلط بينهما ، ومن [illegible] ان [illegible] في شعره ما يدل على تزهده في الحياة ، وله مقطوعات في الزهد تدل على ذلك .

هوامش المقدمة

(١) ابن الفرضي : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ٢ / [illegible] بتصحيح السيد عزة العطار مطبعة السعادة ، القاهرة [illegible] ١٩[illegible] .

(٢) [illegible] : [illegible] ٢ / ١٤ تحقيق محمد محيي الدين [illegible] ، القاهرة ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ .

(٣) الحموي : معجم الادباء ٢ / ٣٩ [illegible] الدكتور احمد فريد [illegible] القاهرة [illegible] .

(٤) [illegible] ٢ [illegible] تحقيق د . احسان [illegible] دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٩ .

(٥) [illegible] : معجم الادباء ٢٠ / [illegible] ابن فضل الله العمري : [illegible] ١١ / ١٧٥ مخطوطة مصورة في مكتبة الدراسات العليا جامعة بغداد . والصفدي : نكت العميان في نكت العميا ٣٠٨

والمقري : نفح الطيب ٤ / ٣٦ تحقيق د . احسان عباس ط دار صادر ، بيروت ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ . و د . سامي مكي العاني : معجم القاب الشعراء ١٩٨ مطبعة النعمان ، النجف ١٩٧١

(٦) ابن سعيد : المرقصات والمطربات ٧٥ نشر دار حمد ومحيو ، بيروت ١٩٧٣ .

(٧) اسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين اسماء المؤلفين واثار المصنفين ٢ / ٥١٨ ط وكالة المعارف ، استانبول ١٩٥٥ .

(٨) الحموي : معجم البلدان ٤ / ١٩٩ ، ٢٠٠ ط دار صادر ، بيروت ١٩٧٧ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٩) ابن الفرضي : تاريخ العلماء ٢ / ١٩٣
(١٠) ابن خلدون : مقدمة العبر ٢٩٧ ـ ٢٩٨ المطبعة البهية بمصر .
(١١) ابن الفرضي : تاريخ العلماء ١ / ٤٢
(١٢) المصدر نفسه ٢ / ٥٢
(١٣) المصدر نفسه ١ / ٤٠٧
(١٤) المصدر نفسه ١ / ٤٠٦ ـ ٤٠٧
(١٥) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢ / ٧٤ والحموي : معجم الادباء ٨ / ٢٧٤ ـ ٢٧٥ والمقري : نفح الطيب ٣ / ٧٣ ـ ٧٤ .
(١٦) الحميدي : جذوة المقتبس ٣٥٨ صححه محمد بن تاويت الطنجي ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٢ هـ والضبي : بغية الملتمس ٤٩٤ ـ ٤٩٥ مطبع روخس ، مدريد ١٨٨٤ م
• ابن بشكوال : الصلة ١ / ٤٥ نشره عزة العطار ، القاهرة ١٩٥٥
(١٧) ابن فضل الله العمري : مسالك الابصار ١١ / ١٧٥ والمقري : نفح الطيب ٤ / ٣٦ .
(١٨) الصفدي : نكت العميان ٣٠٨
(١٩) ابن بسام : الذخيرة ق ٣ م ٢ ص٣٤٥ ـ ٣٤٧ وابن منظور : نثار الازهار في الليل والنهار ٨٢ ـ ٨٣ مطبعة الجوائب ، القسطنطينية ١٢٩٨ هـ . والتيفاشي : سرور النفس ١٠٢ مخطوطة احمد الثالث نقلاً عن ماهر زهير جرار : شعر الرمادي ص ٢٣ ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٠
(٢٠) ماهر زهير جرار : شعر الرمادي ٢٤
(٢١) ابن بسام : الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤٧
(٢٢) المصدر نفسه ق ٢ م ٢ ص ٥١٤ ـ ٥١٥
(٢٣) المصدر نفسه ق ٢ م ٢ ص ٥١٥
(٢٤) ينظر د. احسان عباس : تاريخ الادب الاندلسي ـ عصر سيادة قرطبة ٢٣١ ط دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٨
(٢٥) ينظر : الحميدي : جذوة المقتبس ٣٥٩
(٢٦) ينظر : ابن سعيد : المرقصات ٧٥
(٢٧) ابن بسام : الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤٧
(٢٨) ينظر : المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧
(٢٩) ينظر : المصدر نفسه ق ٣ م١ ص ٣٤٨
(٣٠) ينظر : ابواسحاق الالبيري : ديوانه ٧٤ تحقيق اميليو غارسياغومس ، مدريد ١٩٤٤ .
(٣١) ينظر : المقري : نفح الطيب ٥ / ٧٠

(٣٢) ابن الابار : المقتضب من تحفة القادم ٣١ تحقيق ابراهيم الابياري ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٩٥٧
(٣٣) ينظر : المقطوعة (ق) ٥٤
(٣٤) ينظر : ق ٧٥
(٣٥) ينظر : ق ٩٥
(٣٦) ينظر : ق ٥٩
(٣٧)المقري : نفح الطيب ٣ / ١٥٣ ولم اجد الابيات في جذوة المقتبس للحميدي .
(٣٨) ابن الفرضي : تاريخ العلماء ٢ / ١٩٣ والحموي : معجم الادباء ٢٠ / ٣٩ والصفدي : نكت الهميان ٣٠٨
(٣٩) الحميدي : جذوة المقتبس ٣٥٨ والضبي : بغية الملتمس ٤٩٥
(٤٠) ابن الفرضي : تاريخ العلماء ٢ / ١٩٣
(٤١) ينظر : اسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين ٢ / ٥١٨ وكحالة : معجم المؤلفين ١٣ / ٢٢٥ مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٦١ والزركلي : الاعلام ٩ / ٢٢٢ ط بيروت ١٩٦٩ .
(٤٢) ابن خير الاشبيلي : فهرسة ما رواه عن شيوخه ٤٠٨ مراجعة قديرة زيدين ، ط دار [illegible] ، بيروت ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ .
(٤٣) ينظر : ق ٨٠
(٤٤) ينظر : ق ٧٣
(٤٥) ابن حيان : المقتبس من اخبار بلد الاندلس [illegible] تحقيق عبد الرحمن الحجي ، مطبعة [illegible] بيروت وينظر ابن عذاري المراكشي البيان المغرب ٢ / ٢٣٤ تحقيق كولان وبروفنسال ط دار الثقافة ، بيروت .
(٤٦) ينظر : ق ٧٠
(٤٧)ينظر : ق ٣٤
(٤٨) ينظر : ق ٦٦
(٤٩) ينظر : ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ٢ / ٢٥١
(٥٠) ينظر : ابن خلدون العبر ٤ / ١٨١
(٥١) ينظر : ق ٩٤
(٥٢) ينظر : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ٩٦ ، ٧٣ ، ٧٤ ، تحقيق بوفنسال ط دار المكشوف ، بيروت ١٩٥٦
(٥٣) ينظر : ق ٣٢
(٥٤) ينظر : ق ٥٦
(٥٥) ينظر : ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ٢ / ٢٢٦
(٥٦) ينظر : ق ٤١
(٥٧)ينظر : ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ٢ / ٢٧٥
(٥٨) ينظر : ق ٥٥
(٥٩) ينظر : ق ٦٨
(٦٠) ينظر : ق ٦٣
(٦١) ينظر : ق ٦١
(٦٢) ينظر : ق ٩ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١١٠
(٦٣) ينظر : ق ٧٥
(٦٤) ينظر : ق ٣٨ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٦٧ ، ٩١ ، ٩٥ ، ١٢٥
(٦٥) ينظر : ق ١٣
(٦٦) ينظر : ابن الكتاني : التشبيهات من اشعار اهل الاندلس ـ فهرس الاعلام ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ تحقيق د . احسان عباس ، ط دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٦

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٦٧) احمد حاجم الربيعي : الغربة والحنين في الشعر العربي الاندلسي ٣١٨ رسالة ماجستير ـ جامعة بغداد ١٩٨٣ .
(٦٨) ينظر : ق ١٢٦
(٦٩) ينظر : ق ٢٨
(٧٠) ابو الوليد الحميري : البديع في وصف الربيع ١٣١ ـ ١٣٢ نشره هنري بيرس ، المطبعة الاقتصادية الرباط ١٩٤٠ .
(٧١) ينظر : ق ٢
(٧٢) ينظر : ق ٢٩
(٧٣) ينظر : ق ٥٣
(٧٤) د . احسان عباس : تاريخ الادب الاندلسي ـ عصر سيادة قرطبة ـ ١١٨
(٧٥) ينظر : ق ١٠٩
(٧٦) ينظر : ق ٣
(٧٧) ينظر : ق ٥
(٧٨) ينظر : ق ٦ ، ٧

• • •

• اعلان الى الباحثين والكتاب الاجلاء •

ستصدر المجلة خلال هذا العام عدداً خاصاً عن بغداد الحبيبة ، وجهادها المقدس ضد موجات الغزو الاجنبية التي تعرضت لها في التاريخ وما رافق ذلك من ادب البطولة والمقاومة راجين من الباحثين والكتاب الكتابة إلينا مع الاعتزاز والتقدير .

● هيئة التحرير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحكاية الخرافية ورواية الخبر التاريخي

(حكاية العنقاء أنموذجاً)

قيس كاظم الجنابي

(١)النص : فصل في بيان صفة العنقاء وصفة الجزيرة التي تاوي اليها وما فيها من النبات والحيوان[١]

ثم نظر الملك الى الطوائف الحضور هناك فرأى الببغاء قاعدة على غصن شجرة بالقرب ، وهي تنظر وتتامل من يتكلم من الجماعة الحضور ، وينطق بحكاية في كلامه واقاويله .

فقال له الملك : من أنت ؟

قال : انا زعيم الجوارح من الطير .

قال : من ارسلك ؟

قال : ملكنا .

قال : من هو؟

قال : عنقاء مغرب .

قال : أين تاوي من البلاد ؟

قال : الى اطواد الجبال الشامخة في جزيرة البحر الاخضر التي قلما بلغ اليها مراكب البحر ولا أحد من البشر .

قال : صف لنا تلك الجزيرة .

قال : نعم ، طيبة التربة ، معتدلة الهواء ، تحت خط الاستواء ، عذبة المياه من العيون والانهار ، كثيرة الاشجار من دوح الساج العالية في جو الهواء . قصب آجامها القنا ، وعكرشها الخيزران ، وحيوانها الفيل والجواميس والخنازير واصناف أخر لا يعلمها الا الله .

قال : صف لنا صورة العنقاء واخلاقها وسيرتها .

قال : نعم ، هي اكبر الطير جثة ، واعظمها خلقةً ، واشدها طيراناً ، كبيرة الرأس ، عظيمة المنقار ، كانّه معول من الحديد ، عظيمة الجناحين ، اذا نشرتهما كانهما شراعان من شراعات مراكب البحر . وذنب مناسب لهما كانه فازة نمرود الجبار . واذا انقضت من الجو في طيرانها ، تهتز الجبال من شدة تموج الهواء ، من خفقان جناحيها . وهي تخطف الجواميس والفيلة من وجه الارض في طيرانها ، كما تخطف الحدأة الفارة من وجه الارض في طيرانها .

قال : ماسيرتها ؟

قال : احسنها واعدلها ، واناانكر بعد هذا .

(٢)استدراك : حول صفة العنقاء .[٢]

والعنقاء طائر عظيم معروف الإسم مجهول الاب يقال : كان بارض الرس جبل يقال له : دمَخ مصعدٌ في السماء ، وكان يأتيه طائر عظيم لها عنق طويله ، وهو من احسن الطير ، فيها من كل لون ، وكانت تقع منتصبة وتنقضُ على الطير فتاكلها ؛ فجاءت يوماً واعوزها الطير فانقضت على صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغرب : لانها تغرب بكل ما تأخذه ، ثم انقضت على جارية حين ترعرعت فاخذتها فضمتها الى جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ثم طارت ، فشكوا ذلك الى نبيهم : خالد بن صفوان[٣] فقال : اللهم خذها واقطع نسلها وسلّط عليها آفةً ! فاصابتها صاعقة فاحترقت فضربتها العرب مثلًا . فقالوا : (حلّقت به عنقاء مغرب) . يضرب لمن ينس منه ؛ قال الشاعر :

اذا ما أبن عبد الله خلّى مكانه
فقد حلّقت بالجود عنقاءُ مغربُ

قال عنترة الاخرس :

لقد حلّقت بالجود عنقاء كاسرٌ
كفخاء دَمْخٍ حلّقت بالجزورِ
فما ان لها بيض فيعرف بيضها
ولاشِبه طيرٍ منجدٍ او مغوّرِ

(٣) رواية الخبر التاريخي والحكاية :

الحكاية التراثية ، حكاية متوارثة وصلت الينا عبر المصادر القديمة تجمع بين الموضوعة التاريخية وبين اسلوب الحكاية لتعبر عن مشهد تاريخي من مشاهد الحياة له عمقه الحضاري والانساني . والنص المستدرك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على حكاية العنقاء روي بطريقة تاريخية كونه نصاً تاريخياً عن بني اهل الرمس ، وهو خالد بن سنان العبسي في بعض المصادر ، وفي بعضها الاخر (حنظلة بن صفوان) فاعترته الزيادة والنقص ، لانه نقل شفاهاً جيلًا عن جيل ، لهذا فقد اجواءه الحكائية وظروفه وابعاده وتحوّل الى خبر تاريخي يتضمن الخطأ والصواب . فليس هو من نسج الخيال كما هي حال الحكاية حتى ان الهمداني روى ان قبره موجود في بلاد الرمس في اليمن . في حين توسع المسعودي في رواية الخبر واصفاً ملامح هذا الحيوان العجيب ، فقال عن رواية ابن عباس :(٤)

« ان الله خلق طائراً في الزمان الاول من احسن الطير ، وجعل فيه من كل حسن قسطاً ، وخلق وجهه على مثال وجوه الناس ، وكان في اجنحته من كل لون حسن من الريش ، وخلق له اربعة اجنحة من كل جانب منه ، وخلق له يدين فيهما مخالب ، وله منقار على صفة منقار العقاب غليظ الاصل ، وجعل له انثى على مثاله ، وسماها بالعنقاء ، واوحى الله تعالى الى موسى بن عمران : اني خلقت طائراً عجباً خلقته ذكراً وانثى ، وجعلت رزقه في وحش بيت المقدس ، وآنستك بهما ؛ ليكونا مما فضلت به بني اسرائيل ، فلم يزالا يتناسلان حتى كثر نسلهما » .

ان هذا النص هو من متممات الحكاية التي تحوّلت تدريجياً الى اسطورة ، وبالتالي اصبحت لها ابعادها الخاصة بها ، من هنا تحوّل التاريخ الى معين لرواية الحكايات والاساطير عند العرب فكانت لهم اساطيرهم كما كان لغيرهم من الاقوام كاليونان والهند والصين والرومان .. وغيرهم . فهل حققوا ما يرتجى منه في رواية الاسطورة ؟

ما يمكن ان يلاحظ على متممات النص هو ما يلي :

١ ـ إنَّ نص الحكاية التي رويت بعض جوانبها في هذه المتممات لم يكتب بطريقة كتابة الحكاية والاسطورة وانما روي كخبر تاريخي تناقله الرواة شفاهاً ، ثم قيض له من دوّنه فاصبح نصاً تاريخياً ، لهذا يعد غير مكتمل من ناحية البناء .

٢ ـ أن النص تضمن الزيادة والنقص والاختلاف في اسم الشخصية التي تشير الى موقف تاريخي ، فهو :

أ ـ خالد بن سنان العبسي صاحب نار الحرتين ، وهي نار للمجوس اخمدها فاصبحت معجزة له (٥)

ب ـ خالد بن صفوان .(٦) او حنظلة بن صفوان .(٧)

٣ ـ تارجح النص بين الحكاية والاسطورة ، لهذا حقق جزءاً من مقومات النص التاريخي والشعبي .

٤ ـ عرض النص حكمة او مثلًا له مغزى ديني واضح ، فهو بالتالي نص اخلاقي وعظي يحمل معه مضامينهُ الاسطورية .

٥ ـ تضمن النص صراعاً بين قوى الخير والشر ، فحقق قدراً كافياً من التشويق والقص ، وتكوّن عدة وحدات هي :

أ ـ وحدة الحيوان وصورته ووصفه وافعاله .

ب ـ وحدة النبي الذي دعاء قومه للقضاء عليها .

ج ـ وحدة الخلاصة ، وهي الفكرة التي انبثقت عنها الحكمة وتاسس فيها المثل ، فهي بالتالي الجوهر والغاية التي نشات عليها الحكاية .

(٤) تحليل حكاية العنقاء :

نعود الى نص الحكاية الاول ، والذي هو عبارة عن حكاية خرافية لها خصائصها ، فهي تقوم على الحوار والوصف وبيان الابعاد الخرافية غير المقنعة للعنقاء التي سميت بـ (عنقاء مغرب) جرياً على تعميق فكرة المستحيل التي اقترنت بها . هذا اضافة الى ايغالها في القدم ، واهتمامها بجوانب بعيدة عن رواية الخبر التاريخي ـ كما حصل في متممات الحكاية السابقة ـ وبهذا حملت معها بذرة القص الحقيقي الفاعل ، وانتظمت بنظم فنية تقوم على بناء سردي قويم لا يستند الى الاطار التاريخي ، فالحوار قائم بين الملك والببغاء ، اي بين الانسان والحيوان ، لان الحوار اساساً في رسائل اخوان الصفا قائم بين الانسان والحيوان للاستحواذ على خيرات الطبيعة ، لهذا اصبح تعبيراً عن رؤية جدلية ذات ابعاد فلسفية . لكنها تلتزم المخلوقات واجهات لها فالحيوان يحاول أن يكشف تجاوز الانسان على حقوق الاخرين ، لذا جاء وصف الببغاء للعنقاء مصحوباً بالانبهار حين وصفها بانها (حسن عادلة) . مع انها كانت تتجاوز على الحيوانات الاخرى وتخطفها . اي انه لم يصفها بالسوء مع ان الفكرة الاساسية هي تصوير ما تعانيه الكائنات الصغيرة من اضطهاد .

اما البناء السردي ، فهو بناء مقتضب يهتم بالمتلقي وقدرته على استيعاب الفكرة ، ويحاول ان يكون معبراً عن حركة الحياة على سطح الارض بطريقة مبسطة وعميقة . لهذا بدا هذا البناء غير مكتمل من حيث الابعاد الفنية الشاملة لبناء الحكاية بسبب غلبة العنصر الفكري عليها ومحاولات استخدام اساليب التورية ، فلم يستطع السرد

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان يقدم صيغة معرفية او فنية مضافة الى الحوار والوصف بما يرفع من مستوى النص ويغنيه ، ولان اخوان الصفا ملتزمون بموضوعة معينة فآثروا الحفاظ عليها على حساب الجوانب الفنية الاخرى ، لهذا استغنى السارد عن الفترات التاريخية التي كانت تعيش فيها العنقاء ، ولم تتدخل رواية الخبر التاريخي في توجيه افكار الحكاية وتقويمها وعرضها ، فكانت اكثر خصوصية من الناحية الفنية في التعبير عن جوهر البناء الحكائي .

ويعد بناء حكاية العنقاء غير مكتمل لخلوه من الاحداث ، لانه روي بصيغة مشهد او موقف مجتزأ من حياة حيوان يجري الحديث عنه بين الملك والببغاء ، فاصبحت الحكاية جزءاً من فكرة تخدم توجهاً فلسفياً دينياً اعتمده اخوان الصفا في منهجهم الاخلاقي ، والذي يتكون بالتالي من الوحدات التالية :

(١) وحدة الحوار بين الملك والببغاء ، وهي تعبر عن حركة الوجود وصراعات القوى المتعددة .

(٢) وحدة وصف الحيوان (العنقاء) ، وهي تلتقي مع النص المتمم له الذي وصف الحيوان وصورته وافعاله التي هي تورية لحياة الانسان في بحثه عن العدل ، فكان الببغاء ممثلاً لصوت العدل الذي يذّكر الملك بالظلم والقهر والاضطهاد ، وهذا يعني ان طرح الحكاية كان لاهداف لها صلة بنقد الانظمة السائدة آنذاك .

(٣) استقى النص حكمته من فكرة الصراع بين الخير والشر ، ومن صراع العدل والظلم ، بمعنى انه ذو هدف اخلاقي .

الهوامش :

(١) اورد النص اخوان الصفا في رسائلهم ، واختاره الدكتور داود سلوم في كتابه (قصص الحيوان في الادب العربي القديم) : ص ٢٦٣ – ٢٦٤ . والطازة : مظلة بعمودين .

(٢) ومن الذين : المسعودي والنويري والسيوطي والدميري .. وتابعت رواية النويري في كتابه : نهاية الارب في فنون الادب : [illegible] – ٢٨ (بتصرف) .

(٤) راجع : مروج الذهب : ٢ / ٢٢٦ . حياة الحيوان : ٢ / ١٦٢ . المزهر : ١ / ٥٠٥ .

(٣) كذا في الاكليل للهمداني : ٨ / ١٣٩ . وان قبره موجود . وفي المزهر ومروج الذهب (خالد بن سنان العبسي) وهو الاصح . وفي حياة الحيوان (حنظلة بن صفوان) .

(٤) مروج الذهب : ٢ /٢٢٦ .

(٥) راجع : صبح الاعشى : ١ /٤٠٩ – ٤١٠ ربيع الابرار : ١ /١٨٤ – ١٨٥ .

(٦) نهاية الارب : ٣ /٢٨ .

(٧) حياة الحيوان : ٢ /١٦٢ . الاكليل : ٨ /١٣٩ .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثبت المصادر والمراجع :

ـ الدميري ، كمال الدين :
حياة الحيوان الكبرى ، المكتبة التجارية الكبرى ، مط الاستقامة بالقاهرة ١٣٨٣هـ – ١٩٦٣ م .

ـ الزمخشري د . بن عمر :
ربيع الابرار ونصوص الاخبار ، تح : د . سليم النعيمي ، ط الاوقاف (ج١) مط العاني ، بغداد ١٩٧٦ .

ـ سلوم ، داود :
كتاب قصص الحيوان في الادب العربي القديم ، وزارة الثقافة والاعلام ، مط دار الحرية ، بغداد ١٩٧٩ .

ـ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن :
المزهر في علوم اللغة وانواعها ، شرح وتعليق . محمد جاد المولى وصاحبيه ، المكتبة العصرية صيدا – بيروت ١٩٨٦ .

ـ القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي :
صبح الاعشى في صناعة الانشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة ، مط كوستاتوماس وشركاه ، القاهرة د . ت .

ـ المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي :
مروج الذهب ، ومعادن الجوهر (ط ٤) ، المكتبة التجارية الكبرى ، مط السعادة بمصر ١٣٨٤ – ١٩٦٤ .

ـ النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب :
نهاية الارب في فنون الادب ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة .. والارشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة ، مطابع كوستاتوماس وشركاه ، القاهرة د . ت .

ـ الهمداني ، ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب :
الاكليل (ج٨) حرره وعلق على حواشيه : نبيه امين فارس ، دار العودة – بيروت ، دار الكلمة صنعاء . د . ت .

[رسالة في علم الحجر المكرم لخالد بن يزيد]

د . عماد محمد الحفيظ وعادل محمد علي الشيخ حسين

عضوا اتحاد المؤرخين العرب - بغداد

مقدمة :

اشتهر خالد بن يزيد الاموي بانه ابرز علماء العرب في مجال الكيمياء ، حيث ترك العديد من الاراء والابحاث في هذا المجال العلمي . وبعد الاطلاع على الكثير من المصادر والمراجع التي بحثت عن هذا الرحل ومسيرته ، وما تركه من مؤلفات ودراسات اتضح انها تجهل وضعه كتاب أو رسالة او بحث في مجال الاحجار واهميتها في علم الكيمياء الذي كرس له يزيد حياته ووقته . وقد عثرنا على نسخة مخطوطة من هذه الرسالة ، حيث قمنا باستنساخها او تصويرها ، والعمل على تحقيقها واخراجها بشكل يتيح للباحثين الاستفادة منها . ويبدو ان هذه الرسالة لم تكن معروفة حتى عند صاحب الفهرست ابن النديم البغدادي [المتوفى ٣٨٥ هـ] ، ولم نحصل على اية معلومات عن هذه المخطوطة تتيح لنا معرفة من الذي استنسخها وفي اي تاريخ . وقد اتضح لنا أيضاً بعد الرجوع الى فهارس المخطوطات العالمية انها لم تذكرها ، وهذا يعطي بعداً وأهمية علمية ، وقصب سبق في كشفنا لهذه المخطوطة الفريدة والنادرة . وهذه الرسالة الخطية على صغرها تعتبر هامة وثمينة لانها لم تكتب على شكل اشعار كما تناول ذلك يزيد الكيمياء في ديوانه المعروف . والجدير بالاهتمام ان مصادر تاريخ العلوم من علماء العصر الاموي بصورة عامة وعن خالد بن يزيد بصورة خاصة شحيحة او قليلة جداً . وهناك مصادر ومراجع باللغات الالمانية والانكليزية والفرنسية عن تاريخ هذه العلوم لا يمكن الركون اليها ، كما انها غير متوفرة اصلاً في مكتبات القطر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نبذة عن مسيرته : لم تنل حياة ومسيرة خالد الملقب بابي هاشم ، وهو احد ابناء يزيد بن معاوية بن ابي سفيان الدراسة والتنقيب التاريخي الصحيح وبقت غامضة الى اليوم . ولذا فان المصادر التاريخية لم توضح عمر خالد او اية فترة تاريخية من حياته ولا سنة ولادته ، كما اختلفت في سنة وفاته ايضاً ، فقيل انه توفي ايام عبد الملك بن مروان [٦٥ - ٨٦ هـ] وقيل سنة ٨٢ أو ٨٤ هـ أو ٩٠ هـ ، والسنة الاخيرة هي المعول عليها لان ابن عساكر [المتوفى ٥٧١ هـ] اشار في رواية ان الخليفة الوليد بن عبد الملك قد حضر وفاة خالد سنة ٩٠ هـ ومدحه بقوله [لتلق بني أمية الاردية على خالد ، فلن يتحسروا على مثله ابداً][1] . ويذكر ياقوت الحموي ان خالد قد دفن في حمص[2] . ويشير الجاحظ [المتوفى ٢٥٥ هـ] الى خالد بن يزيد فيقول : [كان خطيباً شاعراً وفصيحاً جامعاً ، وحيد الرأي كثير الادب ؛ وكان اول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء][3] .

وفي كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني [المتوفى ٣٥٦ هـ] اشارة الى خالد بن يزيد في هذا الشأن ، وهي [وكان قد شغل نفسه بطلب الكيمياء فافنى بذلك عمره وأسقط نفسه][4] . وجاء في معجم الاطباء : [خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان أبو هاشم القرشي الأموي - كان من أعلم قريش بفنون العلم وله كلام في صناعة الكيمياء والطب وكان نصيراً لهذين العلمين متقناً لهما وله رسائل دالة على معرفته وبراعته . وأخذ الكيمياء من مريانش الراهب الرومي وله فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداهما ما جرى له مع مريانس وصورة تعلمه منه والرموز التي أشار اليها وله فيها اشعار كثيرة مطولات ومقاطيع وله في غير ذلك أشعار منها[5] :

تجـول خلاخيل النسـاء ولا أرى   لـــرملة خلخـالا يجـول ولا قُلْبـا
احب بني العوّام من اجل حبهـا   ومن أجلهـا احببت أخوالها كَلْبا

ويذكر الدكتور كمال السامرائي عن مسيرة خالد بن يزيد قائلًا ـ [وتزايدت عند خالد دراسة الكيمياء بعد !ن التقى بالكيمياوي مريانوس وهو راهب رومي من القدس ، استضافه الامير في قصره بحمص وقيل في الاسكندرية . وكانت دراسة الكيمياء يومئذ مقصورة على طبقة من الناس ، ولا يحصل احد عليها من شيوخ الصنعة الا من كان نقياً يخاف الله وامينا على اسرار علومها . وكان خالد شهما وحكيما وذا نزعة شعرية وفنية . وقد لقب لذلك بحكيم آل مروان ، كما قال عنه عمر بن عبد العزيز [ماولدت امية مثل خالد] . فرأى مريانوس ان الامير خالد كفوء لتعلم الصناعة فاطلعه على اسرارها وكشف له عن خفاياها . وقد وضع خالد رسالة ضمنها ما دار بينه وبين معلمه في ذلك اللقاء][٦]

وعن الاهداف المتوخاة التي دفعت هذا الامير العربي الى الاتجاه نحو العلم وما يتصل به قال الاستاذ فاضل خليل ابراهيم : [ومهما يكن من طبيعة الهدف الذي من اجله اتجه خالد نحو العلم فلا يمكن ان ننكر الاستعداد الذاتي في هذا الاتجاه ، فقد اتصف بالذكاء والفطنة وسداد الراي وان له همة ومحبة للعلوم . فعندما سأل من قبل استاذه عن سبب اهتمامه بالصنعة ، قال : [رغبة في العلم] . ويؤكد ذلك أيضاً ان اهتمامه لم يكن مقصوراً على الصنعة فحسب بل شمل الطب والفلك ونظم الشعر ورواية الحديث ، أضافة الى ولعه بالجدل والمناقشات الفكرية التي ظهرت بوادرها في عصره][٧] .

ومن اقوال خالد في العلم وفضله [اذا كان الرجل مماريا ... معجبا برأيه فقد تمت خسارته][٨] . ولخالد اشعار ، اوضح فيها اهمية العلم وضرورة الانتفاع منه ، كما اكد على الاخذ براي الاخرين والاستماع لهم حيث قال مرة والعلم نافع[٩] : هل انت منتفع بعلمك

هـل انت منتفـع بعلمـك   مـــرة والعلم نـــافـــع
ومن المشير عليك بالراي   المســـد ، انت ســـامـــع

أهم مؤلفات خالد بن يزيد العلمية : اول من اشار الى اهم كتب يزيد وعدها العالم البغدادي ابن النديم [المتوفى ٣٨٥ هـ] : فقال وله في ذلك اي (الكيمياء) عدة كتب ورسائل ، وله شعر كثير في هذا المعنى رأيت منه نحو خمسمائة ورقة ، ورأيت من كتبه : كتاب الحرارات ، كتاب الصحيفة الكبير ، كتاب الصحيفة الصغير ، كتاب وصيته الى ابنه في الصنعة[١٠] .

واضاف ياقوت الحموي [المتوفى ٦٢٦ هـ] على ماذكره ابن النديم من مؤلفات خالد رسالة اخرى سماها [السر البديع في فك الرمز المنيع][١١] اما حاجي خليفة [المتوفى ١٠٦٧ هـ] فقد ذكر لخالد كتاب سماه [الرحمة] وهو في الكيمياء اشتمل على اربعة فصول ، الاول في معرفة الحجر ، والثاني في الاوزان والثالث في التدبير ، والرابع في الخواص[١٢] .

خلاصة ماضمته رسالة خالد في الحجر المكرم : يذكر خالد في مقدمة رسالته الكيميائية هذه ، وان كان عنوانها يبدو للوهلة الاولى يدور حول الاحجار الكريمة قوله : [اني رأيت الناس طلبوا صنعة الحكمة في كل عصر ، ورأيت الحكماء قد كرهوا أذاعتها وصانوها عن الجماعة وكانوا اكرم الناس اخلاقاً واحسن مذهبا من ان يغنوا بها عن العقلاء وان يكتموها عنهم وان يضيعوها بالكشف والبيان المصرح ليصير الحكماء الى السفهاء ، ولكنهم بسطوها بالفاظ مجتمعة مشبهة ولقد اختلفوا في تاليفها وكُلٌ بينها ووضعها على قدر معرفته ومبلغ عقله وكان ذلك عندهم عدلا من التاليف اذا كانت افهامهم واسعة وعقولهم وافرة واذانهم نافذة][١٣] .

ويوضح خالد في مقدمته الاسباب والدوافع وراء اهتمامه بدراسة الكيمياء بشكل عام قائلًا : قرأت كثيراً من كتبهم [اي كتب من سبقه في صنعة الكيمياء] وفتشت كلامهم وقست بعضه ببعض فتحيرت ولم اجد السبيل الى وهم ما أشاروا اليه حتى امرني ذلك الى الخروج الى اسفالس الراهب[١٤] ، رغبة فيها والتماساً بمعرفتها ، فاثبته وكتمته ولزمت خدمته فلما رأى معرفتي وحسن ادبي ، واني اهلًا لشكفٍ قريبٍ والفاظٍ نبيهةٍ تقرب عن الفهم . فلما فعل وظهر لي معاني الفوز اخبرته باني مسلم واني ابن ملك العرب اكبر أمري وقال ما الذي حملكَ على ذلك فقلت رغبةً في العلم . فقال لي انصرف فقد قضيت وطرك ، فانصرفت ثم اني احببت ان اكشف للعلماء دون غيرهم من الجهال اشياء لهم اذ علموها اقتصروا عن تبذير اموالهم واتلافهم فيما لا يدركونه ... وذلك اني نظرت فيما صرف الناس اليه ظنونهم فوجدتهم توهموا في اربعة أشياء في الجواهر والاحجار والحيوان والنبات . فمنهم من جرب الجواهر مثل الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد[١٥] وحلوها وعقدوها . وليست الصنعة في شيء منها[١٦] .

ويفرق خالد بين العناصر الكيميائية المختلفة في الطبيعة ، واهمية الكيمياء في الحياة العملية ، قائلًا : [وقد سموا القوم

ARCHIVE
http://Archivebeta.sakhrit.com

كل شيء حار ناراً وكل سائل ماء وكل منعقد حجراً وكل اسود نحاساً ، فأحذرو من اللون وهو السواد ، واحذروا الغبار وهو التكليس ونفاذ الروح واعلموا ان اللحمان لا يقوي على صبغ الأحجار . ولا النبات لان النار ياتي عليها ولا تصبغ الاحجار الا الاحجار . وان الطريق واحد وهو واضح عند من عرضه ، وقد استعان بعضهم بالأملاح والاحجار والمياه اللطيفة وذلك مما لا ضرر فيه .][١٧]

ويذكر خالد في رسالته الاختبارات التي قام بها على الاحجار لا ستخراج مواد كيمياوية منها بواسطة التقطير والاتلاف حيث يقول : [ومن قوله (لا عرف عمن يقول) في الصنعة هو الحجر المصاب [اي الفيرنقي] بكل ارض وفي الاسواق تلقاه حقيراً يضني به الجواد على اخيه فاذا اضحى به يوماً خبيراً تدعوه موافق الطريقة الصحيحة مما عمله خاماً الحجر اذا تماش في اربعين يوماً ثم تقطر وتستخرج روحه ونفسه فاول ما يقطر منه البياض فيعزل على جانب ثم يقطر منه أيضاً النفس [اي يقصد اللب] وعلامتها انها أول ما يطلع تكون صفراء فاذا لم يبق في الحجر من النفس شيء يقطع عنه النار ويترك حتى يبرد ، فاذا بردت فتحت واخرجت مافيها من الثقل ، وهو اسود ، ثم يبدىء بتقطير البيض وهو الماء الابيض ...][١٨].

وخلاصة ماتقدم فان هذه الرسالة وضعت من اجل الاستخدامات العملية التقانية الذي يعرف اليوم بالكيمياء الصناعية . وهي مع بساطتها في عيون العلم الحديث فان لها اهميتها في تلك الفترة . بل تكشف بشكل لا لبس فيه الاعمال الباهرة التي قام بها هذا العالم العربي من خطوات صحيحة وان كانت تبدو بدائية في علم الكيمياء الحديث الا انها تعتبر الاسس الاولية لنهوض علم الكيمياء المعاصر .

الهوامش والمراجع والمصادر :

١ تاريخ مدينة دمشق ، لابن عساكر ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، المطبعة الهاشمية ، دمشق - ١٩٥٤ ، جزءه : ١٢٠

٢ - معجم البلدان ، ياقوت الحموي : ٢ :٣٠٣ .

٣ كتاب الحيوان للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة - ١٩٣٨ ، ج ١ : ٣٢٨ ، وكذلك العلم في العصر الاموي ، د . عمر فروخ ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق - ١٩٦٥ ، جزء ١ ، مج ٤٠ ، ص ١٤٦ .

٤ الاغاني ، لابي فرج الاصفهاني ، القاهرة - طبعة بولاق ، ١٦ : ٨٨ .

٥ معجم الاطباء ، د. أحمد عيسى ، بيروت - ١٩٨٢ ، ط ٢ ، ص ١٧٩ - ١٨٢ .

٦ مختصر تاريخ الطب العربي ، د . كمال السامرائي ، ١٩٨٤ ، بغداد ، ١ : ٢٩٦ - ٢٩٨ .

٧ خالد بن يزيد ، سيرته واهتماماته العلمية ، فاضل خليل ابراهيم ، بغداد ١٩٨٤ ، ص ١٠١

٨ تاريخ الاسلام ، للذهبي ، ٣ : ٢٤٧ .

٩ العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، تحقيق : أحمد امين وزملاءه ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ج ٢ : ٢٣٢ .

١٠ الفهرست لابن النديم ، مكتبة خياط ، بيروت - ١٩٦٤ ، ص ٣٥٤ .

١١ معجم البلدان ، ١١ : ٤٢

١٢ كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، طهران ، ١٣٧٨ هـ ، ط ٣ ، ٢ : ١٤١٩ - ١٤٢٠ .

١٣ الرسالة (المخطوطة) ص ١ وتقع في ٦ صفحات موجودة في مركز صدام للمخطوطات في بغداد .

١٤ اعتقد يقصد به مريانوس الراهب ، ويبدو ان هناك خطا بالاسم من قبل الناسخ ، والله اعلم .

١٥ كانت من الاخطاء الشائعة قبل مجيء خالد وفي زمنه ايضاً ومن بعده الى بداية القرن الثامن عشر تقريباً ان اعتبر معظم العلماء من اليونان والعرب الذين اشتغلوا بالكيمياء ان هذه المعادن ماهي الا جواهر .

١٦ الرسالة ، ص ٣

١٧ المصدر السابق ، ص ٤

١٨ المصدر السابق ، ص ٤

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المحتوى

■ من المحرر ٢

■ الافتتاحية ٣

■ ملف العدد

معركة عين جالوت د . عماد عبدالسلام رؤوف .... ٥ ـ ٢٢

ادب البطولة في شعر ابي العباس الجراوي ـ محمد القاضي .... ٢٣ ـ ٢٧

■ البحوث والدراسات

مفهوم السرقة الشعرية وتطوره في الخطاب

النقدي والبلاغي عند العرب د . ناصر حلاوي .... ٢٨ ـ ٣٥

على هامش قضية الانتحال ـ د . محسن غياض عجيل .... ٣٦ ـ ٣٨

ظاهرة تفاضل الازهار في الادب الاندلسي ـ د . هدى شوكة بهنام .... ٣٩ ـ ٤٩

الطلل في القصيدة الجاهلية

بين الرفض والقبول .... د . صميم كريم الياس .... ٥٠ ـ ٥٤

الحصان العربي الاصيل ـ ترجمة : محمد حسين ناصر .... ٥٥ ـ ٥٨

جنس النص النثري العربي ـ د . حسين حمزة الجبوري .... ٥٩ ـ ٦٤

رحلات الاطباء من الاندلس واليها د . محمود الحاج قاسم محمد .... ٦٥ ـ ٧٥

■ النصوص المحققة

شعر ابن هذيل القرطبي ـ د . احمد حاجم الربيعي .... ٧٦ ـ ١٢٠

■ قراءة في نص قديم

نص اخوان الصفا ـ قراءة قيس كاظم الجنابي .... ١٢١ ـ ١٢٣

■ العرض والنقد والتعريف

رسالة في علم الحجر المكرم لخالد بن يزيد ـ د . عماد محمد الحفيظ وعادل محمد علي ١٢٤ ـ ١٢٦

المحتوى ١٢٧

يوم الراية ١٢٨

• • • •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يوم الراية

وأخيراً أشرق يوم الراية بشمسه الوضاءة ليبدد ظلام الطاغوت الامريكي وتابعه الذليل البريطاني ، وليسجل صفحة جديدة في سفر المنازلة الكبرى ام المعارك الخالدة .

إنه يوم القائد المجاهد صدام حسين حفظه الله ورعاه ، فبحكمة سيادته ورجولته الفذة كان يوم البيعة الخالدة بشارةً في حياة العراقيين والعرب . وهو يوم الشعب العراقي الباسل الذي كتب بصبره وصموده اروع صفحات المطاولة . وهو يوم الامة العربية المجيدة التي أمدّت العراق طليعتها الباسلة بعمق قومي اصيل . وهو يوم الانسانية التي كان لوقفة شعوبها وشرفائها أثرٌ لاينكر في محاصرة قوى الظلام والطغيان .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الف تحية لقائد المسيرة
ورمز البطولة
المجاهد صدام حسين
الف تهنئة لشعبنا البطل
وامتنا العظيمة

والموت للامبريالية الامريكية وحليفتها الصهيونية العالمية .

محمد راضي جعفر